جيلبرت سينويه





يريفان

ترجمة

عبدالسلام المودني

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه



يريفان

رواية

ترجمة

عبدالسلام المودني

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: يريفان، رواية، ترجمة: عبدالسلام المودني، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Gilbert Sinoué, *Ervan*, roman

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

أريد أن أعرف إن كانت قوة في العالم تستطيع أن تبيد هذا العِرق، هذه القبيلة الصغيرة من أناس من دون قيمة والذين انتهى تاريخهم، وخسروا حروبهم، وتحطمت بنياتهم. أناس لم يعد يُقرأ أدبهم، ولم تعد تُسمع موسيقاهم، ولم تُستجب صلواتهم.

هلموا، فلتدمروا أرمينيا! ولتنظروا إن كان بإمكانكم فعل ذلك. ابعثوهم إلى الصحراء، واتركوهم من دون خبز ومن دون ماء. ولتحرقوا منازلهم وكنائسهم. ولتنظروا بعد ذلك إن لم يضحكوا من جديد، ذلك أنه يكفي أن يلتقي اثنان منهم في أي بقعة من العالم، حتى يصنعوا أرمينيا جديدة.

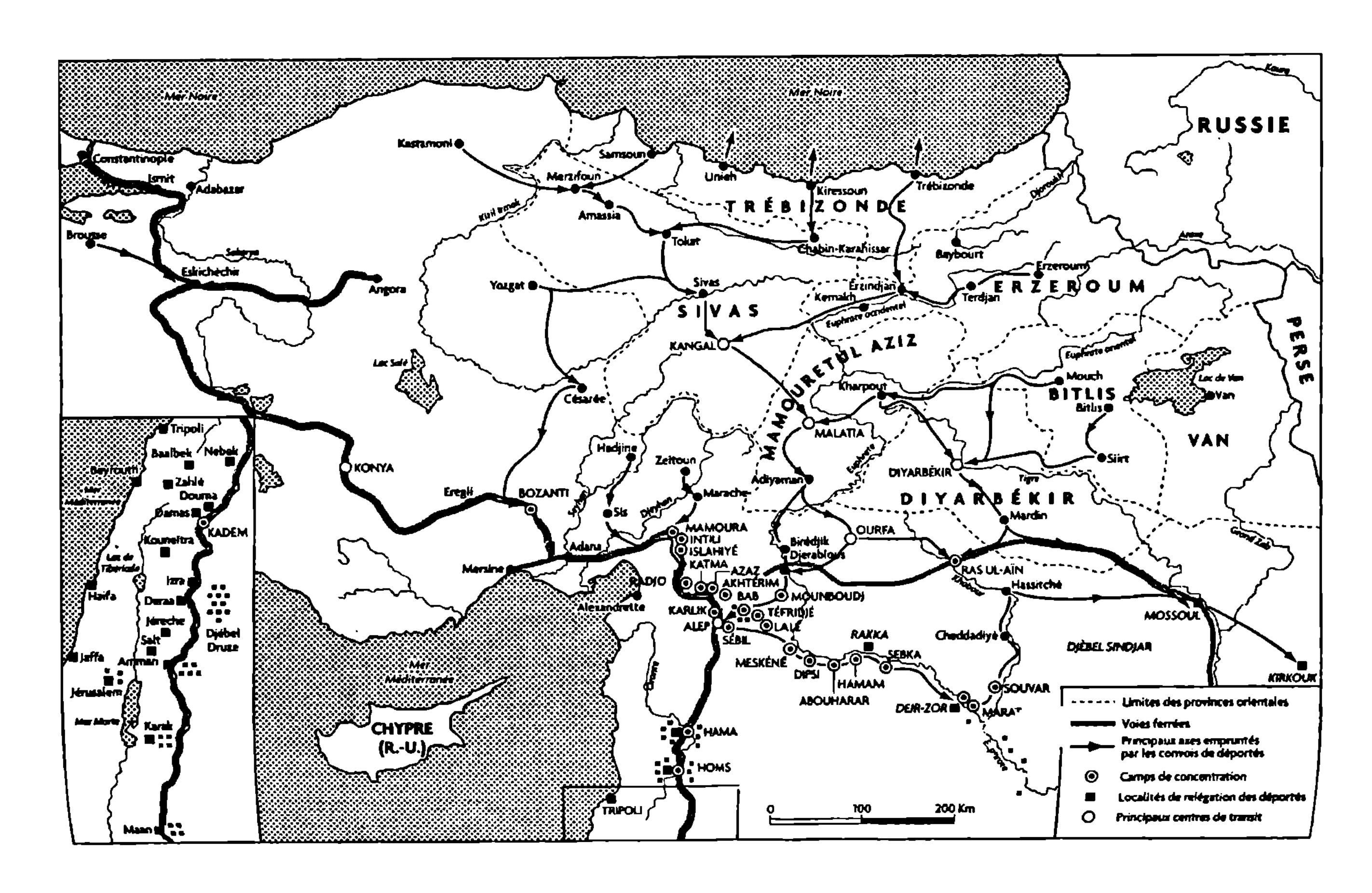
ويليام ساروريان ١٩٠٨-١٩٨١، «اسمي آرام»

تحذير

هذه رواية واقعية.

تم التحقق من الأحداث الرئيسية التي سُردت هنا.

الشخصيات السياسية والدبلوماسية والعسكرية، شخصيات حقيقية.


RUSSIE
PERSE
TRÉBIZONDE
ERZEROUM
SIVAS
MAMOURETUL AZIZ
BITLIS
VAN
DIYARBÉKIR
CHYPRE (R.-U.)
Mer Noire
Mer Méditerranée
Mer Morte
Lac Salé
Lac de Van
Lac de Tibériade
Euphrate occidental
Euphrate oriental
Euphrate
Tigre
Grand Zab
Kizil Irmak
Sakarya
Constantinople
Ismit
Adabazar
Brousse
Eskichéhir
Angora
Kastamoni
Samsoun
Merzifoun
Amassia
Tokat
Unieh
Kiressoun
Trébizonde
Chabin-Karahissar
Baybourt
Erzeroum
Terdjan
Erzindjan
Kemakh
Sivas
Yozgat
KANGAL
Césarée
Kharpout
Mouch
Bitlis
Van
Siirt
MALATIA
DIYARBÉKIR
Adiyaman
Mardin
KONYA
Eregli
BOZANTI
Hadjine
Zeitoun
Sis
Marache
Adana
Mersine
MAMOURA
INTILI
ISLAHIYÉ
KATMA
AZAZ
AKHTERIM
RADJO
Alexandrette
BAB
MOUNBOUDJ
KARLIK
TÉFRIDJÉ
ALEP
LALÉ
SÉBIL
Biredjik
Djerablous
OURFA
RAS UL-AÏN
Hassitché
MOSSOUL
KIRKOUK
DJÉBEL SINDJAR
Cheddadiyé
RAKKA
SEBKA
MESKÉNÉ
DIPSI
HAMAM
ABOUHARAR
DEIR-ZOR
SOUVAR
MARAT
HAMA
HOMS
TRIPOLI
Tripoli
Baalbek
Nebek
Beyrouth
Zahlé
Douma
Damas
KADEM
Kouneitra
Izra
Haïfa
Deraa
Jéreche
Djébel Druze
Salt
Jaffa
Amman
Jérusalem
Karak
Maan
Limites des provinces orientales
Voies ferrées
Principaux axes empruntés par les convois de déportés
Camps de concentration
Localités de relégation des déportés
Principaux centres de transit
0
100
200 Km



خريطة أرمينيا الحالية

تعالوا، فجّروا الدمل

تعالوا، فجّروا الدمل. ادخلوا هذا الرمس الذي يبدو أن قلة فقط من أبناء الهلال تريد أن تعترف بوجوده. من الهيّن جداً التعذر بالجهل... فلتمشوا على الوحل، وعلى الدم. فلتطأ أقدامكم هذي الرؤوس المقطوعة، ولتزيحوا عن ممركم هذي الأجساد المعلقة في أطراف الطرقات، ولتمروا فوق أجساد هؤلاء النساء المغتصبات ببطونهن المبقورة والمخضبة بالدماء كأنهن خرجن لتوهن من مجزرة، ولتتأملوا أخيراً هؤلاء الأطفال الصغار ذوي الجماجم المهشمة.

لا شك في أنكم سترفعون أصواتكم قائلين: «هذا غير ممكن».

إلا أن هذا حدث فعلاً. لقد كان هذا ممكناً في كمبوديا وفي رواندا وفي أي بلد آخر عاش الحرب أو الثورة، كذلك الأمر أيضاً في تركيا العثمانية عند بداية القرن العشرين في ظل حكم الأتراك الشباب. اقتربوا، تعالوا وخذوا علماً بالأمر حتى لا تكونوا بدوركم شركاء صامتين لأولئك الذين أنكروا ومن تحركهم الدولة. لايستطيع أمثالي أن ينعموا بالنوم ما دام هناك موتى بلا قبور. ما هي انتظاراتنا إذن؟ وماذا نريد؟ في الحقيقة نريد أشياء قليلة. نريد أنه عندما يرفع رجال ونساء الهلال أنخابهم للشرف، كما نرفع أنخابنا للصحة وكما يفعل اليهود للحياة، أن ينهلوا من هذا الشرف ليقروا بهذا الحدث من ماضينا المشترك الذي لا يمكن إنكاره.

ألم يحن الوقت للقيام بمصالحة لشعبينا، لتمزيق كتب التاريخ الزائفة، ولمحو هذه البقعة الأرجوانية المقيتة بصفة نهائية، من أجل التحرر من كذب الدولة حتى تدخل بوضوح وصفاء إلى أوروبا المترددة اليوم، والتي سيزداد شكها غداً؟ من حق الأجيال الشابة التي أتت بعد المأساة، والتي لا يد لها في الماضي، لكنها ضامنة للمستقبل، أن تعرف وأن تتحرر من خطأ لم يكن خطأها.

تعالوا إذن، وفجّروا الدمل، وقوموا بما قمت به. أدخلوا هذا الكتاب وعيشوا ما لم يخطر لكم على بال.

شارل آزنفور

القسم الأول

١

٢٦ آب ١٨٩٦، القسطنطينية، الساعة الثانية عشرة والنصف زوالاً، حي قرقوي

حدث انفجار أول.

فطار سرب من الحمام نحو السماء.

متفاجئاً ألقى أحد حرس مدخل البنك الإمبراطوري العثماني نظرة نحو زميله. سأله:

- هل سمعت؟

وجّه الآخر بندقيته باتجاه غالاطا، ثم إلى الأسطح الصفراء.

- وكأن...

غطى انفجار ثان على بقية ما قاله.

- بسم الله[١]! ماذا يحدث إذن؟ وكأن المدينة كلها تُقصف بالقنابل!

لم يكن بإمكان أي منهما معرفة أنه وفي الوقت نفسه، كان متمردون يحاولون نسف قصر يلضز حيث يقيم السلطان عبدالحميد الثاني، في حين تموقع آخرون في قمة الجسر الذي يربط غالاطا

---

(١) هكذا وردت في الأصل (المترجم).

بالقسطنطينية، وعمدوا إلى إمطار وحدة حراسة مقابلة لهم بالقنابل.

جهز الحرس بنادقهم، لكن أين هو العدو؟

وفجأة، انبعث من زاوية بشارع فويفودات حوالى عشرين رجلاً مسلحاً، غطت طاقيات رؤوسهم، وقد ارتدوا سراويل منفوخة.

صرخ جندي:

- مكانكم!

وبالصدفة المحضة، جعل من أحدهم هدفاً له، وبينما ضغط زناده، بالكاد ملك الوقت ليفكر بأن الرجل شارف على العشرين من عمره.

وكان مخطئاً.

ذلك أنه كان يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة.

وكان يدعى بيدروس باريان.

أما اسمه الحربي فكان بابكن سيوني.

أصابته الرصاصة مباشرة في صدره، غير أنه لم يسقط، إذ انفجر جسده، وطار رأسه بضعة أمتار كأنه جُزّ، في حين توزعت أطرافه على طول الطوار.

أصيب مهاجم آخر، وثالث ثم رابع.

وكرفيقهم الأول، لم يسقطوا، ولكن قذفت أجسادهم نحو السماء متحولة إلى أشلاء، قبل أن ينهال وابل من الرصاص على الجنود من شرفات تطل على الشارع.

وعاد الصمت. وبدت جثث الجنود تغطي المكان ومعها جثث المدنيين المجهولين.

كان الطريق خالياً.

تدفق المهاجمون داخل البنك. كانت غالبيتهم متمنطقة بقنابل وأصابع ديناميت، وهو ما يفسر الطريقة المخيفة التي مات بها بعضهم.

أطلقت امرأة صرخة ذعر مروّعة. تدافع الزبائن المفزوعين نحو المخرج، فأعيدوا بضربات بأعقاب البنادق.

أمر أحد أعضاء الكومندوس، وكان أصغرهم:

- اجلسوا! ولتضعوا أيديكم فوق رؤوسكم!

كان يبلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة.

وكان يدعى كاريكين باسترمادجيان.

أما اسمه الحربي فكان آرمن غارو.

وبينما كان مرافقوه ينتشرون في القاعة، خاطب أحدهم قائلاً:

- هوفانيس! اتبعني!

ثم قفز صاعداً درجات رخامية.

وتبع هوفانيس طوماسيان خطواته. الآن وبعد أن مات بابكن، صار آرمن القائد. هذا ما تم الاتفاق عليه سلفاً.

عند أعلى الدرجات، ألفيا نفسيهما مباشرة أمام حوالى عشرة مستخدمين غادروا مكاتبهم عندما سمعوا أصوات إطلاق الرصاص.

- لا تطلقوا النار!

- اهدأوا! لا شيء لنا ضدكم. تراجعوا!

ألقى آرمن نظرة على الممر الخشبي الممتد أمامه ثم سأل:

- ماذا يوجد في هذا الطابق والطابق العلوي؟

رد رجل قصير تفصدت جبهته عرقاً، متلعثماً:

- مكتب المدير العام، ومكتب محافظ البنك، ومكاتب طاقم السكرتارية والمترجمين. وفي الطابق الثاني، مديرية المحاسبة، وفي الأخير قاعة الأرشيف. ما من أحد هنا.

- ما من أحد؟ أين هم المسؤولون إذن؟ أين هو المدير؟ وأين هو المحافظ؟

ما من جواب.

- تكلموا!

أشار أحدهم إلى بابين من خشب البلوط الصلب، ثم قال:

- هنا...

- حسناً! جميعكم إلى الطابق السفلي! ابقوا هادئين. أكرر لا شيء تخشونه.

دخل هوفانيس الغرفة الأولى. كانت فارغة، فقصد الثانية. وضع يده على مقبض الباب. لم يستجب لحركته، ودون تردد منه، وجّه مسدسه نحو القفل ثم أطلق رصاصته. انفجر القفل، ثم وبضربة كتف كسره مقتحماً.

في الداخل، كان هناك رجلان على هيئة كهنوتية. كان الرجل الأول قصير القامة بديناً، في الأربعين من العمر بوجه طفولي، يزين شارب دقيق شفته العليا. أما الرجل الثاني، فيبدو أكبر سناً منه بقليل، بقامة طويلة يبدو رشيقاً، بلحية صهباء تدلت أسفل ذقنه، وسترت خديه الغائرين.

سار آرمن نحوه ثم قال:

- من أنت؟

- السير إدغار فانسنت.

- وما وظيفتك؟

- أنا محافظ البنك. إذا كان من أجل مفاتيح قاعة الخزائن فنحن...

- اصمت!

أشار آرمن إلى تكاة قرب إحدى النوافذ المطلة على البوسفور، وأمره بأن يجلس عليها، ثم توجه إلى الشخص ذي الوجه الطفولي سائلاً:

- وأنت؟

- غاستون أبوانو. المدير العام. أنا فرنسي. قاعة الخزائن غير...

رد غارو بفرنسية متقنة:

- من تحسبنا؟ لصوصاً؟ نحن فدائيون[٢]!

- فدائيون؟

- مضحّون. مقاتلون أرمن من أجل الحرية!

هز السير إدغار رأسه.

الأرمن.

كان عليه أن يحدس ذلك. فمنذ عدة أشهر، ارتفعت حدة التوتر بين هؤلاء القوم والسلطات، خاصة منذ قضية ساسون المأساوية. فقبل ذلك بسنتين، وبأمر من السلطان، تعرضت قرى أرمنية للتدمير من قبل الجيش العثماني لمدة أربعة وعشرين يوماً. ذلك أنه ولما رفض الساسونيون مرة أخرى، أن يفتدوا بجيرانهم الأكراد، قام السلطان، ظل الله[٣] على الأرض، باهتبال هذه الفرصة «ليختبر» رد فعل الغربيين الذين أزعجوه منذ مدة بـ«القضية الأرمنية». حينها تم الحديث عن قروين مصفدين أحرقوا أحياء، وعن نساء حوامل بقرت بطونهن، وعن أطفال قطعت أجسادهم إرباً وأيضاً عن فتيات صغيرات اغتصبن من قبل الجنود، قبل أن يذبحن. وفي وقت تحدث البعض عن ألف قتيل، أورد البعض الآخر أن العدد وصل إلى ثلاثة آلاف قتيل.

أين تكمن الحقيقة؟ بعد مضي أشهر على ذلك، وفي الفترة بين شهري تشرين الأول وكانون الأول من سنة ١٨٩٥، اندلعت موجة تعصب شعبي حقيقية مدعمة من طرف الجيش، ومشجعة بقوة من قبل

---

(٢) هكذا وردت في الأصل (المترجم).

(٣) هكذا وردت في الأصل (المترجم).

المؤذنين[٤] وهذه المرة، قضى أكثر من مئتي وخمسين ألف شخص.

بصعوبة بالغة قال الإنجليزي:

- أعربت دوماً حكومة صاحبة الجلالة الملكة فيكتوريا، مثل فرنسا، عن تعاطفها مع قضيتكم... أنتم...

- كذب!

وضع آرمن غارو فوهة مسدسه على صدغ المحافظ.

- لا تحدثني عن فرنسا ولاعن إنجلترا! ولا عن أي كان! كلكم لصوص!

احتج الإنجليزي قليلاً قائلاً:

- أنا آسف. لكن بريطانيا العظمى...

- بريطانيا العظمى؟

تدخّل هوفانيس هذه المرة، فبدت كلماته كأنها طرق:

- بريطانيا العظمى هي الأسوأ بين الجميع! أكثر من قرن وأنتم تدافعون عن الوحدة الترابية لهذه الإمبراطورية العليلة! ورئيس وزرائكم ديسوايلي هذا، أتذكر كيف باعنا في مؤتمر برلين؟ باعنا مقابل جزيرة صغيرة! لا شك أنك لا تذكر ذلك، لكن أبناء حايستان لم ينسوا ذلك أبداً!

أبناء حايستان. هكذا كان يطلق بعض الأرمن على أنفسهم نسبة إلى حايك، جدهم الأسطوري، وهو الابن الأول لحفيد نوح بطريرك الإنجيل.

أخفض السير إدغار عينيه.

هو أيضاً لم ينس ذلك.

فمؤتمر برلين الذي أشار إليه الأرمني، كان خاتمة إحدى تلك

---

(٤) هكذا وردت في الأصل (المترجم).

الأزمات التي لا تعد ولا تحصى التي هزت الإمبراطورية، والتي نتجت سنة ١٨٧٨ عن الحرب التي جمعت جيوش القيصر الإسكندر الثاني، وجيوش عبدالحميد الثاني، والتي انتهت بهزيمة العثمانيين.

ذلك أنه حتى قبل بدء المحادثات، أدت المفاوضات السرية بين إنجلترا وتركيا إلى «اتفاق تحالف دفاعي»، وتخلى الأتراك للبريطانيين عن قبرص المهيمنة على الجنوب الشرقي للساحل المتوسطي، في مقابل ضمان البريطانيين لانسحاب الروس من المناطق التي كانوا يحتلونها، تاركين في الوقت نفسه الأرمن يواجهون مصيرهم. ومنذ ذلك الحين، كانت تقع على عاتق بريطانيا العظمى مسؤولية حمايتهم. وبالموازاة مع ذلك، نص بند من الاتفاق على التزام حكومة الباب العالي[٥] بأن تعجل تحسين وإصلاح ما تقتضيه الحاجات المحلية في المحافظات التي يقطنها المسيحيون، وضمان أمنهم. لكن أياً من تلك الإصلاحات الموعودة لم تر النور. فقد انقضت ثماني عشرة سنة على ذلك، استمر خلالها السلطان عبد الحميد الثاني، دون أن يحاسبه أحد، في ممارسة سياسة الترهيب بحق الأقلية المسيحية.

ثماني عشرة سنة... وباستثناء القليل من الصراخ وكأنه لعقاب بحري، لم تفعل أوروبا شيئاً يذكر. ثماني عشرة سنة، ومئات الآلاف من الموتى! وثمانون ألف لاجئ عابرين للقوقاز، وآلاف الأطفال أضحوا أيتاماً.

بيع الأرمن مقابل جزيرة صغيرة.

زفر السير إدغار ثم قال:

---

(٥) كان الباب العالي يطلق على الباب الشرقي الكبير للوزارة الأولى، وهي مقر حكومة السلطان في العهد العثماني. واستعمل أيضاً للإشارة إلى الإمبراطورية أو حتى إلى مدينة اسطنبول. (الأصل).

- ما هي مطالبكم؟
أخرج آرمن غارو ورقة مدها إلى الإنجليزي قائلاً:
- كل شيء هنا. هو بيان موجه إلى سفراء القوى العظمى. إنه بين أيديهم في هذه اللحظة التي أكلمكم فيها.
وضع المحافظ نظارتيه وأخذ يقرأ لأوبوانو:
- قدمنا احتجاجنا دوماً لأوروبا ضد القمع التركي، لكن احتجاجاتنا المشروعة قوبلت بالرفض على الدوام، وبطريقة ممنهجة. وردّ علينا السلطان عبدالحميد بظلم دام، وقد شاهدت أوروبا جرائمه المشينة دون أن تحرك ساكناً.

وعلى الرغم من تلميحات أعدائنا، لم نطلب ولا نطلب إلا ما هو ضروري.

أن يعين لأرمينيا مفتشاً سامياً من أصل وجنسية أوروبية تختاره القوى العظمى الست.

أن يتم تعيين الولاة والقائمون مقام[٦] من قبل المفتش السامي، ويثبتون من قبل السلطان بالموافقة.

أن تقبل المطالب المقدمة من طرف الداشناك الفدرالية الثورية الأرمنية المعروفة اختصاراً بف.ث.أ.

ألا تستعمل القوة ضدنا أبداً.

أن يكون رجال الدرك أو الشرطة تحت قيادة ضباط أوروبيين.

أن تعتمد الإصلاحات القضائية على النظام الأوروبي.

أن تُضمن بشكل مطلق حرية الشعائر والتعليم والصحافة.

أن تُوجه ثلاثة أرباع عائدات البلاد إلى الحاجات المحلية.

---

(٦) يشير هذا اللقب في الإدارة المدنية التركية إلى حاكم مقاطعة، أما في الجيش فيقصد به مقدم.

أن تُشطب كل المتأخرات الضريبية.

أن تُعاد كل البيوت المغتصبة من قبل الميليشيات الكردية والتركية.

أن يُسمح بحق العودة الحر لكل المهاجرين الأرمن.

أن يُصدر عفو عام لكل المعتقلين السياسيين الأرمن.

أن تُضمن بشكل كامل الحياة لكل المحاكمين، سواء من يتواجد هنا داخل البنك أو كل اولئك الذين ساهموا في عمليات داخل المدينة. في المقابل لن يمس شيء من أثاث وأموال البنك حتى تنفذ مطالبنا، وفي حال العكس، ستدمر الأموال، وكل الأوراق الخاصة بالمعاملات، وسنقضي نحن وكل العاملين بالبنك تحت أنقاض هذه البناية. نحن مجبرون على اتخاذ هذه التدابير القصوى، لأن اللامبالاة الإجرامية للإنسانية تجاه شعبنا، أجبرتنا على ذلك.

أعاد المحافظ الوثيقة إلى الأرمني، قائلاً:

- هكذا إذن. تنتمون إلى الداشناك...

عقد أبوانو حاجبيه متسائلاً:

- الداشناك؟

شرح السير إدغار قائلاً:

- هو اسم حزب ثوري أسس في جورجيا قبل خمس أو ست سنوات.

طرح الفرنسي السؤال الذي كان يحرق شفتيه منذ وقت قائلاً:

- أعذرني، لكن كيف تتحدث الفرنسية بهذه الطلاقة؟

- لأني أعيش في فرنسا منذ سنتين. في مدينة نانسي تحديداً. وأنا طالب في المدرسة الوطنية العليا للمناجم.

- ومع ذلك فقد...

- أجل، عدت. هل يفاجئك الأمر؟ لم أستطع أن أتحمل بقائي كمشاهد عاجز أمام المذابح التي يتعرض لها إخواني. مستحيل!

- بالنظر إلى بيانكم، أنتم لا تطالبون بالاستقلال، أليس كذلك؟

- لسنا حمقى، ولا حالمين. هدفنا الحكم الذاتي، وتحرير إخواننا الذين ما عادوا يستطيعون تحمّل المأساة تحت النير العثماني.

- وتعتقدون أنكم ستنجحون عندما تتصرفون على هذا النحو؟ سيحطمونكم أيها السيد، إذ إنهم يملكون القوة بينما لا تملكون شيئاً.

- معكم حق. يمكن للقوة أن تحطم كل شيء. لكنها تقف دوماً عاجزة أمام الأفكار. لا يوجد جيش في العالم مهما بلغت درجة قوته أن يدخل إلى رأسي لينزع منه أفكاري. وعندما يتعلق الأمر بشعب بأكمله يفكر، فإنه يصير غير قابل للتحطيم. كونوا على يقين من أن. . .

- آرمن!

أشار هوفانيس إلى التكاة التي كان يجلس عليها السير إدغار قبل لحظات.

وكانت فارغة.

اندفع آرمن نحو النافذة، ثم قال:

- الإنجليزي المقيت! لقد قفز!

٢

قصر يلضز، الساعة الثالثة بعد الزوال

كانت المبخرة تصدر رائحة ورد لا يمكن تحمّلها.

أخرج السير إدغار فانسنت منديله الحريري، ووضعه بلطف على أنفه. كان النبي محقاً حين أعلن أن النساء والروائح فتنة لذا يجب أن تحبس. اثنتا عشرة سنة وفيكونت أبيرون، لأن السير كان برتبة فيكونت أيضاً، يعيش في هذا البلد، ولم يستطع التعود على الروائح التي تعطر المنازل والإدارات، كما لم يتكيف مع هذه الموسيقى المخدرة التي تدفع أشباحاً سلطانية إلى الدوران.

وها قد مضت أكثر من ساعتين ونصف الساعة وهو يتقلب منتظراً أن يسمح صاحب السعادة فيرهات غولغون، وزير الداخلية، بمقابلته وذلك على الرغم من أن المحافظ أوضح للكاتب أن الأمر يتعلق بقضية حياة أو موت.

البطء المتقن. فهنا لا شيء بسيط. ولا وجود لخطوط مستقيمة، بل طرق متعرجة، ودوماً ما لا يمكن استيعابه من أشياء. يعلم السير إدغار منذ مدة طويلة بأن غموض الشرق المعروف الذي يهمس له به مواطنوه لم يكن في الحقيقة إلا أوقاتاً مقلقة.

هذه الرائحة النفاذة جعلت رأسه يدور. قصد الباب الزجاجي ثم فتحه.

شعر بأنه أحسن حالاً أمام الهواء النقي.

كانت الساحة ممتدة على مرمى البصر. كانت كبيرة جداً حيث الأروقة والأكشاك والمعامل والحمامات، وأماكن الصلاة وإقامات الضيوف والمكتبات وبيت السلاح ومسرح... لم يكن يلضز قصراً في الحقيقة، بل كان مدينة في قلب مدينة حيث كل شيء يفوق الحد.

علت سيماء الفيكونت الكدر، وهو يتذكر مذابح الساسونسين. كانوا من الأرمن، ومن إخوة باليان الذين يدين لهم السلطان بجزء من عظمته! مسجد الحميدي وقصوره ودولماباش وبيلرباي كانت من أعمالهم. الكثير من العظمة. ليس ذلك فقط، وإنما في ميدان الصحة أيضاً، ذلك أن الأطباء الخاصين الثلاثة للملك كانوا أيضاً من الأرمن.

وإذن؟ ما الذي حل بهذا الشعب اليوم الذي كان الأتراك أنفسهم يطلقون عليهم مليتي ساديكا أي الأمة الوفية، حتى يتم إبعاده ونفيه من المجتمع العثماني؟

- سير إدغار! صاحب السعادة ينتظركم.

ما إن عبر المحافظ إلى المكتب حتى استقبلته مجدداً رائحة الورد، غير أنه أخفى نفوره منها، انحنى أمام الوزير فيرهات غولغون الذي قال:

- السلام عليكم أيها السير إدغار. تفضل رجاءً.

بنبرة عابسة وشبه متقطعة قال:

- أشكركم على تشريفي بهذا الاستقبال يا صاحب السعادة. أمام خطورة الوضع...

- أعلم، أعلم يا صديقي. أنا مطلع على الوضع.

ثم سأله بالقول:

- هل تريد مشروباً بارداً؟ فالجو حار هذا اليوم.

صفق الوزير فتقدم منهما خادم ليأمر بالقول:

- إثنان كركادي!

استرخى فيرهات غولغون في مقعده، ثم أخرج سبحة من الكهرمان من جيب سترته، وأخذ ينقر حباتها بحركة اعتيادية قبل أن يقول:

- أخبرني إذن كيف فعلت ذلك؟

- عفواً؟

- كنت في البنك هذا الصباح. كيف نجحت في الهرب؟

- بمعجزة. استغللت لحظة عدم انتباه من المتمردين، لأقفز من النافذة. المدير العام السيد أوبوانو ما يزال في قبضتهم.

- كم يبلغ عددهم؟

- لم أر إلا اثنين منهم. من دون شك عددهم أكثر من ذلك بكثير.

- هل عرّفوا بأنفسهم؟

- هم أرمن يا صاحب السعادة. لقد...

- أعلم هذا. إلى أية مجموعة إرهابية ينتمون؟

- هم أعضاء في الداشناك.

- الداشناك والهنتشاك والرامغافار والأرمنكان! اللعنة على ألقاب هذه الأحزاب الثورية! كم يبلغ هذان الشخصان من العمر؟

- أقل من خمس وعشرين وسنة.

استشهد الوزير بآية من القرآن ﴿بئس ما اشتروا به أنفسهم!﴾ يا للحماقة! كل هؤلاء الموتى من دون فائدة.

اشتدت قبضة أصابعه على سبحته الكبيرة، بينما ألقى نظرة على ورقة وضعت على مكتبه، ليقول:

- عشرات القتلى. حوالى ثلاثينَ مصاباً. حوادث اعتداء في كل المدينة. يا للحماقة!

- أفترض يا صاحب السعادة أنكم اتخذتم قراراً.

- بطبيعة الحال. في هذه اللحظة بالضبط، تحاصر قوة عسكرية المبنى بأكمله. لا يملكون حظاً للإفلات.

عاد الخادم. قدم صينيته بدءاً إلى الوزير، بينما مد كأس الكركادي الثانية إلى الإنجليزي، قبل أن ينسحب متراجعاً.

سأل الإنجليزي بقلق باد:

- هل تنوون الأمر بالهجوم؟

- وهل أملك خياراً؟ فاتان هيني! الخونة! هؤلاء الناس كفرة، ومجدفون حقيرون، وعلى الخصوص جاحدون يعضون اليد التي امتدت لهم بالحنو. فاتان هيني!

- اعذروني يا صاحب السعادة. الأكيد هو أني جاهل إلى حد ما بالقضية، لكن لِمَ تتهمونهم بالخيانة إزاء شعبكم؟

- سؤالكم يفاجئني! هل قرأتم تقرير ابن بلدكم النقيب نورمان؟

- لا.

- هو ضابط في المدفعية البريطانية، أرسل كمراقب أثناء الحرب المشؤومة التي جمعتنا بالروس. عليكم أن تقرأوا تقريره أيها السير إدغار. فالعبرة أكيدة في مضمونه، وهو ذو مصداقية ما دام أنه أنجز من قبل شخص غير تركي. في مقدمة تقريره، يعلن النقيب نورمان أن الوقت قد حان ليطلع الجميع على تقرير صادق عن النزاع التركي الأرمني. ويقرر أنه إلى الساعة لم يتوفر للغربيين الاطلاع إلا على الرواية الأرمنية للقضية، مزينة بالبيانات الهستيرية للدبلوماسيين الأجانب الذين لم يغادروا أبداً مكاتبهم. ويضيف الضابط أنه سمع كثيراً إلى حد

التخمة، وهذه كلماته، ذكر المذابح والغارات واغتصاب النساء، لكن ما من شاهد محايد أثبت صدق هذه الروايات.

- ومع ذلك يا صاحب السعادة. . .

- رجاءً، اسمحوا لي أن أنهي كلامي! من المهم جداً أن تحيطوا بجوهر الموضوع. يشاع في كل مكان في الغرب أن هؤلاء الأرمن المساكين يطالبون بحرية الصحافة، وحرية التعبير، ومجانية التعليم، وإلغاء بعض الضرائب التي يرونها مجحفة، ولكن الهدف الحقيقي الذي يبغي الداشناك أو الهنتشاك، او لست أدري أية حفنة أخرى، الوصول إليه، هو تمزيق وحدة الأمة التركية. بلغني قبل مدة أنه وخلال اجتماع عام عُقد بمرسيليا، أطرى أحد المتحدثين على عملية تسليح كل القرويين الأرمن في تركيا. هل تعلمون خطورة موقف مماثل؟ وهناك الأخطر. . .

توقف فيرهات الوقت الذي بلل فيه شفتيه بالكركادي ثم عاد ليقول:

- أجل، هناك الأخطر. هل أُحطتم علماً بما قام به هؤلاء الأرمن أثناء الحرب ضد روسيا؟

- هناك العديد من الإشاعات بهذا الخصوص.

- ليست إشاعات أيها السير إدغار، بل هي الحقيقة. أولاً عند بداية تحركهم قامت العديد من الميليشيات الأرمنية بالتحرش بقواتنا مخلفة العديد من الضحايا. وأثناء القتال، أخبرنا قوادنا بأنه ما إن تتوفر المناسبة للجنود الأرمن حتى يجهزوا على جنودنا. ولما كانوا مساندين من قبل الروس فقد قضوا تماماً على قرية زيف قرب مدينة فان. هل تعلمون أنه وفي شهر كانون الثاني من سنة ١٨٧٨ كان على رأس الجيش الروسي الذي دخل ياشيلكوي في قلب عاصمتنا جنرالات من. . . الأرمن؟ الخونة!

أضحت ملامح الوزير المتألقة عادة متجهمة من دون بريق.

بخجل ذكّر المحافظ محدثه قائلاً:

- لكن يا صاحب السعادة، تذكرون بلا شك أن روسيا ألحقت قبل أكثر من نصف قرن جزءاً من أرمينيا القديمة، جاعلة في الوقت نفسه أكثر من مليون أرمني ونصف المليون منهم تحت وصاية القيصر؟ وكنتيجة لذلك، أضحوا مواطنين روساً. أليس هناك من شيء أكثر طبيعية من وجودهم في صفوف الجيش الروسي؟ هم...

وكأن الوزير لم يسمع هذه الملاحظة إذ قال:

- هيا أيها السير إدغار! أجيبوني صراحة. هل تقبلون بأن يحمل الغاليون[7] السلاح ضد ملكتكم؟ كيف تصرفتم حين ثار الإيرلنديون؟ هل يمكنكم أن تردوا على سؤالي؟

كان المحافظ على وشك أن يفحم محدثه بأنه لا يجد أي شرف بأن يتذكر أن بلده وتحت قيادة كرومويل قام بمذبحة حقيقية أجهزت خلالها القوات البريطانية على ثلث سكان الجزيرة. لكنه اكتفى بالقول:

- تمنيت لو أن الشعب التركي كان أكثر شهامة مما كنا نحن عليه يا صاحب السعادة. لكن أحداث الساسون...

- أحداث الساسون!

وهزت ضحكة عصبية الوزير ليضيف:

- أية أحداث؟ التأويلات لا أقل ولا أكثر هي من صنعت تلك الأحداث.

- مئات الموتى...

- متمردون ومثيرو الشغب! كنتم ستتصرفون بالطريقة نفسها، إن لم يكن أكثر لو أن الأمر حدث في لندن أو في باريس أو في فيينا!

---

(٧) أبناء بلاد الغال. (المترجم).

لوّح غولغون بسبحته في وجه زائره وهو يقول:

- فتحنا لهم أذرعنا أيها السير إدغار! لو كنا وحوشاً كما يتهموننا، فهل تعتقدون بأننا كنا سنسمح لحوالى ثلاثين أرمني بأن يصلوا إلى رتبة باشا الرفيعة؟ إلى رتبة وزير؟ ومن بينهم أيضاً وزراء للشؤون الخارجية؟ وأعضاء في البرلمان؟ وسفراء، وقناصلة عامون؟ هل تعرف وحشية غير معترف بها مثل هذه...؟

جف ريق السير إدغار. لا يذكر متى كانت آخر مرة أصابه فيها مثل هذا العطش. تناول كأس الكركادي، وأفرغها في جوفه دفعة واحدة قبل أن يقول:

- أتفهّم موقفكم. لكننا اليوم إزاء وضع خاص جداً، ذلك أن أكثر من مئة وخمسين موظف بنك، وأغلبهم غربيون، مهددون بالموت. ويبدو أن هؤلاء الشبان عازمون، وهم مسلحون بالقنابل وأصابع الديناميت. وأنا على يقين من أنهم سيستعملونها.

- من أين لكم هذا اليقين؟

- لأن الحياة علمتني بأن هناك فئتين من الناس لايخيفهم الموت. المسنّون والأطفال. أخبرتكم بأن أعمارهم أقل من خمس وعشرين سنة.

- أرد عليكم بأن الأمم في التاريخ مقسمة إلى نوعين: الأمم الحقيقية، والأمم المنتحلة. ليس الأرمن إلا أمة منتحلة، وأصواتهم تشبه ما تصدره علبة فارغة. ومقارنة بنشيد الأمة التركية، فنشيد الأرمن لم يكن ولن يكون إلا صمتاً. وسيبقى دوماً كذلك.

قام الوزير. وهكذا انتهت المحادثة.

ما إن تجاوز السير إدغار العتبة المعطرة حتى تذكر المرادف الأول لكلمة غولغون التي تعني بالتركية «وردة».

٣

البنك الإمبراطوري العثماني، اليوم الموالي، ٢٧ آب ١٨٩٦،
الرابعة صباحاً

ألقى آرمن غارو نظرة قاتمة حوله. صمت ثقيل يخيم على القاعة الفسيحة المنجدة بالخشب بلون الأبنوس حيث تمدد أكثر من مئة رجل وامرأة، ومنهم من تكوّر أسفل الشبابيك، ضامين ركبهم إلى صدورهم. استسلم أغلبهم للنوم في حين أبقى الآخرون أعينهم مفتوحة بوجوههم المصفرّة.

كان المدير غاستون أوبوانو من بين هؤلاء.

ساهمت قلة النوم في إذكاء ضعفه، فهو يعرف الأتراك جيداً. وبالنسبة إليه، ما من شك في أن الجنود سينهون الأمر بهجوم. بل إنه متفاجئ أنهم تأخروا للآن للقيام بذلك. مذبحة. هذا ما سينتهي إليه النزق الجنوني لهؤلاء الشباب الطائشين. ومع ذلك، فهو لم يأل جهداً في محاولة منه لإعادتهم إلى صوابهم. فعلى امتداد الساعات الأخيرة، استنجد أبوانو بكل القرائن غير أنه اصطدم بجدار.

مسح جبهته. فالمراوح كانت تصدر بيأس هواءً ساخناً. وبعد قليل من الوقت، ستنقضي ثمانٍ وأربعين ساعة عليه دون أن يكون قد أكل شيئاً، شأنه في ذلك شأن كل رفقائه في الحظ العاثر. فالشكر لله أن

المؤسسة تتوفر على مصادر غير محدودة من الماء الصالح للشرب. لا يذكر أين قرأ أن المرء وإن حرم من المأكل يمكنه أن يستمر في الحياة بضعة أسابيع معتمداً في ذلك على مخزونه، بينما ودون ماء فإن الحياة تقتصر على بضعة أيام فقط.

- هل أنت بخير؟

انتشله صوت آرمن غارو من خدره.

- هو سؤال لم أعد أطرحه على نفسي. لكني أتصور أني أفضل حالاً من البعض هنا.

ثم أشار إلى جسد امرأة قد تكون في الستين من العمر منكمشة على نفسها ليقول:

- أفضل منها على كل حال.

- إنه لأمر مؤسف، لكنهم لم يتركوا لنا خياراً. رأيتم لامبالاتهم في حين أنكم نقلتم مطالبنا إلى من يقود فرقتهم العسكرية المتأهبة للهجوم. وكأن شيئاً لم يصلهم.

- هذا العسكري لا سلطة له ولا قرار. وحده السلطان من يملك القدرة على إنقاذ حياتكم وحياة كل المحبوسين هنا.

صدرت عن الأرمني ضحكة مقززة وهو يقول:

- عبدالحميد؟ هل سبق لكم أن رأيتم جزاراً يتأخر أمام الكبش الذي يستعد لنحره؟ بربكم يا سيد أبوانو، فلنكف عن الأحلام.

- لكن ما الذي تأملونه؟

- أن يقوم بلدكم الذي أحب، فرنسا حقوق الإنسان، وباقي القوى العظمى الغربية بالتدخل لصالحنا.

- أنتم ساذجون بشكل كبير. أنا فرنسي، وبغض النظر عمّا تعتقدون، أعلم أن حكومة بلدي شعرت دوماً بالتعاطف إزاء قضيتكم.

يبدو أنكم أغلفتم أنه في سنة ١٨٦٢ في سيليسيا عندما حاصرت القوات العثمانية مدينة زيتون الأرمنية، تم وقف المذابح بفضل التدخل الشخصي لنابوليون الثالث، وللضغوط التي مارسها على السلطان عبدالعزيز. فكروا، هل أنتم واعون بالمصالح الموضوعة على المحك؟

صاح صوت قائلاً:

- المصالح؟ مصلحة شعبنا وحدها يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.

تعرّف أبوانو على الرجل الذي اقتحم قبل ساعات من ذلك المكتب رفقة آرمن غارو، فسأله:

- هل يمكنني معرفة اسمكم يا سيدي؟

- هوفانيس، هوفانيس طوماسيان.

- كم تبلغون من العمر؟

- اثنتين وعشرين سنة.

تفحص أبوانو الشاب جيداً. كان ذا ملامح نبيلة، زينت بشارب دقيق، وشعر رأس منفوش، ونبرة صوت حاسمة تتقاطع مع رقة نظراته.

زفر الفرنسي قائلاً:

- اثنتين وعشرين سنة... كم أنتم بعيدون عن الحقيقة. من المؤكد أن رقم خمسة مليارات فرنك لا تعني لكم شيئاً.

هز هوفانيس رأسه نفياً، فعاد الفرنسي ليقول:

- طيب. فلتعلموا إذن أن هذا هو المبلغ الذي اقترضته تركيا إلى يومنا هذا من القوى العظمى الغربية. والحال أنها لم تتسلم إلا ثلاثة مليارات. هل تعلمون لـمَ؟ لأن المليارين المتبقيين ذهبا إلى جيوب الوسطاء الغربيين وإلى مختلف البنوك. وإذا ما أخبرتكم أنه ويغضّ الطرف عن هذا القرض، وضعت الأموال الأوروبية في مختلف

مؤسسات البلد، في السكة الحديدية، والمرافئ، والمناجم، والتبغ. مهما بلغت قوة تخيلكم، ستعجزون عن إدراك حجم الاستثمارات التي تمثلها.

تدخّل طوماسيان وقد نفد صبره:

- ماذا تقصدون سيد أبوانو؟

- أريد أن أفتح أعينكم. فالحرب التي تخوضونها خاسرة مسبقاً. تنتظرون اعتراف القوى الغربية... يا له من وهم! أنتم تجانبون الأهم: مجال الأعمال. فلترسخوا هذا في نفوسكم، إن هؤلاء السادة لا يأملون تفتيت الإمبراطورية ولا إصلاحها. رغبتهم الوحيدة تكمن في إبقاء الوضع على ما هو عليه، بمعنى إبقاء الفوضى والفساد. فتركيا منظمة وقوية، وقادرة على أخذ زمام أمورها بيدها، ستكون بالنسبة إلى الغرب كموت الدجاجة التي كانت تبيض ذهباً، ونهاية الامتيازات المربحة والأعمال المزجية. فلتعلم أن الوصي الذي يجني أرباحاً من وراء المتبنى لا يرغب أبداً في موته أو في بلوغه سن الرشد، بل كل ما يرجوه، هو أن يبقيه على حالة طفولته أطول فترة ممكنة. هل فهمتم الآن، لمَ لا يستطيع الشعب الأرمني أن يكون على مستوى الرهان؟

همس آرمن غارو قائلاً:

- أرمينيا.

أطلت تكشيرة من وجه المصرفي وهو يقول:

- أرمينيا؟ عن أي أرمينيا تتحدثون؟ أما زلتم تحلمون بأرمينيا أجدادكم؟ أرمينيا عهد تيغران الأكبر، عندما كانت أراضيكم تمتد من البحر الأسود، حتى بحر قزوين وحتى البحر الأبيض المتوسط! أرمينيا لوفون العظيم أو الأمراء الزكريين. كان هذا قبل ألف سنة! انتهى كل ذلك الآن! ورياح التاريخ لا تقلب الصفحات بالعكس. عرف البارثيون المصير نفسه هنا، والفرس والرومان والمماليك والأكراد والشراكسة

وتيمورلنك والمغول والروس، ومنذ ستة قرون الأتراك أيضاً. فلتتخلوا عن رغباتكم الوهمية!

بدا أن آرمن غارو لم يقم بردة فعل إزاء قول الفرنسي، ذلك أنه أحنى رأسه وأغلق عينيه.

ففي نصف غلالة، بدت له مدينته العزيزة، إرزروم، غارين القديمة الواقعة في سفح القمم الثلجية لجبل بالوندوكن وديفي بويون. يرى الأطفال يلعبون عند أسفل مروج الكستنة الصغيرة، والرعاة، والأراضي الخصبة، والمراعي، والهيكل الباعث على الثقة للقصر البيزنطي.

كان اليوم الأول للربيع، وآرمن بلغ لتوه التاسعة من العمر، في الوقت نفسه الذي أخذ العسل يتدفق من خلايا النحل كالماء.

كان ما يزال ينام عندما أخذ يسمع وقع الحوافر في مداخل المدينة، وبسرعة انطلقت أصوات إطلاق النار. قفز آرمن من سريره وصرخ قائلاً:

- آيريغ! ماما!

- لا تخف يا صغيري. لا تخف. لا عليك.

حملته خارج الغرفة وهي تضمه إلى صدرها بقوة.

لماذا أحس بأن جلده برائحة البخور؟

رأى والده آنوشافون وقد تحفز إلى جانب النافذة حاملاً بندقية قديمة، في حين تكوم آراتش أخوه الأكبر قرب المدفأة العتيقة.

دنت منهم جلبة الخيول، وكأن الرعد يضرب المدينة.

تلعثم آرمن سائلاً:

- ما الذي يحدث يا أبي؟

- الحميديون. إصعدوا إلى العلية! لا تغادروها!

اقشعر بدن آرمن خوفاً، ذلك أنه كان يعلم جيداً قدرة هؤلاء

الفرسان الرهيبة الذين كان أغلبهم من الأكراد والتي أسسها السلطان عبدالحميد. فقد شكلت الفرقة رسمياً لضمان الأمن الداخلي، في حين كان عملهم في الحقيقة يهدف إلى ضرب التجمعات الأرمنية.

علت السماء صرخات الموت.

وعم المكان العويل والصراخ.

صعد آراتش الصغير رفقة أمه الدرجات الخشبية، حيث تزاحموا جميعاً كما ليحتموا جيداً من الرعب.

ومن هناك، حيث كانوا يتواجدون، لم يكن باستطاعتهم رؤية المواجهات التي تدور في القرية. بيد أنه كان بإمكانهم تخمين ما يجري ما داموا قد عاشوه أكثر من مرة. فكل الرجال القادرين على القتال من أشيبهم إلى أصغرهم سناً حملوا أسلحتهم، والذين لم يتوفروا على السلاح حملوا الرفوش والعصي في حين كانت النساء ترعى الأطفال. أما الشيوخ، فقد أخرجوا سبحاتهم وشرعوا يصلّون إلى القديس غريغوار المنير بأصوات خفيضة. وكان للآخرين ربما وقت للاحتماء في الكنيسة.

وفجأة، غزت رائحة الاحتراق الخياشيم. كانت من دون شك تنبعث من منزل محترق، وستكون هناك منازل أخرى. شد آرمن نفسه بقوة إلى صدر نوني مغالباً في السيطرة على اهتزازت جسده.

كم مضى من وقت؟ لا يعلم.

وأخيراً، عاد الهدوء ومعه الصمت الضاغط الذي يساعد على تصور مشاعر الرعب القادمة.

لم يكن مسموحاً لآرمن ولا لآراتش الخروج من المنزل قبل أن يأذن الأب بذلك، أي ليس قبل بضع ساعات، بمعنى الوقت الكافي لإزالة الجثث من الطرقات، وجثث الحوامل المخضبات بدمائهن، وجثث الأطفال المطعونين أو المذبوحين أحياء، وهو الوقت الكافي

أيضاً لتهدئة روع الطفلات المغتصبات اللواتي لن تهدئهن أبداً أية وسيلة.

واليوم يجرؤ هذا السيد أبوانو على أن يقول له «تخلوا عن رغباتكم الوهمية».

فتح آرمن عينيه، وكان حزن كبير كالعالم يتراقص في حدقتيه.

إقامة السفير الفرنسي، القسطنطينية، في الوقت نفسه

غمغم بول كامبون بشيء مثل «يا له من مأزق!». وكان قد عرف أياماً سعيدة في فترة ليست بالبعيدة عندما كان مقيماً عاماً لفرنسا بتونس، وأياماً أقل توتراً عندما انطلق قبل حوالى عشر سنوات في إقامة تحالف فرنسي مع صديقه بيير فونسان.

أخذ يداعب بعصبية لحيته الرمادية المحدودبة، والتي تمنح انطباعاً خاطئاً بكونه نابوليون الثالث، وهو يتأمل محاوريه الخمسة حوله، السكرتير الخاص للسلطان قادر باشا، والترجمان ألكسندر ماكسيموف المترجم الرسمي لقنصلية القيصر، والسير إدغار فانسنت، وسفير النمسا آجيرمان فون بيلينبرغ، والبارون هنري وود هاوس السفير البريطاني الذي كان على أعصابه إذ أشعل سيجارته المصرية الثالثة من نوع ميلاشرينو التي كانت على الموضة في أوساط القنصليات الأجنبية منذ أن امتدح مزاياها اللورد كيتشنر، بينما كان بول كامبون من جانبه يفضل أكثر تبغ فيرجينيا.

قال بصوت تحرى فيه الهدوء ما استطاع:

– إذن أيها السادة، ماذا قررنا؟ لقد أحطتم علماً بتقرير السير إدغار. سأترككم تتصورون النتائج، إذا ما نفذ هؤلاء الثوار تهديداتهم.

هل عليّ أن أذكركم بالدور المعتدل الذي يجب علينا نحن الغربيين، لعبه في هذا البلد؟

علق قادر باشا بمسحة سخرية:

- دور يثقل على كواهلكم. ليس من السهل أن يكون المرء خصماً وحكماً، محايداً وطرفاً في نزاع في الآن عينه. تتفقون على هذا، أليس كذلك؟

وكدبلوماسي خبير، رد بول كامبون على السؤال بسؤال آخر:

- أما زالت شرطتكم عازمة على تنفيذ هجومها؟

- إذا لم يسلّم المتمردون أنفسهم من دون شرط فالجواب نعم.

أعلن السير إدغار:

- اسمحوا لي أن أعلن لكم أنكم تقومون بخطأ جسيم، ذلك أن التوتر الذي يسود البلد سيزداد، ونحن على وشك فتح الباب على كارثة حقيقية.

مال قادر باشا ذو الوجه المكتنز قليلاً إلى الأمام، وهو يقول:

- هذا التوتر يا سير إدغار، ألستم أنتم المسؤولين عنه؟ وعندما أقول «أنتم»، فأنا أتحدث بطبيعة الحال عن القوى العظمى الغربية.

قطب كامبون جبهته، في حين رفع فون بيلينبرغ عينيه إلى السماء، وسحب الإنجليزي نفساً من الميلاشرينو، أما الترجمان ماكسيموف فبقي بلا حركة.

تدخّل الممثل الفرنسي مذكّراً بلطف:

- اسمح لي يا صديقي، لكن يبدو لي أن الوقت يضغط علينا، وهناك أرواح على المحك.

رد الباشا:

- ونحن نحزن لذلك، ومع ذلك اسمحوا لي بأن أذكّركم ببعض النقاط الأساسية.

- سيدي، أخبرتكم لتوي بأن الوقت يضغط علينا.

قال الباشا بصوت متعب:

- «ويدعو الإنسان بالشر دعاؤه بالخير، وكان الإنسان عجولاً». لقد جزأنا الغرب، وفقدنا في إفريقيا وفي أوروبا أكثر من ربع أراضينا. واليوم بلدي غارق في الديون، ويعاني انهياراً إدارياً. وأجبرت حكومة بلدي على منحكم وضعية جيدة عبر تشكيل لجنة القرض العام.

ثم وهو يركز ناظريه على السير إدغار:

- أنتم تعلمون أكثر من سواكم ما أقصده ما دمتم كنتم رئيساً لهذه اللجنة لمدة سنتين. لقد صارت أشبه بدولة داخل الدولة، توظف عدداً من الموظفين أكبر منه في وزارتنا للمالية!

أضاف لكن موجهاً حديثه هذه المرة إلى كامبون:

- وإدارة التبغ التي يديرها مواطنك السيد لومبير، والتي تسيطر عليها فرنسا كلها، وهذا البنك موضوع اجتماعنا أليست أغلبية رساميله فرنسية؟ إن بلدي جاثٍ على ركبتيه، فلسنا إلا أمة مذلة وفي وضع سيّئ جداً.

عمّ صمت مدة قصيرة كسره سفير النمسا حين قال:

- عرضكم هذا مقنع يا قادر باشا، وأنا أتفق تماماً مع تحليلكم، غير أني لا أرى رابطاً بين ما قلته والمأساة التي تدور على بعد أمتار من هنا.

- أليس محتجزو الرهائن من الأرمن؟ ألا يشكل هؤلاء الناس تهديداً خطيراً على الأمة التركية؟ هم لا يفوتون الفرصة ليمنحوا للغرب أسباباً جديدة للتدخل في شؤون بلدي الداخلية. وكمثال على ذلك...

ركز ناظريه على عيني سفير بريطانيا العظمى، ثم ارتفعت نبرة صوته:

- قبل مدة قصيرة، ألقى وزيركم الأول الليبرالي وليام غلادستون في ليفربول، خطاباً عنيفاً بشكل غير عادي تجاهنا، واصفاً التركي بـ «عينة اللاإنسانية من بين كل الناس!» وتجرأ على وصف سلطاننا المحبوب بـ «السفاح الكبير» مناشداً إنجلترا بتبني موقفٍ من قضية الثوار الأرمن. وبطبيعة الحال، الكل يعلم أن عزيزنا السيد غلادستون مشبع جداً وبشكل عميق بالمسيحية، وأن ما يحركه فقط خوفه المرضي من الإسلام.

احتقن وجه هنري وودهاوس وهو يقول:

- سيدي! كيف تجرؤون على اختزال هذه القضية في مواجهة عادية بين مسيحيين ومسلمين؟ ما دمتم قد ذكرتم السير ويليام غلادستون سأفعل أنا أيضاً. لقد أعلن بالقول أيضا: «لو لم نكن إزاء الحكومة التركية ونلومها على جرائمها ضد رعايا مسيحيين، وكنا إزاء حكومة مسيحية قادرة على ارتكاب جرائم مماثلة ضد رعايا من أتباع محمد[٨]، فإن إدانتنا ما كانت لتكون أقل بل أكثر مما هي عليه اليوم». ويبدو لي أن هذا التأكيد لايحتاج إلى تعليق.

تخلى سفير النمسا فجأة عن صمته قائلاً:

- قادر باشا، أخبركم بكل احترام: أين رأيتم أمة وتحت ذريعة أنها جردت من أراضيها التي أخذتها بقوة السلاح، تعطي لنفسها الحق بأن تجعل فئة من شعبها تدفع ثمن ذلك، سواء أكانت مسيحية أم لا؟

بدا التوتر على بول كامبون. فالحادثة الدبلوماسية وشيكة جداً. وجّه حديثه مباشرة إلى الباشا سكرتير قائلاً:

- صديقي العزيز: أعتقد أننا جميعاً واعون بالوضعية الصعبة التي تجتازها الأمة التركية النبيلة، فلتثقوا بأن رغبتنا الوحيدة هي المساعدة

(٨) مسلمين، وذكر في النص محمديين. (المترجم).

على تقويمها. هل يمكننا أن نعود الآن إلى المأساة التي تحدث على بعد خطوات من هنا؟

- طيب سيدي السفير، ماذا تقترحون؟

- أن تتخلصوا من هؤلاء المحرضين نهائياً.

حملق الباشا بعينيه، وهو يقول:

- أنتم تتفقون إذن مع إصدارنا أمر الهجوم على البنك.

- الحل الذي أفكر فيه ينبني أساساً على إقناع هؤلاء الشبان بوضع أسلحتهم، ومغادرة تركيا دون أن يعودوا إليها أبداً.

تراجع قادر إلى الوراء وهو يسأل:

- ماذا؟ سيظلون أحراراً إذن، غير معاقبين؟

- دعوني أكمل رجاءً. السفينة الفرنسية «لاجيروند» متواجدة حالياً بمياه البوسفور، يقترح السير إدغار أن يحمل الثوار إليها على متن يخته. بعد ذلك ستقصد السفينة فرنسا. وفرنسا مستعدة لاستقبالهم، وتجعل نفسها ضامنة لعدم عودتهم إلى تركيا.

أكد السير إدغار:

- هو الحل الأمثل. ثقوا بنا، فهذا الحل يجنبنا ما هو أسوأ. لقد مضت ساعات على سجن أبرياء على أيادي أطفال عنيفين. يمكن لأي شيء أن يقع.

استعان بسفير النمسا كشاهد عندما توجه إليه بالسؤال:

- ألسنا مصيبين يا صاحب السعادة؟

تجنب فون بيلينبرغ السؤال ليتوجه مباشرة إلى الباشا بقوله:

- قدمتم لنا قبل قليل عرضاً جيداً عن حالة الإمبراطورية. وليس لشخصية من مثلكم أذكر ما يلي: قلما نختار في السياسة ما بين الخير والشر، ولكن غالباً ما نختار ما بين السيء والأقل سوءاً. وتذكروا أنه

من بين الرهائن هناك نمساويون، وفرنسيون وإنجليز وروس. . . لا تحسبوا أن موتهم لن يمر من دون أن يؤثر على علاقاتنا.

ظل قادر صامتاً. لكن كان من الممكن رؤية التوتر الذي اجتاحه من خلال تفاصيل وجهه. فالباشا سكرتير مرَّ بتجربة كبيرة، ذلك أنه أمضى خمس سنوات في خدمة السلطان، وخلال كل هذه المدة، تعلم كيف يقرأ بين السطور، وتشفير ما لا يقال. ولم تكن كلمات النمساوي الأخيرة إلا تهديداً مقنعاً.

- حسناً أيها السادة. سأنقل الأمر إلى جلالته، وأعلمكم بقراره.

بعدما أوصل كامبون مضيفه إلى باب إقامته، لم يعد مباشرة إلى مكتبه إذ توقف ورفع ناظريه مراقباً النجوم الأولى. فبعد سنتين وإذا لم يغير حكام أورسي رأيهم فسيعين سفيراً في بريطانيا العظمى. ليس له إلا أن يصبر سنتين في هذا البلد الذي لم يكن في الحقيقة بلداً بالمعنى الصحيح، بل مخزناً للبارود.

كانت احتجاجات الكاتب الخاص للسلطان ما تزال تطن في رأسه حين قال: «تجرأ غلادستون على وصف سلطاننا المحبوب بالسفاح الكبير». في الحقيقة، وإذا كان على كامبون أن يحكم بالنظر إلى التقارير المتشائمة المحررة من قبل غالبية القناصلة المتفرقين على امتداد البلد، فغلادستون كان محقاً. ألم يكتب موريس كارليي من سيفاس في ختام رسالته الأخيرة «يوماً بعد يوم أزداد اقتناعاً وبعمق، بأن مستقبل الأرمن يشارف على الهاوية. من الممكن أن يد الأتراك تُمسَك خوفاً من أوروبا، بيد أني أكيد من أن الإبادة هدفهم، وأنهم سيسعون إلى هذا الهدف حتى النهاية، إذا ما توفرت لديهم الفرصة لذلك».

٤

قصر يلضز، ٢٨ آب ١٨٩٦

دقت ساعة البرج معلنة الساعة العاشرة.

وفي الحال أخرج السلطان عبدالحميد من جيب كنزته الرمادية الداخلي ساعته الجيبية الجميلة نوع أ. لونج وسون، التي قدمت له كهدية من الإمبراطور غيوم الثاني. تأمل ساعته، ورسم الضيق على وجهه. فهي تتأخر بدقيقتين، وهو ما يعيب شيئاً ذا قيمة. عليه أن يتذكر أن يعهد بها إلى يوهانس مايير، وبإمكان المعلّم الساعاتي السويسري أن يضبطها.

همس قادر باشا:

- صاحب الجلالة.

رفع عبدالحميد عينين متسائلتين إلى كاتبه الخاص. كان بعينين كئيبتين تحت جفنين متدليين لوجه رخو يمنحه بصفة دائمة سيماء الكدر والعبوس.

- سمعنا، سمعنا. تابعوا، تابعوا.

- ليس لديّ ما أضيف يا صاحب العظمة إلا أن القائد فرهات باي ينتظر أوامركم لبدء الهجوم.

استدار السلطان ببطء ناحية وزيره الأول ليسأله:

- ما رأيكم في هذه القضية؟

لم يردّ محمد سعيد في الحال، فالإعفاء القاسي لسلفه مدحت باشا، ونفيه علمه بأن الحذر الأكبر ينبغي أن يكون عندما يتوجه إلى السلطان بالحديث. ومنذ أن اعتلى عبد الحميد العرش بعد موت أخيه الذي عصف به الجنون، استعان ظل الله على الأرض[٩] بحوالى عشرة وزراء، وغيّر الحكومة حوالى عشرين مرة وفقاً لحالات مزاجه. إضافة إلى كل هذا، ولما كان مسكوناً بفكرة أن هناك من يريد اغتياله أو الإطاحة به، فإن السلطان وضع على طول البلد وعرضه جهازاً استخباراتياً مرعباً جداً.

فكانت الوشاية تشجع، وصار بإمكان أي كان أن يصير جورنلجي أي صاحب تقرير يفضح الجيران، أو الزملاء، أو الأصدقاء. وهكذا لم يكن هناك أحد في مأمن. وعلى منوال روسيا، حيث نظام التذاكر، فالجوازات وضعت لمراقبة تحركات الناس داخل الإمبراطورية بشكل أفضل. ومن دون هذه الوثيقة، ما كان لأحد من رعايا السلطان الحق أن يتوجه من قرية إلى قرية أخرى. إضافة إلى كل هذا، وهو الشيء الأدعى للقلق أكثر، المكانة الجديدة التي أخذ يحتلها الدين في بعض المجالات التي لم يطأها من قبل. ففي المدارس، أخذت تُعطى أهمية كبرى للتعليم الديني، وعرف تشييد المساجد وتيرة مرتفعة وغير مسبوقة، بينما وداخل البلاط نفسه، تسلق العديد من الموظفين الدينيين المراتب حتى صاروا جوار السلطان.

وأخيراً رد محمد سعيد بالقول:

- أعتقد أن لدينا هنا فرصة لنبين أن عظمتكم ليست الشخصية التي يستمتع الغرب بوصفها. إلى ذلك، لسنا معزولين في هذه القضية،

(٩) هكذا ورد ذكره في الأصل (المترجم).

فكلنا نعلم أنه يمكننا الاعتماد على دعم ألمانيا. ألم يعبر الإمبراطور غيوم الثاني صراحة أنه صديق وحامي جلالتكم؟

وافق عبدالحميد بحركة غير مبالية برأسه. وساعته الجيبية كانت هنا لتذكّره، إذا ما كان يحتاج إلى تذكير، بالعلاقات التي تربط الشعب الألماني والشعب التركي، زد على أن آلات الساعة كانت لها نقط مشتركة مع العلاقة الدبلوماسية، فهما معاً كانا تحت رحمة حبة الرمل.

- هل يمكنكم أن تكونوا أكثر وضوحاً؟ ماذا تقصدون بقولكم «فرصة لأبين أني لست الشخصية التي يستمتع الغربيون بوصفها».

- يا صاحب العظمة، الذئاب تقترب من أبوابنا. والمحادثات التي رواها لنا الآن قادر باشا واضحة. هؤلاء الناس يجفلون ويكاد صبرهم ينفد، ويحلمون بالانقضاض على هذا البلد، وهم ليسوا الوحيدين الذين يظهرون هذه الرغبة. فصاحب السعادة سفير روسيا، أعلمني في رسالة عن أمله بأن تنتهي هذه القضية في ظروف إيجابية، و. . .

- إيجابية؟ إيجابية لمن؟ لهؤلاء القتلة أم للأمة التركية؟

- يوضح نص الرسالة «من أجل مصلحة الجميع». ويذكر أيضاً أن غالبية الموظفين الكبرى المحتجزين كرهائن من جنسيات أجنبية، وينتهي بهذه الكلمات «يمكن لهذه القضية أن تنتهي بشكل سيّئ جداً. إننا نستدعي إذن (أريحية صاحب الجلالة، ونعلم كم هي عظيمة)».

- ألم يعلم السيد نيلدوف بأن الأريحية لا ترتكز على طلب العدل وإنما على إحقاقه؟ ما الذي يظنه؟ أننا عبيد نواياه؟

أعلن قادر باشا:

- أتيتم الآن يا صاحب الجلالة على تسليط الضوء على ما هو أساسي، فنحن ما بين المطرقة والسندان. هؤلاء الناس لا ينتظرون إلا الفرصة ليطلقوا علينا رصاصة الرحمة. وعلى احتمال أن الغربيين سيأتون لنجدة رعاياهم، فإن روسيا ستتدخل أيضاً، ليس من أجل

الهاجس الإنساني، ولكن لخوفها من أن تصل متأخرة إلى حصة الكلاب. لقد أعلن نيلدوف بالحرف «لا أريد أن أترك مفاتيح منزلي بين أيدي الغرباء».

- منزله؟

بصعوبة ازدرد كاتب السلطان الخاص ريقه، ثم قال:

- يقصد ضمناً البوسفور.

أوشك عبدالحميد أن يختنق وهو يعيد:

- منزله؟ منزله؟

وتمكنت منه رعشة قوية ثم قال:

- في كل حياتي لم أسمع أبداً تصريحاً بمثل هذا الانتهاك للحرمات! تابعوا...

- قدم ممثل فرنسا مقترحاً يبدو أنه يتماشى مع مصالحنا، ذلك أنه أشار إلى أن بلده مستعد لتحمّل المتمردين وتخليصنا منهم بصفة نهائية. سيشكل هؤلاء الأفراد تهديداً دائماً للنظام والقانون ماداموا متواجدين على أراضينا. في هذه الحالة...

- تهديد! منذ متى كان للأموات صوت؟ سيصمت هؤلاء الكفار أبداً.

تدخّل محمد سعيد بسرعة موضحاً:

- منذ مدة والأمة الأرمينية الخائنة ميلون إرمني ميلي، وفي نظر الغرب تؤخذ كأنها ضحية، وأن أبناءها أبرياء مساكين نجد متعة في ملاحقتهم. وإذا ما حكمنا بإعدام العاصين سنزيد من تثبيت نظرة أوروبا هذه. بالمقابل، وإذا ما منحناهم الحرية، فستبدون يا صاحب العظمة ما أنتم عليه في الحقيقة، شخص طيب، نبيل وكريم.

عمّ الصمت مجدداً. وأخرج عبدالحميد منديلاً أبيض من الكتان من جيبه، وبرقة امرأة تتجمل، أخذ يطبطب على خديه وجبهته.

مرت دقائق طويلة، ثم أعلن فجأة قائلاً:

- ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين شر القتال﴾.

التزم قادر باشا والوزير الأول الصمت. لم تكن المرة الأولى التي يستشهد فيها السلطان بآية من القرآن، والتي يتبعها عادة بعرض. وهكذا كانا ينتظران أن يتابع:

- حسناً! فليرحل الكفار إذاً! فلتنقلوا إرادتنا الطيبة إلى القنصالة. لكن أوضحوا لهؤلاء السادة أنه إذا ما حدث ووضع أحد هؤلاء المارقين رجله على أرضنا فسنمرّغ رأسه في التراب ثم نعرضه في الساحة العامة. أوضحوا لهم أيضاً أنهم إذا كانوا مستعدين لاستقبال كل هؤلاء الملاحدة فإننا سنفتح لهم أبوابنا وأيدينا على قلوبنا! فليرحلوا!

وضع السلطان ذراعيه على مرفقي كرسيه قبل أن يتابع:

- من اليوم فصاعداً، لم تعد رؤية أسلافي للعالم التي سادت حتى أيامنا هذه تعنيني. نحن مظلومون، وضحايا لتسامحنا العظيم جداً. فمشروع إنشاء أمة عثمانية يمنح كل المسلمين وغير المسلمين الحقوق نفسها. لقد فشلت هذه الفكرة، وكدليل على ذلك، أنها لم تمنع تفكيك إمبراطوريتنا. من الضروري البناء اليوم على أساس مبدأ آخر.

سمح السلطان للصمت بأن يمتد لفترة قبل أن يقول:

- سيكون هذا المبدأ هو الإسلام.

وبعد استراحة أخرى، عاد ليقول:

- يعيد الإسلام الأمل لشعب تصفه الشهادات بأنه فريسة لاضطراب عظيم. وهكذا، سنستفيد من نتائج التوازن الديمغرافي الجديد الذي جعل من الإمبراطورية دولة بأغلبية مسلمة. وبصفتي خليفة المسلمين، ألن نملك سلطة روحية على جموع المسلمين وليس

فقط على شعب الإمبراطورية؟ ستمكننا استراتيجيتنا من إيقاف انتشار هذا الداء الذي يطلقون عليه «وطنية»، والذي يمكن أن يسود قريباً الأقاليم العربية التي ما تزال تحت وصايتنا، وسيطلق شرارة حركات انفصالية. وليس بخافٍ عنكم ظهور مؤشرات سابقة لأوانها في حلب كما في بغداد. ذلك أن بعض الأصوات أخذت تعلو منادية الشعوب العربية للتحرر مما أسمته «الاستعباد العثماني».

عاد عبدالحميد ليتطبطب مرة أخرى، في حين ظل الباشوان معلقين على أطراف شفتيه، قبل أن يعود للقول:

- أجل. الإسلام سبيلنا الوحيد. فبقاء الإمبراطورية العثمانية على قيد الحياة مرتبط بالتحالف المقدس للمؤمنين. أنا أفكر الآن بصفة خاصة في الناس الذين يعيشون في شبه الجزيرة العربية، حول الأراضي المقدسة. لأجل هذا أفكر في إنجاز مشروع على قدر كبير من الأهمية، وهو إنشاء طريق سكة حديد، تربط بين هذه المدن، من العربية السعودية إلى الحجاز. وبهذه الطريقة سنتحكم بشكل أفضل في هذه المناطق، وسنمنع من أن تصير في يوم من الأيام معقلاً لدولة العرب، يكون لملكها لقب خليفة. هل كنت واضحاً بما يكفي؟

سارع قادر باشا للموافقة، وفعل الوزير الأول مثله تماماً. لكنه سمح لنفسه بأن يسأل:

- مشروعكم يا صاحب العظمة رائع، ولكن أنى لنا بوسائل تمويل مثل هذا المشروع الضخم؟ فخزائن الدولة...

- وأين أغفلت مسلمي العالم جميعاً؟ هل تعتقدون أنهم سيرفضون الانخراط في مشروع مماثل؟ كلا. سيوافقون.

بدا محمد سعيد مقتنعاً بأنه من المحتمل جداً أن السلطان محق في رأيه. بالمقابل، كان يشك في إمكانية أن إسلاماً موحداً يمكنه أن يلقى صدى لدى الشعب التركي.

وحلّ صمت جديد. أعاد عبد الحميد منديله إلى جيبه. فكما هي عادته، وعند نهاية اليوم سيقوم بإحراقه. وبحركة من يده، أشار إليهم بأن الاجتماع قد انتهى.

وعندما كان الرجلان على عتبة الباب، أعلن لهما:

- سوزو بولونامادي أيتان!

وهو ما يعني لا أقل ولا أكثر «فليذهبوا إلى الشيطان!»

البنك الإمبراطوري العثماني، ٢٨ آب، الواحدة والنصف بعد الزوال

كانت رائحة العرق تنتن القاعة، انضافت إليها حموضة رائحة البول. فالمراحيض ظلت مختنقة منذ ليلة أمس.

ولما استنفد كل حججه، قال ألكسندر ماكسيموف ترجمان القنصلية الروسية موجهاً حديثه إلى غاستون أوبوانو:

- سيدي، فلتعلموا أن مهمة المفاوض التي كلفتُ بها قد بلغت كل حدودها!

واصل حديثه لكن هذه المرة إلى آرمن غارو، وهوفانيس طوماسيان:

- أنا آسف أن أقول لكما هذا، لكن عنادكم انتحاري. ستموتون جميعاً!

رد هوفانيس بلا مبالاة:

- لأنكم تعتقدون بأن الموت يخيفنا؟ عندما لا يكون للمرء ما يخسره، هل يهمه الموت؟

صرخ أوبوانو:

- فلتموتوا إذن! لكن دعوا الآخرين يعيشون. بأي حق تسمحون لأنفسكم بإقحام مئة وخمسين بريئاً في حماقاتكم؟ هل تعتقدون بأنهم عندما يودعون قبورهم سيدافعون عن قضيتكم؟

خفت حدة صوت الفرنسي، حتى غدت أقرب للتوسل وهو يقول:

- أتوسل إليكم. حرروا هؤلاء المساكين على الأقل.

- مستحيل! ليس قبل أن يستجيب السلطان والقوى الغربية لنا.

- تعلمون جيداً بأن هذا مستحيل! لا تحل مثل هذه القضايا تحت طائلة التهديد! بالمقابل، كونوا واثقين من أننا سنقوم بكل ما في استطاعتنا للتأثير على الباب العالي. أرجوكم. أظهروا نضجكم.

ردّ آرمن غارو قائلاً:

- لا تجعلوني أضحك سيدي. قبل أكثر من عشرين سنة، وأربعة أشهر قبل مؤتمر برلين، وقع اتفاق يشيلكوي[١٠] بين روسيا والسلطان. وذكر به مستقبل شعبي. ضمن لنا الأمن، وأكد لنا أن مفتشين أجانب ومستقلين سيحلون إلى عين المكان بالأقاليم لوضع حد لسلسلة الابتزازات التي كنا عرضة لها. والنتيجة؟ مئات الآلاف من الموتى! إذا كنتم تعتبرون أننا مجرد أطفال، فلتذكروا إذن أن أسوأ أنواع التدنيس هي تقديم وعود لطفل ليست هناك أية نية للبر بها. كلا! على السلطان أن يلبي كل متطلباتنا.

- كان قد قبِل أحدها. لديكم ضمانة بأن ترحلوا سالمين وأحراراً من هنا. إضافة إلى كل رفقائكم، وبالنظر إلى تصلب السلطان أعتبر هذا معجزة. ولتعلموا أنكم إذا ما أقحمتم هؤلاء المساكين هنا في الموت، فإنكم تغتالونِ حلمكم أيضاً. لا تعتمدوا أبداً على أن يشفق

---

(١٠) تعرف تحت الاسم الغربي (سان إستيفانو) الكاتب.

أحد على مآلكم ما دمتم ستتحولون من صف الضحايا إلى صف الجلادين.

أراد غارو فتح فمه ليحتج، غير أن هوفانيس طوماسيان سحبه بقوة، ثم قال له:

- اسمعني. أعتقد أن الفرنسي محق. حققنا بعضاً من الأشياء الأساسية عندما جلبنا اهتمام العالم نحو قضيتنا. أليست هذه خطوة أولى؟ من اليوم فصاعداً، لن يستطيع أحد في الغرب أن يقول «لم نكن نعلم».

- لكن...

- انتظر آرمن! دعني أكمل حديثي. يقترحون علينا أن نذهب إلى فرنسا. تعرف هذا البلد أكثر مني. درست هناك. وتعلم ما يمثله. إنه رمزنا، رمز الحرية والمساواة والأخوة. بلد سان سيمون! أنت لم تنس أليس كذلك؟ عندما نصل إلى هناك، سنجد حتماً دعماً من اليسار الفرنسي، وسنواصل ربما بشكل أكثر فعالية من إسماع أفكارنا.

عض آرمن غارو شفته، وقد وقعت نفسه فريسة لأفكار متضاربة.

أشار هوفانيس إلى الرهائن ذوي الوجوه التعبة، ثم قال:

- هل كل هؤلاء مسؤولون عن الجرائم المرتكبة في حق شعبنا؟ نعلم، أنت وأنا، أنه ما من قضية مهما كبرت تبرر قتل شخص بريء.

اجتاحت موجة حزن كبيرة مشاعر غارو ولعل ما أحسه كان إحباطاً، فقال بنبرة المستسلم:

- أعذر تشاؤمي، لكني لا أؤمن بدعم اليسار الفرنسي، أو بدعم أي شخص آخر على هذه الأرض. البارحة، رأيت كابوساً يا هوفانيس. رأيت أبي وأمي يهاجمان من قبل حيوان قذر لم أنجح أبداً في التعرف عليه. كان كأنه عنكبوت ضخمة لكن بأسنان ابن آوى المعقوفة. كان حيواناً قبيحاً جداً. كان يبصق ويتقيأ. صرخت في وجهه: «من أنت؟»

هل تعلم ما أجابني؟ «إسمي آي يلضز. نجمة القمر». انقضّ على والديّ، ومزقهما. وكانت الجموع حولهم مكتفية بالمشاهدة. فلتعلم بأن الأمر يبقى دوماً هكذا. ستذبح شعوب يا هوفانيس ولا أحد سيتدخل.

بتقزز كبير، فتح عقدة حزامه المثقل بالقنابل، واضعاً إياه أرضاً. وفعل الشيء ذاته مع مسدسه، ثم توجّه إلى غاستون أويوانو وماكسيموف قائلاً:

- طيب أيها السيدان. الرهائن أحرار!

بقي هوفانيس طوماسيان جامداً في مكانه لا يتحرك.

فقد بقيت تطنّ في رأسه كلمات صديقه «إسمي آي يلضز. نجمة القمر».

وهكذا أيضاً كان يلقّب علم تركيا.

بعد ثماني عشرة سنة

٥

إرزروم، الأناضول الشرقية، ٢٩ حزيران ١٩١٤

انتصرت شمس ساطعة على السحب الأخيرة، وفي انتصارها بدت كأنها ترقص.

دمدم فاهي طوماسيان بالقول:

- هكذا إذن!

كان يجلس بعكس ضوء الشمس، مرتدياً قميصاً ذا كمين واسعين، وسروالاً عريضاً، وكانت رأسه مغطاة بطاقية خضراء. بدا الرجل السبعيني كأن أحدهم قام برسمه. أشار بيده الشبيهة بالرق والجافة التي ترتعش قليلاً إلى قمة مثلجة لجبل بالوندوكن، ثم قال:

- ألم نتوقع أن الجو سيصير جميلاً بعد الفطور؟

وافق آشود وقد مال قليلاً إلى الخلف بالقول:

- أجل، قلتم ذلك يا أبي.

وضع بين شفتيه نايًا من حق القصب. صدر عنه صوت خفيض وحزين مخترقاً البهو الذي يُستخدم أيضاً كغرفة طعام.

قال فاهي متذمراً:

- هذا هو الوقت المناسب لعزف الدودوك.

- وهل هناك ساعة معينة لعزفه؟

- يا له من سؤال يا ابني! طبعاً! عندما تغرب الشمس، وعندما نحزن للغائبين، وعندما تفتت الروح، حينها يشفينا غناء الدودوك، وعدا ذلك فإن له نتائج عكسية.

بأسف أدخل آشود الناي إلى غلافه ومع أنه احتفل قبل مدة بعيد ميلاده الأربعين، وهو سن مثبت بقامته الفارعة، وتقاسيم وجهه المشذوبة، غير أن فكرة مخالفة والده لم تخطر بباله أبداً.

بحركة آلية رفع عينيه إلى السقف حيث علقت ثريا ماريا تيريزا زينت بستة سواعد بيضاء، وإن كانت تعوزها اللمبات بسبب عدم وجود كهرباء بإرزروم مثل باقي الولاية[11]، إلا أن هذه الثريا التي لم يكن يجدها آشود غير ذات جدوى فقط، بل وقبيحة أيضاً، كان يعدّها فاهي كبؤبؤ عينه. وما كان لأحد في هذا العالم أن يناقش وجودها. ويبدو أن الرجل المسن حصل عليها عن طريق تاجر يوناني من إزمير، كان قد أقسم له أنها كانت لأمير روسي، أحد أحفاد كاترين العظيمة، وبطبيعة الحال، ففاهي كان الوحيد الذي صدق هذه الخرافة.

على أي، وإذا ما نظر للأمر جيداً، فهذه الثريا كانت تمثل نقطة شذوذ في بيت ذي مظهر متقشف. متقشف غير أنه موسر. إذ كان يكفي تجاوز عتبة البيت ليدرك المرء أن آل طوماسيان ينتمون إلى واحدة من أكبر العائلات في إرزروم. ثلاث غرف نوم، وبيت الماء، وشرفة صغيرة ممتدة من البهو غرفة الطعام، ومرآب داخل حديقة صغيرة. إلا أن قمة البذخ كان غراموفون برليني (عملية شراء أخرى يمجدها فاهي)، ومن دون شك الوحيد في الأناضول كلها، وكان متربعاً على إسكملة من الأكاجو. ومثل الثريا، لم يكن يصلح لشيء ما دام أنه استخدم ليوم واحد فقط. ذلك أنه ولمدة سبع ساعات كاملة، كان للأسرة الحق في

---

(11) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

أجواء مانون. آه! ابتعدوا عن الصورة اللطيفة المؤداة من قبل راؤول جوبان! وأخيراً، أرادت مدورة الأسطوانات أن تسلم الروح، وهو ما كان مبعث ارتياح للجميع (عدا فاهي). مهما يكن الأمر، فقد كان هنا يزين الغرفة بصمته المعتاد.

والحقيقة أن الاختلاف الكبير الذي يميز بيت آل طوماسيان عن باقي بيوت العائلات الأخرى يكمن في غياب الطيور والبقر والخرفان وهو ما لم يكن حال الغالبية العظمى من سكان إرزروم ذوي الأصول المتواضعة. ولم يكن هذا التعايش بين الإنسان والحيوان من دون انعكاسات، ذلك أن النوافذ قلما كانت بزجاج، وعند اقتراب فصل الشتاء تغطى بورق زيتي، لكن ولما كان يُعنى جيداً بنزع هذه الحماية قبل حلول الفصل الجميل، فيمكن للمرء أن يتخيل بسهولة أي جو كان يسود بهذه الغرف الملبدة.

أكد صوت نسوي بالقول:

- مع والدك الحق.

اجتازت العتبة امرأة رشيقة. كانت تحمل صينية نحاسية منقوشة، وُضع عليها كوبان صغيران مُلئا بالقهوة المركزة وبعض الكورابيي، الحلوى الصغيرة الملبسة، وكيس تبغ.

قدمت كل شيء لفاهي في احتكاك للأقمشة القطنية المزركشة. تناول الرجل المسن كوارببة، وابتلعها دفعة واحدة، قبل أن يأخذ كيس التبغ ويضعه على فخذيه، وهو يقول:

- آنا يا ابنتي. كيف تتحملينه؟ رضيت أنا بعطية الرب وزوجتي المرحومة، بينما أنت ومن ضمن كل أولئك الراغبين فيك في كل الولاية، اخترته بمحض إرادتك كزوج لك.

- ماذا تريد؟ كنت صغيرة وعاشقة.

- العشق وصغر السن. العمى المطلق! العشق يعرف كل شيء، وصغر السن جاهل لا يعرف شيئاً.

أخذ كوباً وهو يسألها:

- وضعت بها السكر أليس كذلك؟

- هيا يا أبي، بعد كل هذه السنوات...

كانت تتحدث وآشود يتأملها صامتاً. فبعد أربع عشرة سنة من الزواج، ما يزال يجد آنا المولودة بأفاكيان جميلة، مع أنه لا يمكن القول بأن جسدها يستجيب لما تتطلبه المعايير المعتادة للجمال، على الأقل ليس كما يتم تصور ذلك، ففمها كان واسعاً جداً، وحاجباها كثيفين جداً، ووجنتاها ناتئتين جداً، وجلدها كامداً بحسب آشود، غير أن لها فتنة وغنى روح يجعلانها أجمل المخلوقات. كانت هذه الأبيات لسايات نوفا تنشد داخل رأسه: **أنادي آنا.. ياقوتتي الحمراء المجلوبة من مناجم باديشخان.**

تناول كوب القهوة الذي مدّته له.

سأله فاهي:

- ألا تقدم دروساً اليوم؟

- البارحة كان آخر يوم في السنة الدراسية يا آيير[١٢].

- آخر يوم، أول يوم. كل الأيام متشابهة لديّ. وسقف المدرسة؟ هل وصلتكم الاعتمادات المالية لإصلاحه؟

- ليس بعد. غير أن رسالة من نوبار باشا طمأنتنا إلى أن المال لن يتأخر في الوصول.

- هل صحيح ما يقال من أن نوبار باشا ترك القاهرة ليستقر في باريس؟

---

(١٢) أبي. الكاتب.

- هذا صحيح. حتى إنه نقل إليها مقر جمعيته.

- فليباركه الرب! كيف كانت ستصير حالنا لولا كرمه؟

وما كان ثناء فاهي مجانباً للحقيقة. فقبل سنوات مضت، لم تأل الشخصية، الولود في مصر وابن وزير أول، الجهد لمساندة أبناء بلده. فبعد أن وقف خلف خطوط السكة الحديد المصرية، ساهم في تنمية ضاحية الإسكندرية، وتعاون مع رجل الأعمال البلجيكي البارون أومبان في إنشاء مدينة هيليوبوليس قرب القاهرة. وفي أثناء ذلك، أسس الاتحاد العام الأرمني للأعمال الخيرية، وقام بكل ما يستطيعه لإقناع القوى العظمى بضرورة الإصلاحات التي وُعد بها إخوته الغارقين في الأراضي العثمانية.

تأمل الرجل المسن بتفكير عميق كوبه الذي لم تبق به إلا ترسبات متراكمة.

- أخبريني يا آنا، ماذا حل بتلك الساحرة. ما عدت أذكر اسمها. تلك التي كانت قادرة على قراءة الطالع من بقايا المشروب؟

- عايدة؟

- عايدة.

- نسيت إذن؟ لقد توفيت. في شهر شباط القادم، ستكون قد مرت على وفاتها ثلاث سنوات.

أشعل الرجل المسن سيجارته بعد أن لفها في وقت سابق.

- حسن إذن! لم تكن تتوقع إلا المصائب.

بدت آنا متفاجئة.

فلاحظ آشود بالقول:

- والدي محق. لم أسمعها أبداً تنطق إلا فظاعات، حتى إنها أعلنت موت رافي.

تأوهت آنا قائلة:

- رافي. كيف يسمح الرب بموت رجل مثله؟

أضاف آشود إلى ما قالته آنا:

- كان أكثر من رجل. كان كاتباً عبقرياً. وليس الأرمني الذي يقول هذا، بل المعلم. ألم أقل لكما من قبل بأني فرضت قراءة «مجنون» على طلابي؟ إنه...

تدخّل فاهي قاطعاً كلام آشود:

- أحدهم يطرق الباب!

- لا بد أنهما الطفلان.

ما إن فتحت آنا الباب حتى دخل مسرعاً رجل قصير القامة، خيطي الشكل في الستين من عمره تقريباً. كان يضع الزي الموحد للضابطية[١٣]، واضعاً بندقية بحمالة على كتفه.

صرخ متعرقاً وهو يلوّح بجريدة:

- كارثة! كارثة! هل قرأتم آخر الأخبار؟ هذا رهيب!

بقلق، سأل فاهي قائلاً:

- ماذا حدث؟

- اسمعوا يا أصدقائي. اسمعوا.

اختار آسيم تيرزيبوغلو كرسياً، وترك نفسه يسقط عليه، قبل أن يشرع في القراءة.

«كانت مدينة سراييفو أول أمس في الثامن والعشرين من شهر حزيران لسنة ١٩١٤ مسرحاً لمأساة دامية. فعندما كان الأرشيدوق فرانسوا فرديناند وريث عرش النمسا وهنغاريا وحرمه التي لا تعادلها امرأة، صوفيا شوتيك دوقة هوهينبيرغ، في زيارة لعاصمة البوسنة والهرسك، انفجرت قنبلة ألقاها أحد الإرهابيين على الموكب الرسمي.

---

(١٣) الدركي. الكاتب.

وبعد أن ارتدت بمعجزة على غطاء سيارة الزوجين، انفجرت على العربة التالية متسببة في جرح ضابط والعديد من الناس ممن كانوا مجتمعين، إصابات بليغة. وتم الاعتقاد بأنه تم تفادي الأسوأ، لكن للأسف، وبعد وقت قصير، قرر الأرشيدوق وحرمه عيادة الضابط المجروح. وهكذا وبينما مالت عربتهما إلى زقاق ضيق، انبرى رجل من بين الحشد مسدداً طلقاته على الزوجين. فتوفيت الأرشيدوقة على الفور، في حين فارق فرانسوا فرديناند الحياة دقائق بعد ذلك. وعلى الفور، ألقي القبض على الجاني، ويدعى برانسيب. وبحسب بعض المعلومات، فإن هذا الشخص ينتمي إلى منظمة سرية تدعى اليد السوداء والتي تمجد فكرة توحيد السلاف حول صربيا. وجدير بالذكر أنه ومنذ ست سنوات أُلحقت البوسنة والهرسك بالنمسا. وأعلنت الحكومة الألمانية للنمسا وهنغاريا عن دعمها لها ونصحتها بالحزم». يا للكارثة! إنها..

قاطعه فاهي:

- ما هذا التجديف؟ لَمَ تتحدث عن كارثة؟

ارتسمت خيبة الأمل على وجه التركي، ثم قال لآشود:

- أعرف أباك منذ أربعين سنة، وهو لا يتغير أبداً. لا شيء مما يحدث خارج إرزروم يعنيه. ويشهد الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أقول، فأبوك فاهي أفندي[١٤] يعيش وحيداً في العالم.

ضحك فاهي ساخراً:

- أجل، أجل. هكذا أتعرف على نميمة التركي. هل تخبرنا الآن ماذا يعني كل هذا؟

أخذ آسيم الوقت الكافي ليفتل شاربه من جانبيه قبل أن يقول:

---

(١٤) هكذا ذكرت في الأصل. المترجم، وتعني بحسب الأصل السيد أو الأستاذ.

- الحرب! الحرب! وأخشى علينا نحن الأتراك من أن نكون من ضمن أوائل الضحايا.

سأل الرجل المسن ابنه:

- أخبرني بأنه يهذي!

هز آشود رأسه بطريقة معبرة ليقول:

- تمنيت لو كان يفعل، لكن للأسف، أعتقد أن ما يقوله صحيح. يمكن أن تكون لهذه الحادثة فعلاً آثارٌ سيئة. من غير المستبعد أن تغتنم النمسا هذه الفرصة لتنفيذ عمليات انتقام من صربيا. وفي ظل هذه الأوضاع...

- النمسا! صربيا! وإذن؟ فلينزعوا أحشاء بعضهم البعض! لماذا سنكون نحن معنيين؟ هه؟

- كلا يا أبي. إذا ما اندلعت هذه الحرب، فيمكنها أن تشعل النار في المنطقة كلها، بل والعالم أيضاً.

صاحت آنا:

- لأن رجلاً قُتل؟ حتى لو كان أرشيدوق، الرحمة على روحه، فإنه لم يكن إلا رجلاً.

أكد فاهي:

- معها حق، هذه القضية لا تعنينا.

- أنتما مخطئان.

عقد الرجل المسن ذراعيه أمامه ثم قال:

- حسن يا سيدي المعلم. اشرح لنا، لكن رجاءً، دون أن تستعمل كعادتك، جُمَل كتب العلم. الكل يعلم جيداً بأنك قرأت كتباً. اتفقنا؟

وضع آشودِ راحتا الواحدة قبالة الأخرى، كأنهما تمثلان كتلتين، ثم قال:

- تمثل يدي اليمنى النمساويين حلفاء ألمانيا وإيطاليا، أما يدي اليسرى فتمثل الروس والفرنسيين والمملكة المتحدة. يعتبر الروس، وهذه نقطة مهمة، أنفسهم حماة أيضاً للصرب. وإذا ما دخلت النمسا غداً في الحرب ضد الصرب، فهناك حظوظ قوية لأن يتدخل القيصر. وإذا ما تدخّل بفعل رهان التحالفات (وهنا شبك يديه) ستتحول أوروبا إلى كتلة نار.

أخذ نفساً قبل أن يضيف:

- تحدث آسيم عن أبناء بلده الذين يواجهون خطر إقحامهم في هذه الدوامة، لكنه غفل عن ذكر أن أبواب الجحيم يمكنها أن تفتح علينا نحن أيضاً، معشر الأرمن.

امتقع لون التركي، وهو يقول:

- بعد الشر! لن يصيبكم شيء. ستكون الحكومة مشغولة جداً بالدفاع عن البلد.

أخذ فاهي نفساً من تبغه، ثم قال:

- هذا صحيح. على كل... بأي عذر سيتم إقحامنا في هذه الخلطة العجيبة؟

- لأن التاريخ أظهر أنه وفي كل مرة يدخل فيها هذا البلد حرباً يلتفت نحونا نحن معشر الأرمن، مدفوعاً بهاجس أن نطعنه من الخلف. لا شيء يضمن بألا يقوموا في الغد باستغلال الفوضى العامة ليكملوا العمل الذي بُدء فيه في عهد عبدالحميد.

- هل تعتقد أن محمداً الخامس سيكون شريراً مثل سابقه؟

زفر موجة دخان ظلت معلقة في غمر الضوء الذي يملأ الغرفة قبل أن يقول:

- لا أريد أن أتصور هذا.

خيم صمت ثقيل على الغرفة. ركز آسيم تيرزيوغلو ناظريه على

مؤخرة بندقيته كأنه يفكر عميقاً. وفي الخارج تحركت الريح.

أعلنت آنا فجأة:

- سأذهب للبحث عن الأولاد.

كان فاهي مطأطأ الرأس. لم يغفُ، إذ كانت ذاكرته تستعيد الزمن الماضي. الثامن والعشرون من شهر آب لسنة ١٨٩٦، أنّى له بنسيان هذا التاريخ؟ حدث ذلك بُعيد الهجوم على البنك الإمبراطوري العثماني. في هذا اليوم، كان الفدائيون الخمسة عشر الناجون من الأحداث يمشون مرفوعي الرؤوس على طول الرصيف. كانوا على وشك الإبحار إلى فرنسا. وكان من بينهم بالطبع آرمن غارو، ولكن على الخصوص، هوفانيس، هوفانيس طوماسيان. لم يخطر ببال فاهي أبداً أن ابنه الصغير جداً آنذاك، سيسمح لنفسه بأن ينساق وراء مغامرة مماثلة! أن يحتجز أبرياء كرهان؟ أن يخاطر بحياته؟ ألم يفكر، ولو للحظة، في الحزن الذي سيصيب أمه المسكينة؟ المجنون! ومع ذلك، فقد كان فاهي مجبراً في ذاك الصباح، وهو يراه يعبر مع رفاقه، أن يعترف بأن شعوراً غمره أقرب جداً ما يكون إلى الفخر به. وعند منتصف النهار، وتحت حماية القديس ميسروب أخذ كل مقتحمي المصرف أماكنهم على متن سفينة لاجيروند التي حملتهم إلى فرنسا.

وبعد أيام من المأساة، ساد الاعتقاد بأن ساعة السلام قد أزفت، غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث. ففي الأيام التي تلت ذلك، أعطى السلطان الأحمر إشارة انطلاق الحلالي[١٥]. وانطلقت بصفة واضحة وصريحة عملية ملاحقة الأرمن. ولملاحقتهم تم التسلح بهراوات، وضع الحديد على رؤوسها، في أزقة القسطنطينية، والشوارع الضيقة، وفي السوق الشعبي المصري، وفي الحدائق، وأمام أبواب الكنائس.

---

(١٥) هكذا ذكر في الأصل (المترجم).

فهشمت الرؤوس، وكسرت الرقاب. سبعة آلاف قتيل! كم كان سيكون عدد الضحايا، لو لم يهدد الغربيون جدياً بالتدخل لوقف المذبحة؟ وبعد ذلك، عم الهدوء، وتعاقبت سنوات الهدوء تباعاً.

هل كان ألم الغياب هو من آذى ببطء جسد مريم أم إنه التعب من كل هذا الحزن؟ ما من سبيل ليعرف أحد السبب؟ ذلك أن زوجة فاهي تركت نفسها تموت ببطء. فبعد أن أخبر بحالتها، لم يتردد هوفانيس، فمع علمه بالأخطار المحدقة به بعودته إلى تركيا، إلا أنه صعد على متن أول سفينة متوجهة إلى البوسفور. لكنه وللأسف الشديد، وصل متأخراً، حيث بلغ إرزروم في الثامن والعشرين من شهر آب لسنة ١٩٠٦. وكانت أمه قد توفيت في يوم السابع والعشرين.

لأن التاريخ أظهر أنه وفي كل مرة يدخل فيها هذا البلد حرباً يلتفت نحونا نحن معشر الأرمن، مدفوعاً بهاجس أن نطعنه من الخلف. لا شيء يضمن بألا يقوموا في الغد باستغلال الفوضى العامة ليكملوا العمل الذي بُدء فيه في عهد عبدالحميد.

ماذا لو كان ابنه محقاً؟

وكما لو أن آسيم تيرزيوغلو خمن خيبة أمل صديقه، ذلك أنه قام وأمسك يده ثم قال:

- لا تقلق يا فاهي طوماسيان. أنت تعرفني يا أخي. حتى الأشياء البسيطة تحفزني. أنت تعرف السياسة، هي مبنية على الهراء. فكل هؤلاء الناس يسبحون في البركة نفسها. الروس والنمساويون وبقية العالم. وحرب قادمة لا تناسب أحداً. أنظر إليّ.

ووقف متفاخراً قبل أن يضيف:

- ألست دوماً ذلك الضابطية الأعلى رتبة في كل الولاية[16]؟ لن

---

(١٦) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

يجرؤ أحد على الاقتراب منكم ما دمت حياً.

- في كل الولاية؟ ألست تبالغ قليلاً؟

- وإذن؟ ألا تجد أن الله نفسه يبالغ أحياناً؟

فجأة، خرج الرجل المسن من سهومه، وأمر آشود قائلاً:

- التافلو[17] يا بني! أحضر التافلو. أنا حريص على تلقين هذا الكافر درساً لن ينساه أبداً.

وسكنت الريح.

ارتمت شوشان على كتف أخيها الأصغر مطلقة صرخة متوحشة.

ويقوة العشق أحاطت فخذيها حول منطقته، ثم صاحت بقوة:

- أنا ابنة الرعد، أما أنت فلست سوى مؤخرة ذُبابة! ستدفع الثمن.

ولما كانت المراهقة متشبثة بظهر الفتى، تتأرجح إلى الأمام والخلف، فقد هوى آرام خائراً على العشب.

- والآن؟ من منا تيغران الأكبر؟ من؟

- أكرر أنه لا يمكنك أن تكوني ملكاً! فأنت بنت!

- وإذن؟ أين المشكلة؟

- هل أنت غبية؟ البنات الملوك غير موجودات. ليس هناك غير الملكات.

ليست الملكة إلا زوجاً للملك، يستخدمها كزينة! أما تيغران فلم تكن بنتاً!

زادت من ضغطها وأضحت أكثر تهديداً.

---

(١٧) يطلق عليه جاكي أو باغامون في الغرب. والتافلي في اليونان، بينما تدعى الطاولة والطاوله بكسر اللام في المشرق. الأصل.

أعلن استسلامه قائلاً:

- حسن. أنا أشتري لقبك.

- ليس له ثمن!

همس:

- نصيبي الليلة من قذيفة[١٨].

أوشكت لمفاجأتها أن تفلت خناقه، ثم قالت:

- هل أنت جاد؟

- لا أكذب أبداً.

قامت الفتاة محررة في الوقت نفسه أسيرها الذي أخذ يموء كقط، قائلاً:

- أنت تبالغين يا شوشان! صدقاً، ليس لأنك تكبرينني بسنتين تملكين الحق في تعذيبي!

صححت له قائلة:

- سنتان وثلاثة أشهر! أنا امرأة!

- امرأة؟ في الرابعة عشرة؟

صحيح أنها وبشعرها الفاحم المتدلي على كتفيها، وبجسدها المدور المكتنز، وعينيها اللوزيتين، وفمها الشبيه بفاكهة حمراء كانت أقرب من الجهة الأخرى للمراهقة.

رسم الفتى على وجهه سيماء أقرب ما تكون إلى الازدراء ثم دار على عقبيه.

في البعيد، توشح جبلا بالوندوكن وكارغاباراري بلون خبازي بدأ يزحف على الوادي.

---

(١٨) حلوى مكونة من عجينة شعر ملك، تأخذ لوناً ذهبياً في الفرن، وتحشى بالجوز والفستق، وتسقى كل هذه الخلطة بعصير الليمون وسكر الونيلية. الأصل.

ودون أن يكترث لأمر أخته، سلك آرام الطريق على طول مياه كارا- سو المتجهة إلى الفرات، بين أشجار التين ذوات الأوراق الثابتة المتميزة عن مطاحن القمح بمراوحها، وفي البعيد وعلى هضبة هناك، كان يقبع القصر البيزنطي القديم.

صرخت شوشان قائلةً:

- انتظرني!

لحقت به في الوقت الذي كان يعبر جسراً من الحجارة. عبرا إلى الجهة الأخرى دون أن ينبسا ببنت شفة. احتفظت الفتاة بسؤالها لحين وصولهما إلى بقايا سورسيلد-جوكيد القديم، إذ قالت:

- هل تعتقد بأن العم هوفانيس سيعود من العاصمة الليلة؟

ظل وجهه بلا تعبير. فأردفت شوشان:

- اشتقت إليه. يضحكني بطريقته في الغضب لأشياء تافهة، ثم إنه يعرف أشياء كثيرة. لقد عاش في فرنسا. في باريس! وأنت، هل تحب هوفانيس كثيراً؟

ولما عاند في صمته، أعلنت بصوت هادئ:

- هل تعلم ما يقول ميدز بابا[19]؟ يقول بأن «الغبي من لا يعرف كيف يغضب، أما الحكيم فهو من لا يريد أن يغضب». مَن من الاثنين تفضل أن تكون؟

- لم يقل الجد فاهي يوماً مثل هذه الكلمات. أنت تكذبين.

- اسأله.

سأل آرام كما لو أن السؤال انبثق فجأة:

- على ذكر العم هوفانيس، هل علمت بأنه كان عضواً في منظمة سرية؟

---

(١٩) الجد. الأصل.

عقدت شوشان حاجبيها، ثم قالت:

- أعلم أنه عضو في البرلمان في القسطنطينية، ولا سرّ في هذا.

- أجل، أجل. حتى إن عندهم كلمة سر.

ثم وهو يهمس:

- «طوكسان».

سخرت الفتاة قائلة:

- هراء! يتعلق الأمر بحزب هينتشاك، فالعم هوفانيس عضو به.

بدت خيبة الأمل على آرام، وهو يقول:

- ماذا عن «طوكسان»؟

- لا أعرف عنها شيئاً. أعتقد أنها. . .

ثم جمدت في مكانها، ذلك أنها وعلى بعد خطوات منها، أبصرت القامة الفارعة لشاب في حوالى الثامنة عشرة من عمره. كان يجلس على قارعة الطريق، ورأسه منكس. كان غارقاً في أفكاره إلى حد أنه لم يشعر بهما يدنوان منه.

صرخت شوشان قائلة:

- سوغومون!

ما إن نطقت الفتاة اسمه، حتى عضت شفتيها. ألم يكرروا عليها مراراً أنه لا ينبغي للفتاة الصغيرة أن تنادي شاباً؟

رفع الشاب عينيه تجاههما، كما لو أنه سُحب من الضباب.

حياه آرام بالقول:

- باريف سوغومون.

- صباح الخير.

وأضاف موجهاً كلامه لشوشان:

- كيف حالك؟

أحست خفراً في نفسها واهتياجاً في دواخلها، مع أنها ليست المرة الأولى التي تقابل فيها سوغومون تيليريان.

في اليوم الذي تقابلا فيه، كانت قد بلغت الثانية عشرة من عمرها، حين كان يرافق والده في زيارة لفاهي. لاتتذكر كيف وأين تعارف الرجلان، لكن ما من شك في أنهما كانا قريبين أحدهما للآخر. وبينما كان الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث، استغلت وسوغومون الفرصة ليتنزها على ضفاف النهر. حدثها الفتى عن العديد من الأمور والمواضيع الهامة التي ما كان يمكن توقعها تصدر عن فتى في الخامسة عشرة من العمر. ولما حدّثها بالجدية نفسها التي يخاطب بها شخصاً راشداً، فقد أعجبها ذلك منه. وعلى كل، فقد كانت مجرد طفلة. لم تكن وسامة سوغومون ما أثارها إلى هذا الحد، ولا وجهه الملائكي، ولا ملامحه الأميرية، ولكن كانت نظرته. نظرته النافذة والموزونة التي تخترق الروح.

علمت من خلال حديثهما بأنه ولد في قرية باكاريدج بين ولايتي إرزروم وتريبزون، من عائلة أرمينية بروتستانتية. ولأسباب لم تستطع فهمها، رحلت العائلة إلى إرزاندجان، وهي مدينة مجاورة لإرزروم. وخلال لقائهما الثاني الذي يعود إلى ثمانية أشهر، أسرّ لها بنيته في الرحيل إلى ألمانيا ليدرس بها الميكانيك.

ثم وقعت الحادثة التي هزت كيانها.

ذلك أنهما وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث بشكل هادئ، أصدر سوغومون صرخة. كانت صرخة مخيفة. كانت شبيهة بصرخة حيوان مجروح، ينهار. رجرجت عينيه، وهزت جسده موجة تشنج عنيفة. جثت على ركبتيها أمامه مرتبكة، وقد أسقط في يدها. أخذ الدم يتدفق من فم الشاب، وخلصت إلى أنه عض لسانه. أمسكت بعد ذلك قطعة خشب جافة، نجحت في وضعها بين شفتي سوغومون، قبل أن

تجعلها بين أسنانه. وأخيراً، وبعد حوالى عشر دقائق كانت أشبه بعشرة قرون، توقفت أزمة التشنجات، واستعاد سوغومون وعيه، وهمس متلعثماً بضع كلمات اعتذار قبل أن يقف على قدميه. كان من الواضح أنه يعاني منذ أكثر من سنتين من مرض غامض، سمّوه «الشر العظيم»، بينما كان يقول هو، إنه ما من داع للمبالغة في القلق، ذلك أن الأطباء أخبروه بأن هذا الداء سيخمد بالتدريج قبل أن يختفي تماماً مع مرور الوقت.

نجحت أخيراً في أن تقول مغمغمة:

- ماذا تفعل هنا؟

- أرافق والدي الذي يتعين عليه مقابلة بعض الناس هنا. سنرحل بعد قليل.

- ومشروعك بالرحيل إلى ألمانيا؟ أين وصل؟

- أما زلت تذكرين؟

أرادت أن تخبره بأنها تذكر كل شيء يخصه، غير أنها اكتفت بالقول:

- بطبيعة الحال! فمن النادر أن يغادر أحدنا الولاية ليدرس في الخارج. هي مغامرة كبرى! وإذن؟ هل سترحل؟

- سأرحل بالفعل. سأكون الشهر القادم في برلين.

سأل آرام:

- كم ستبقى هناك؟

- أقل من سنة بقليل. أتمنى العودة في فصل الربيع.

غطى الظل وجهه وهو يضيف:

- ليست لديّ رغبة في الغياب لمدة أطول.

- لو كنت مكانك، لكنت سعيداً عكس ما أنت عليه بالرحيل!

أجاب سوغومون:

- كنت سأكون أنا أيضاً كذلك، لكن تغيرت الظروف.

وصمت.

فهمت شوشان أنه مثل الجميع هنا. كان قلقاً من المستقبل.

وفجأة، أخذ يتطلع إلى وجهها كما لو أنه يراها للمرة الأولى، ثم قال:

- تغيرتِ كثيراً يا شوشان.

أحست وجهها يحمر خجلاً، وكرهت نفسها لأجل ذلك. ما الذي تعنيه هذه الملاحظة في نفس سوغومون؟ هل هي غزل أم نقد أم هي مجرد ملاحظة عادية؟

أضاف وكأنه خمن ما يعتمل في صدرها من تساؤلات:

- أوشكت أن تصيري امرأة.

أخذت تتنفس بشكل أفضل الآن. فقالت رغم علمها بأنه سيكون مشغولاً جداً ليقوم بذلك:

- أتمنى أن تكتب لنا.

ولمفاجأتها الكبرى، وعدها بذلك إذ قال:

- ما إن أصل إلى هناك. عليّ الذهاب الآن، فلربما والدي قلق عليّ. ميناك باروف! سلام!

وبينما كان يغادر، ظلت في مكانها عاجزة عن إزاحة ناظريها عنه. استمرت في التركيز على الطريق التي سلكها حتى بعد أن غاب عن ناظريها.

سأل آرام فاقداً صبره:

- وإذن؟ هل تأتين؟

بعد ربع ساعة من ذلك. كانا يدخلان المدينة. أخذا وجهتهما نحو

المركز محاذيين لأسوار الحجارة والطين الجاف من أجل القليل من الظل. ناداهما صوت عندما اقتربا من أحد المتاجر:

- أيها الولدان! أخبرا أمكما أن لديّ بسطرمة أنتظر رأيها فيها!

ردت شوشان موافقة بشكل آلي:

- طبعاً.

لكنها في هذه اللحظة بالذات، ما كانت كل بسطرمات العالم تعنيها.

بلغا ساحة صغيرة بفسقية جارية بروائح النرجيلة والبن. كان هناك رجال بملامح بئيسة وكئيبة يدخنون. ولم تكن هناك نساء. بضعة كراسي كانت تحيط بطاولات فارغة. وفي متاهة الزقاقات والحوانيت الصغيرة، كانت الشمس تنثر في الأجواء مزيجاً من النور والظل، مشكّلة أماكن من نور وظلام حيث أركان من الجمال الغامض.

وفي الوقت الذي شرعا فيه يسلكان طريق فرعية من الحجارة الملتهبة، رأيا آنا التي كانت تتقدم باتجاههما، وهي تشير لهما.

رفعت شوشان يدها.

لم تكن تحيّي أمها، بل ذكرى سوغومون.

٦

القسطنطينية، مقر المحفل الماسوني التركي الكبير،
٣٠ حزيران ١٩١٤

تتربع لوحة زيتية كبيرة حيث يتقابل الكوس والفرجار[٢٠] في قاعة الاجتماعات الكبرى.

وكانت أداتا القياس هاتان بالنسبة للثلاثين شخصاً المجتمعين هناك، تمثلان معنى آخر غير ذاك الذي يراه بهما الآخرون. فالكوس يرمز إلى الاستقامة والسداد في الفعل والإنصاف، لا فعل الإنسان في المادة فقط، ولكن في نفسه أيضاً، بينما يمثل الفرجار صورة الفكرة في مختلف الدوائر التي تشكلها. ولا ينبغي بأي حال من الأحوال أن تتجاوز زاوية انفراج قائمتيه تسعين درجة، وهي طريقة أخرى للتذكير بأنَ للإنسان حدوده.

الحكمة والقياس.

فضيلتان لم تكونا قط ما يميز الشخص الجالس في الصف الأول، محمد طلعت باشا، رئيس المحفل الماسوني، ووزير داخلية تركيا

---

(٢٠) رمزا الماسونية. المترجم.

والكاتب العام للجنة الاتحاد[٢١] والتنمية، حزب الأتراك الشباب الذي يقود البلد منذ خمس سنوات.

ولا يسع من يعرف الرجل جيداً إلا أن يتساءل عن الأسباب الحقيقية التي جعلته يلتحق منذ حوالى عشر سنوات تقريباً بالمحفل الماسوني، المؤسسة المعروفة بمعارضتها لكل أشكال التمييز والمحاباة.

والواقع أن الدوافع الحقيقية لانتساب طلعت إلى المحفل الماسوني تعود إلى الفترة التي كان فيها وزيراً للبريد والتلغراف في سالونيك إذ ستسنح له الفرصة في هذه المدينة أن يقابل مؤسسي لجنة الاتحاد والتنمية. وكانت أغلبيتهم، إن لم يكونوا جميعاً، تنتمي إلى محفل مقدونيا ريزورتا التابع للمشرق العظيم لفرنسا. وكانت بعض أشكال الالتحاق بالحزب مستلهمة إلى حد كبير من القداس الماسوني.

وسرعان ما توصل طلعت، شأنه في ذلك شأن كل المنتسبين الشباب، إلى حقيقة مفادها فشل حكومة عبد الحميد على طول الخط، وكان لزاماً إذاً أن تستبدل بدماء جديدة. وهنا لم يكن شيء أكثر طبيعية من الانضمام إلى الثوار في المحفل الماسوني؟

وكان يجد متعة في أن يعلن «أجل، أنا ماسوني! قبلت في المحفل الماسوني لأساعد في مساعدة البشرية!» على كل، فهذا الرجل المنتمي إلى أسرة دومية[٢٢] لم يكن ملحداً كما أنه لم يكن مؤمناً أيضاً.

أما سعادة البشرية، فكانت تعتمد على الإمساك بالبلد بقبضة من حديد.

---

(٢١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

(٢٢) مجموعة دينية من أصول يهودية، اعتنقت الإسلام في القرن الرابع عشر. ويطلق عليهم أيضاً سيلانكلي (من هم من تيسالونيك)، أو السبتيون المشتق من اسم ملهمهم سبتي تسيفي. الأصل.

بحركة نشيطة، أخرج سيجارة من نوع مراد من علبة صدفية، وثبتها بدقة على طرف فم سيجارة، منتظراً ما الله وحده يعلم قبل أن يقرر أخيراً إشعالها. وما من شك أنه كان يغالب نفسه ليحافظ على قدر استهلاكه نفسه للتبغ، ذلك أنه لم يدخن أبداً مثل هذه الأسابيع الأخيرة. مازحه إسماعيل أنفر باشا الجالس جواره، وكان وزيراً للحربية، ومنتمياً هو أيضاً إلى المحفل الماسوني منذ مدة طويلة تماماً مثل طلعت باشا، إذ قال له:

- أرى أنك تقاوم. كان إسماعيل إنساناً يجمع الأضداد، فهو بوجه وسيم بملامح واضحة، وقامة مستقيمة ونشيطة، وما من أثر واحد للتجاعيد في وجهه الثلاثيني الذي كان أشبه بقناع لا يفضح مشاعره أو أفكاره. كان يملك رقة ونعومة أشبه بالتخنث، غير أنه في الواقع لم يكن هناك من شيء ليكشف حقيقته فعلاً، ذلك أنه كان عنيداً بطموح غير محدود، وهو ما دفع أصدقاءه إلى أن يطلقوا عليه لقب نابوليونيك أو نابوليون الصغير، وهو اللقب الذي يرمز إلى طموحاته. على أي حال وبالنسبة له فشخصيتان اثنتان احتلتا مكاناً عظيماً في نفسه، وهما المنتصر في معركة أوسترليتز(٢٣) وصورة فريدريك الأكبر، وهما مثلاه الكبيران. وكان يحب أن يفكر بأن القدر خبأ له مصيراً مشابهاً لهما معاً.

في صدر القاعة، كان هناك رجل يقوم بعرض حول موضوع حرية الصحافة وآثارها على السياسة.

همس أنفر باشا:

- دائماً مرهق عزيزنا كريم باشا. . .

لم ينبس طلعت ببنت شفة، مع أنه كان بإمكانه أن يقول لزميله بأن الفصاحة تعوزه أيضاً، حتى إنه غفا أكثر من مرة وهو يسمع خطابات

---

(٢٣) يقصد هنا نابوليون. المترجم.

أنفر، لكن هناك العديد من الروابط تجمعهما، وانتماؤهما للمحفل الماسوني لم يكن أقلها شأناً.

وفجأة ألقى نظرة على ساعته.

- العاشرة، سنتأخر.

نفذت رائحة قوية لزيت السمسم إلى حلقيهما، وهما يصعدان مركبة برلينية[٢٤]. أمر طلعت السائس بأن يخفض غطاء التنفس، ثم أمره بالقول «يلضزا!» فارتفع السوط يضرب الريح. صعدت العربة مسرعة مصحوبة بنظرات الاحترام والخوف إلى شارع المرادية قبل أن تأخذ وجهة حي بسيكطاش.

سأل أنفر قائلاً:

- أتساءل كيف ستكون ردة فعل صديقنا جمال باشا حين سيعلم بالأخبار؟

- بشكل سيّئ من دون شك، إلا أنه لايملك خياراً. هو يستحق ذلك.

وحولهم، كان الناس المختلفو الأصول يتحركون تحت شمس ملهبة. نساء بخطى بطيئة، بوجوههن المختفية وراء الشراشف[٢٥] السوداء، ونساء غير محجبات بسيقان عارية أو مغطاة بالحرير، وغربيات وأرمينيات ويونانيات برؤوسهن المغطاة بمناديل بألوان زاهية، وحيث جنود بزيهم العسكري، وأكراد وعرب وشراكسة وأتراك بزيهم الثلاثي الطقم ذي الطوق الصلب.

وفي البعيد، وفي اتجاه القرن الذهبي ارتفعت صفارة سفينة بخارية، كانت الخديوي ميل التي تربط بين الإسكندرية والقسطنطينية،

---

(٢٤) مركبة كبيرة مقفلة ذات أربعة مقاعد. المترجم.

(٢٥) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

وتتزاحم كيفما اتفق فسقيات عتيقة ناضبة ومتاجر محالبيتشي التي تعرض التحليات المتخمة المكونة من الخثيرة وطحين الرز والحليب.

«أريد إلقاء النار في الجنة، وسكب الماء في الجحيم حتى يتكشف الغطاءان لنرى من يحب الله عشقاً، وليس خوفاً من جهنم أو أملاً في الجنة[٢٦]».

لماذا في هذه اللحظة بالضبط، خطرت على بال طلعت الأقوال المشابهة للأسطورة التي نسبت إلى قديسة صوفية من البصرة؟ من الواضح أن للعقل سلوكه أيضاً! مرر سبابته ببطء على طول جبهته، كما لو أنه يبحث عن طرد تقطب أربعينيته الحديثة، ثم أمر:

- بسرعة أيها السائس!

إرزروم، في اللحظة نفسها

يراقب آرام بانتباه والده العاري الجذع، وهو يشحذ بهمة نصل موساه على زنار جلدي.

سأل آشود:

- ما بالك تراقبني هكذا؟ ليست أول مرة أحلق فيها.

- أراقب. هذا كل ما في الأمر، فقط لأتعلم.

- لتتعلم؟ لديك كل الوقت يا بني. لو تعلم كم هو ممل أنه يجب عليك الحلاقة كل يوم.

---

(٢٦) يقصد بها رابعة العدوية التي نسبت لها مجموعة من الأقوال على شاكلة «اللهم إن كنت أعبدك خوفاً من نارك فأحرقني بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك طمعاً في جنتك فاصرفني منها، أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني من رؤية وجهك».

- وإذاً، لم لا تترك لحيتك؟ يقول العم هوفانيس إن اللحية هي بداية الحكمة.

- عليك أن تذكر عمك بمثلنا الذي يقول: «لو كانت الحكمة خلف كل لحية، لكانت التيوس فلاسفة». بالمناسبة أين هو أخي؟ لم أره هذا الصباح.

- سمعته يخرج مع بداية الصباح الأولى، قال إنه يحتاج إلى أن يكون وحيداً ليتأمل. هذه هي الكلمة التي استخدمها، «ليتأمل»، شرح لي أنه يعني التفكير، ووجدت أن ذلك طبيعي.

- طبيعي؟

- هوفانيس شخص مهم، أليس كذلك؟ أن يكون المرء عضواً بالبرلمان فهذا مهم، خاصة بالنسبة لشخص أرمني.

- هذا صحيح، لكني لا أرى أي شيء طبيعي في أن يستيقظ شخص مهما بلغت درجة أهميته فجراً؟

- لأنه عليه أن يفكر أكثر من الآخرين، وإلا ما كان ليكون مهماً.

كان آشود على وشك أن يقول لابنه بأنه لو كانت أهمية المرء تقاس بالوقت الذي يقضيه في التفكير، لكان هو «آشود»، ومنذ زمن بعيد، أشهر شخص في تركيا. ذلك أنه ومنذ عدة أيام، لم يتوقف عقله عن الدوران مثل طاحونة. حاول آسيم تيرزيوغلو بطبيعة الحال طمأنتهم، فالضابطية الشجاع تحدث كشخص يملك قلباً. لكن العقل كان أقل شهامة. ما كان سيكون حالهم لو أن الحرب اندلعت كما يتوقع آشود؟ هل هناك من أمل في أن تغفل السلطات العثمانية عن مصير الأرمن؟ أما موقف الأتراك الشباب فلم يكن يتجه أبداً في هذا الاتجاه، وسلوكهم قبل وقت ليس بالطويل لا يبشر بخير أبداً.

ذلك أنه وفي سنة ١٩٠٩، وفي هجوم أخير، وبينما كان على عتبات المنفى، أطلق عبدالحميد في سيليسيا، وفي أضنة تحديداً سلسلة

جديدة من المذابح خلفت وراءها خمسة وعشرين ألف قتيل. ولزمت لجنة الاتحاد والتنمية الصمت. وما من صوت عارض هذا الفعل الشنيع النابع من روح مريضة. وكان هذا داعياً كبيراً للقلق. ما العمل إذا ما ساءت الأمور؟ الرحيل وضع أسرته في مأمن؟ كان هذا حلاً، لكن هل كان سيُسمح لهم بترك البلد؟ وإلى أين الرحيل؟ لم يفكر آشود إلا في وجهة وحيدة، فرنسا حيث عاش هوفانيس في منفاه. سيعلم كيف ينصحه:

- آيريغ[٢٧]؟

- نعم؟

- ألن تحلق؟

- بلى، بلى. طبعاً.

وكما لو أنه أتى بخطأ، طلى آشود خديه سريعاً برغوة الحلاقة، وأمسك الموسى.

عاد الفتى ليقول:

- أنت قلق أليس كذلك؟

- قلق؟ يا لها من فكرة عجيبة!

- لا تقل لي إنك لست كذلك، سمعتك بالأمس عندما كنت تتحدث مع عمي هوفانيس وجدي.

من خلال المرآة، نظر آشود إلى عيني ابنه ثم قال:

- آرام، إنها أحاديث الراشدين. وأحياناً يتحدث الراشدون كي لا يقولوا شيئاً. اخرج الآن من هنا، ودعني أحلق.

قال الجملة الأخيرة بنبرة محايدة، غير أنها كانت كافية. عندما كان الفتى يهم بمغادرة الحمام سأل:

---

(٢٧) أبي. الأصل.

- هل يمكنك أن تخبرني ما تعنيه «طوكسان»؟

بقيت موسى آشود معلقة.

- «طوكسان؟»

رد آرام بالقول:

- طرحت السؤال على شوشان، غير أنها لم تستطع أن تجيبني.

- أجل من المؤكد أنك وأختك تتحدثان بأمور عجيبة. «طوكسان» هو اسم حزب هنتشاك، وهو ترجمة لكلمة كُلكُل، وهو عنوان صحيفة ثورية تصدر في روسيا. والآن، هل تتفضل لتتركني وشأني؟

القسطنطينية، الحادية عشرة والنصف صباحاً، حمام قصر يلضز

كانت حبات ماء ترشح على طول حائط قاعة التعريق الغارقة في أبخرة حلزونية متصاعدة جعلت كل شخص بها يبدو كظل شبح.

ترك طلعت باشا العاري كما وضعته أمه نفسه في لحظة اللذة هذه، حيث لا يمكن للجسد في مثل هذا الخدر الرطب أن يُمتلك أبداً. ظل معتصماً بالصمت، بعينيه المقفلتين ويديه المتشابكتين على كرشه الرخوة، وروحه المعزولة عن كل شيء. معزولة وبعيدة إلى حد أنه لم يسمع الأذان المنطلق من صومعة مسجد المسيدية القريب جداً.

انقضت حوالى عشرين دقيقة، فقرر أن يقوم وسط ارتعاشة البخار. لف وسطه بشرشف ثم مر إلى الغرفة المجاورة حيث جلس هناك منتظراً أن يبرد. كان بفكه المربعة، وشفتيه المكتنزتين اللتين يطل عليهما شارب أسود كثيف، وجسده القصير السمين جعله يبدو أشبه بمصارع جوال.

بحث ناظراه عن صديقه إسماعيل أنفر الذي رآه جالساً على واحدة من تلك الآرائك وجمال باشا وزير البحرية.

اقترب طلعت وحيا جمال بيده بأن وضعها على قلبه ومن ثم على فمه ثم على جبهته، قائلاً:

- ليكن يومك من الياسمين.

- ويومك من العسل. كيف حالك يا صديقي؟

- الحمد لصاحب الحمد.

أشار طلعت إلى الحوض الكبير المملوء بالماء الذي يزين وسط القاعة.

- باردة؟

قال أنفر باشا مازحاً:

- أرى أن وزيرنا في الداخلية على عادته برّيد.

- ووزيرنا في الحربية على عادته وقح.

انقلبت ابتسامة أنفر باشا إلى قهقهة.

- مع التقدم في العمر، تغدو الوقاحة ترفاً من الخطأ التغاضي عنه!

قال طلعت متفاجئاً:

- تتحدث عن التقدم في العمر، بينما لما تبلغ الثلاثين من عمرك بعد؟ هذا مقلق يا صديقي.

- هل نسيت أننا احتفلنا في شهر تشرين الثاني الماضي بعيد ميلادي الثالث والثلاثين؟ هذه بداية.

تدخّل جمال:

- أكبرك يا عزيزي بعشر سنوات، ولم أشعر أبداً مثل شعوري الآن بالشباب.

قال أنفر بسخرية:

- من حسن حظ زوجتك.

تظاهر وزير البحرية بأنه لم يسمع شيئاً، ذلك أن مزاح زميله الوقح هذا لم يعجبه، ولولا المنصب الكبير الذي يحتله، لعبّر له صراحة عن ذلك.

فللأسف، جعل الزواج الذي تم قبل وقت قصير أنفر كشخص لا يمكن المساس به أبداً. فعند زواجه من نجدية قريبة السلطان محمد الخامس، دخل إلى الدائرة المغلقة للأسرة الإمبراطورية. وما كان لرجل أن يتحداه إلا إذا فقد عقله. وكان هناك عنصر ثان يمنع من تقارب الرجلين. فأحمد جمال كان محباً لفرنسا، ويتحدث الفرنسية بطلاقة، بينما أنفر لم يكن يرى أمامه إلا ألمانيا، وهو حماس يعود إلى أيام كان فيها من سيغدو وزير الحربية يتلقى تدريبه العسكري ضمن الحرس البروسي. واليوم، صار القيصر وأنفر متقاربين جداً إلى حد أن السلطات الألمانية تتحدث عن «أنفرلاند» عندما تقصد الحديث عن تركيا!

تنازل جمال عن حقه في الدفاع عن نفسه، وفضّل أن يتوجه بحديثه إلى طلعت قائلاً:

- لقد تم تنفيذ أوامرك، وكل القوات البحرية الموضوعة تحت سلطتي جعلت في حالة تأهب قصوى.

- أحسنت صنعاً يا جمال. علينا أن نكون حذرين.

صفق وزير الداخلية بيديه.

تقدم مدلك بهمة ونشاط منه ثم قال:

- أمركم سيدي!

كان الدلاك[٢٨] يرتجف قليلاً، وهو شيء مفهوم، ذلك أنه كان على بعد نفس واحد من ثلاث شخصيات الأكثر خشية في

---

(٢٨) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

الإمبراطورية. وقوة هذا الثلاثي الرهيب نجحت في تقليم دور السلطان محمد الخامس إلى درجة آسيفات شخصية الظل المسرحية المثيرة للشفقة التي كانت رفقة شخصية كاراغوز التي تبعث السعادة في نفوس الجماهير. ما إن حاول أن يرفع رأسه حتى أعاده الباشوات الثلاثة إلى جادة الصواب معيدين إلى رأسه ذكرى أخويه المسجونين. وطبعاً لم يكونوا يملكون السلطة المطلقة، ذلك أن التنافس داخل الحزب والحكومة كان كبيراً. غير أنه ومع وجود برلمان من دون معارضة، وأحادي القطب، ورأي عام مكمم كانوا قطعاً أساسية على الرقعة السياسية.

تمدد طلعت على أريكة تاركاً لحمه الرخو بين اليدين الخبيرتين.

سأل بتجرد قائلاً:

- هل تعلمان أن الأرشيدوق مات لأن السائق ضل الطريق.

سأل جمال متعجباً:

- كيف؟

- هذه هي الحقيقة. فبعد المحاولة الفاشلة الأولى، قرر الأرشيدوق أن يزور أحد ضباطه الجرحى. فتاه السائق وسلك أحد الأزقة حيث لسوء الحظ الكبير، كان يختبئ أحد الإرهابيين، وهذه المرة كانت الضربة قاتلة.

قال وزير البحرية بحسرة:

- مكتوب(٢٩). ما قُدّر قُدّر. كل ما كتب للإنسان لا يمكن له أن يتوقعه. فقط الأحداث الصغيرة وغير المهمة هي ما يمكن توقعها.

عقّب أنفر:

- من المحتمل أنك لست مخطئاً.

---

(٢٩) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

فهم هذا الأخير أن الموضوع الذي طرقه زميله في الداخلية لم يكن طارئاً، فمنذ أن جاوره، يعرف عن ظهر قلب الحيل التي يستخدمها طلعت ليقود محاوريه إلى حيث يشاء، وفي اللحظة الأخيرة يضرب ضربته القاضية. وما كانت لتتأخر، ذلك أنه قال:

- أنتم واعون بأن الحرب على عتبات أبوابنا، ويجب ألا يساورنا شك بأنها ستكون حرباً تعني الجميع. وهنا يُطرح السؤال، بأي معسكر سنقرر الالتحاق؟

كان أنفر يعلم الجواب مسبقاً مثلما يعرفه من طرح السؤال. أما جمال، فقد كان الوحيد الذي يتصور جواباً آخر، لأجل هذا بدا عليه الاضطراب.

- ألم يحدد اختيارنا مسبقاً؟ ألم أستبق ذلك أنا شخصياً بموافقتكم، وذلك بتقديم عرض لفرنسا بالتوقيع على عقد تحالف جيد في مستواه وشكله؟ هل نسيت أني حصلت على رد بأنهم سيرضون تماماً على حياد تركيا؟ وبأنهم لن يضغطوا علينا إذا ما قررنا هذا.

استدار طلعت على ظهره، وأمر المدلك بالانصراف. ثم قال:

- أعلم، أعلم. غير أني أظل حائراً.

اعترض جمال:

- لماذا؟ تقضي الحكمة بأن نستدير جهة قوى التوافق، نحن. . .

قاطعه إسماعيل أنفر بحدة:

- قوى التوافق؟ روسيا وفرنسا وإنجلترا؟ هذه الدول التي أركعتنا والتي لا تأمل إلا في اقتسام بقايانا؟ وبخاصة روسيا التي ما فتئت تسلبنا أراضينا؟ أنت تفقد عقلك يا جمال.

قام وزير الحربية وهو يقول:

- أنت من فقد عقله! إذا ما تبنّينا الموقف المخالف فسنفسح المجال لعدونا الدائم، ولن نستطيع أن نقاوم، فالخزينة فارغة، وجنودنا

مرهقون بالحرب التي خضناها في البلقان، ولم يعد يبلغ عددهم إلا خمسمئة ألف رجل. ووسائلنا في الاتصال محدودة. والحلفاء مسيطرون على البحار، من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر، وجزء من البحر الأسود. لن نستطيع أن نقاوم!

- خطأ! خطأ جسيم. نستطيع المقاومة إذا ما توفرنا على حليف قوي بما يكفي.

- ما الذي تقصده؟

وكردّ على سؤاله، اكتفى وزير الحربية بتبادل نظرة غامضة مع طلعت.

راقب جمال الرجلين بقلق مفاجئ، ثم سأل:

- ما الذي يحدث؟ أنتما تخفيان عني شيئاً.

وأمام صمتهما، ألح. فأعلن طلعت بصوت هادئ:

- حسناً. أعلمك بأننا نستعد لأن نوقع مع ألمانيا اتفاقية تحالف دفاعي، وفي حال اعتداء قيصر روسيا، ستكون ألمانيا هي القوة الحليفة التي أشار إليها أنفر. إضافة إلى هذا، تمنحنا الحكومة الألمانية مساعدة مالية تصل إلى مليون جنيه.

- إتفاق؟ مع القيصر؟

- تماماً، حرصنا أن تعلم هذا.

- أتصور أن الأحاديث حول هذا الموضوع قديمة، أليس كذلك؟

- شُرع فيها منذ بضعة أسابيع.

- ولم تخبراني بشيء؟

- فرض الألمان السرية المطلقة على هذا الأمر، وحده سعيد حلمي من أحيط علماً بهذا الأمر.

- رئيس الوزراء؟ كان يعلم بينما تركني أباشر مفاوضات مع فرنسا؟

عاد طلعت ليقول:

- يبدو أنك لم تستطع أن تحلل الوضع جيداً. عليك ألا تغفل أن هدف مشاركتنا ليس فقط تجنيبنا الخطر المحدق بنا، ولكن أيضاً السعي وراء هدف أكثر أهمية، وهو ملازمة تصورنا الوطني. التصور الوطني لشعبنا ولحزبنا الذي يدفعنا إلى تدمير العدو والحصول على حدود طبيعية تمكننا من الوحدة مع كل إخواننا في العرق. من جهة أخرى، يأمرنا شعورنا الديني بأن نحرر العالم الإسلامي من هيمنة الكفار.

تحوّل شك اللحظات الأولى إلى ذهول. تقوس ظهر جمال وهو يقول:

- لقد فقدتما عقليكما...

ذكّره أنفر:

- ليست إلا معاهدة اتفاق دفاعي.

- إعلم يا عزيزي بأن أي اتفاق يوقع مع الشيطان يسمى لعنة. فليحمِ الله[٣٠] تركيا...

---

(٣٠) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

٧

إرزروم، الفاتح من تموز، الساعة الواحدة زوالاً

في فوضى أشياء متراكمة، وضعت آنا آخر صحن على الطاولة. أضافت البوركي بالقشدة إلى اللحمادجون، إلى السدجق والخروفاذس إضافة إلى صحون أخرى بعثت في الغرفة روائح طيبة.

انضاف إلى عائلة طوماسيان المكتملة الصفوف الضابطية وزوجته أجدة ونظيم ابنهما الأكبر ابن العشرين سنة. . . كان فاهي يتصدر الطاولة يقابله هوفانيس الذي كان بهيئة تمنح انطباعاً أخاذاً إذ كان يضع بذلة ذات قطع ثلاث، وربطة عنق، وياقة صلبة وينتعل حذاء موكسان ملمّعاً بشكل جيد. ومن جيب سترته الصدري برز منديله النظيف، وكان برأس عارية بلا قبعة أو طربوش. وفي حركاته المتسمة بالرقة يمكن تخمين الإنسان الذي عاش طويلاً في بلد أوروبي، وفي فرنسا تحديداً. كان الفرق شاسعاً بينه وبين الفدائي[٣١] الذي اقتحم ذات يوم من شهر آب لسنة ١٨٩٦ البنك الإمبراطوري العثماني والسلاح في يده، موقفاً السير إدغار عند حده والآخرين، ذلك أنهم وبعد أن وضعوا القنابل الخمس والأربعين والكيلوغرامات الأحد عشر من الديناميت،

(٣١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

صعد هو ورفاقه الثمانية عشر الناجين على متن لاجيروند. وما إن وصلوا إلى مرسيليا حتى وضعوا في سجن سان بيير ليتم إطلاق سراحهم بعد بضعة أسابيع. اختار خمسة عشر من رفاقه أن يُنفوا إلى الأرجنتين، في حين قرر آرمن غارو وهراتش كيراكيان زميله في الدراسة في مدرسة المناجم بنانسي، التوجه إلى سويسرا لإتمام دراستهما في علم المعادن، أما بالنسبة لهوفانيس، فكان البقاء في فرنسا أمراً محتماً.

مرت عليه بطبيعة الحال أوقات صعبة وأيام مريرة، ذلك أنه ألفى نفسه في عالم يجهل عنه كل شيء، غير أنه ولشجاعة قلبه وعناده لم ينجح فقط في التمكن من اللغة الفرنسية بل إنه وعلى غرار مواطنه المشهور نوبار باشا استطاع الحصول على شهادة من المدرسة المركزية للفنون والمعامل.

ومكنته السنوات التي أمضاها داخل إدارة فرنسية من فرصة الاختلاط بأعضاء من المجتمع الأرمني في المنفى، ومن التعاطف مع أفكار الثورة الفرنسية، ومع الاشتراكيين الماركسيين، إضافة إلى هذا، تمكن من مقابلة بعض الكتاب مثل أناتول فرانس الذي لم يتردد في وصف عبد الحميد صراحة بـ«الطاغية المرعوب جداً»، أو ألفونس دودي وجون جوريس المدافع الكبير عن العمال، وأيضاً جورج كليمنصو المحرر بجريدة أورور كانوا كلهم ومن دون استثناء، مدافعين أشداء عن القضية الأرمنية. وطوال ليال بأكملها، كان ينصت لنصوص ملتهبة لطلبة يونان تتحدث عن الاستقلال المستحق لبلدهم، وأمجاد أبطالهم الذين اتخذوا من فرنسا مثلهم الأعلى، مؤكدين أن فرنسا الحاضرة دوماً إلى حد أن أول وطنييهم ويدعى كونستانينوس ريغاس تبنى نشيداً لحزبه «هيا يا أبناء اليونان» المنسوخ عن النشيد الوطني الفرنسي الثوري.

وشرح له شباب إيطاليون كيف تشكلت الوحدة الإيطالية، وأخذ

هوفانيس يحلم بأنه قد يصير في يوم من الأيام غاريبالدي. وبعد أن بلغ الثالثة والثلاثين، هو أكبر بثمانية أعوام اليوم، انضم إلى حزب هنتشاك ذي الخلفية الماركسية جداً، والذي أسسته مجموعة من الطلبة الأرمن من جنيف. وفي سنة ١٩٠٨، ومع بداية عهد جديد في تركيا، بفضل محاولة الانقلاب التي قام بها الأتراك الشباب على أمل إرساء نظام دستوري ليبرالي على النمط الغربي، عاد هوفانيس إلى القسطنطينية، وانضم سريعاً إلى وزارة الأشغال العامة، ورقي إلى منصب رئيس المهندسين خلفاً لأرمني آخر، وهو كريكور سينابيان. وبعد سنة، وما إن أُبعد عبد الحميد عن البلد حتى دخل البرلمان رفقة حوالى عشرة من رفاقه ومن بينهم صديقه القديم آرمن غارو، الذي قرر العودة إلى تركيا بعد حصوله من جامعة جنيف على دكتوراه في الفيزياء والكيمياء. وبعد أن استقر قليلاً في الولايات المتحدة الأمريكية، تم الحديث مؤخراً عن إمكانية تعيينه مساعداً لأحد المفتشين الأوروبيين، وهو نرويجي مكلف بمراقبة تطبيق قرارات لجنة الاتحاد والتنمية لصالح الأقليات المسيحية في المحافظات الشرقية السبع، غير أن هذا التعيين ارتبط شخصياً بطلعت باشا، ولم يصدر الوزير أبداً أي قرار.

وخلال كل هذه المغامرة، كان هوفانيس على النقيض تماماً من أخيه الأصغر آشود الذي رفض دوماً أن يرتبط بالسياسة، وعكس والده أيضاً الذي يعتبر الساسة بصفة عامة جنساً واحداً (أينما تواجدوا)، قادرين على أن يقدموا لك وعداً بأن يشيدوا جسراً حتى في المكان حيث لا يوجد نهر. وإذا كان هناك من شيء ليندم عليه في مسيرته هذه، فهو عدم قدرته على أن يتواجد جوار أمه مريم في آخر لحظات حياتها.

- سكوت!

هكذا دوّى صوت فاهي في الغرفة.

قام الرجل المسن بالتعمد بأن رسم الصليب رابطاً بين جبهته وصدره وطرف كتفه اليمنى لينتهي بطرف كتفه اليسرى.

- ليكن بمقدور القديس تادوس والقديس بارتيلمي والقديس غريغوار أن ينجّونا من الشر، وأن يمكنونا من التمتع بسلام بالطعام الذي يمنحنا إياه الإله، مبارك...

غطى صوت المؤذن[٣٢] المرتفع من منارة المسجد على بقية جملته. احمر وجهه، وضغط على أسنانه وأصر على كلماته قائلاً «مبارك هو من أجل كل عطاياه! آمين».

لم تكن هذه المرة الأولى التي يُظهر فيها ابن السبعين تضايقه ممن يطلق عليه «منافسه» عصمان بولوت، مؤذن إرزروم. وبطريقة ممنهجة، كان يتزامن أحد نداءات الصلاة مع ساعة أكل العائلة.

اقترحت آنا قائلة:

- والآن يا أولاد، تذوقوا طعم البوريك، وأخبروني رأيكم!

وبينما كانت الأصابع تغوص في الصحون، أعلن فاهي بغضب:

- هل يمكن لأحد أن يشرح لي كيف يستطيع هذا المسجد أن يبقى واقفاً على قدميه؟ إنه هنا منذ ألف سنة!

صحح آسيم بخجل:

- أخبروني أنه شيد منذ سبعمئة سنة.

- وإذن؟ أما كان له أن ينهار مئة مرة؟

- كان ذلك سيشكل خسارة، لأننا سنكون مجبرين ساعتها على تشييد مسجد آخر من المؤكد أنه كان سيكون أقل جمالاً.

- تشييد آخر؟ لماذا؟

- كيف؟ برأيك هل أنتم وحدكم معشر الأرمن من تملكون الحق

(٣٢) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

في أماكن عبادة؟ أذكّرك بأننا معشر مسلمي إرزروم نزيد على خمسة وستين ألفاً.

- نعم، ونحن حفنة من المسيحيين التعساء، أعلم ذلك.

تدخلت أجدة زوجة الضابطية لتقول:

- سبعة وثلاثون ألفاً، إنها حفنة مشرفة.

صحح آسيم:

- أربعة وسبعون ألفاً.

أضاف بمكر:

- ألا يساوي أرمني واحد تركيين؟ أليس كذلك يا فاهي أفندي؟

قهقه الأولاد.

رمى فاهي آسيم بنظرة استخفاف كاذب:

- ألقي المحظوظ في النهر سيخرج بسمكة في فمه، لو أني كنت أصغر بعشرين سنة فقط، لكنت تتصرف بغرور أقل!

وعلى الأثر، مرر بطريقة فاضحة كأس الراقي الذي بيده أمام الضابطية قائلاً:

- غتازت بارون[٣٣] آسيم!

رفع الضابطية بدوره كأسه المملوءة ماءً، ثم قال:

- بصحتك فاهي أفندي!

مال قليلاً على هوفانيس ثم قال:

- إذاً يا صديقي، كم من الوقت ستبقى بيننا؟

- أطول وقت ممكن. لا يمكن للإنسان أن يستلهم فعلاً إلا بين أهله.

---

(٣٣) بصحتك سيدي. الكاتب.

وافق فاهي قائلاً:

- تندر رؤيتك كالذهب تماماً، فبين عملك والبرلمان واجتماعاتك السياسية لا تتسنى لنا رؤيتك أبداً! والأسوأ هو أنك لم تملك وقتاً لتجد لك زوجاً!

أطلق هوفانيس ضحكة قصيرة، وأشار إلى آنا قائلاً:

- ليس ذنبي أن أخي حظي بالأفضل من بين كل النساء.

غمغم فاهي:

- أجل. امدح، امدح، امدح.

سأل آسيم:

- وما أخبار العاصمة؟

علت مسحة مرح محيا الأرمني وهو يقول:

- ما تزال التلال السبع تهيمن على البوسفور، ولم تبرح الآلام كاتدرائية القديسة ساجيس بفعل تحولها إلى مسجد، ومنظر الغروب على قرن الذهب أكثر بهاء من ذي قبل. هل رأيت؟ لا شيء تغير.

- نعم، نعم، لكنني قصدت المناخ السياسي. هل هناك من جديد؟

- فلنقل إن الجو متوتر إلى حد ما، والسبب بكل تأكيد كثرة الحديث عن الحرب.

- لا تخشَ شيئاً. فتركيا ستبقى بعيدة عن كل هذا، فـ«الباشوات الثلاثة» ليسوا حمقى إلى هذا الحد.

- من فمك إلى أبواب السماء، مثلما يقال. وفي انتظار ذلك، من المحتم علينا نحن معشر الأرمن أن نتخذ موقفاً واضحاً.

سأل آشود:

- ما الذي تعنيه؟

- إذا ما أُصدر أمر بالتعبئة العامة، هل من المشروع أن نراوغ ما يعتبر واجباً بالنسبة لنا؟

- لأنه برأيك، علينا الانخراط في الجيش؟

قال هوفانيس:

- إطمئن، فلن تكون جزءاً من الحصة، فقانون الخدمة العسكرية يقضي بإعفاء بعض أصحاب الوظائف، والتعليم واحد منها.

أبدى آسيم ملاحظة:

- لا تغفلوا البدل[٣٤]، وذلك بدفع حوالى أربعين جنيهاً، أعتقد أن باستطاعة أي كان أن يعفى من الخدمة في الجيش.

أوضح هوفانيس:

- على أي حال، فقد حدد السن ما بين عشرين وأربعين سنة، لكن وكما أخبرتكم، من المهم أن تعلن طائفتنا موقفاً بشكل واضح، وعدا ذلك، كونوا على يقين من أن السلطات لن تعدم وسيلة بأن تتهمنا مرة أخرى بالخيانة. اتفقنا مع البطريرك زافن ديريغيان وآرمن غارو على أن نجتمع في غالاطا لنناقش الوضعية.

ثار فاهي محتداً:

- اجتماع؟ لتناقشوا؟ لتناقشوا ماذا؟ ألا تعلمون إذاً أنه إذا ما هاجمتنا روسيا، ستجدون أنفسكم في مواجهة جنود تسري في عروقهم دماؤنا نفسها؟ هم مئات الآلاف من الأرمن يعيشون منذ عشرات السنين تحت ظل وصاية القيصر. حتى هم سيلفون أنفسهم تحت ألوية الحرب لكن في المعسكر الآخر. هل تريدون إذاً أن يقتل الأرمن بعضهم بعضاً، أن يقتلوا إخوانهم؟ هل فقدتم عقولكم؟

---

(٣٤) ضريبة. الكاتب.

عمّ توتر من نوع خاص الغرفة.
ارتفع فجأة صوت ابن آسيم حين قال:
- على كل حال، لا تملكون خياراً. عليكم أن تقاتلوا إلى جانبنا وأن تضحوا بحيواتكم من أجل تركيا. فالأرمن قبل كل شيء مواطنون أتراك.
بذهول رمق آسيم الشاب، ثم قال:
- وهل هذا من شأنك؟
- ما الذي قلته ويبدو غير ملائم؟ ما الذي يميز الأرمن عنا؟
كانت نبرة صوته فظة، وأقرب ما تكون للعدائية.
- أنت لا تفقه شيئاً! ولا تعلم شيئاً! رأسك مثل القربة الفارغة.
رفع نظيم كتفيه وهو يقول:
- طبعاً، دافعت دوماً عن...
قام الضابطية من مقعده، وهو يقول آمراً:
- أخرج! أخرج من هنا حالاً!
رجته زوجه قائلة:
- إهدأ يا آسيم. إنه مجرد طفل لا يعرف ما يقول.
- من لا يحترم البيت الذي يستضيفه لا يستحق البقاء فيه.
وأمسك بخناق ابنه:
- أخرج!
بوجه ممتقع، فر نظيم من البيت كما لو أنه يفر من حريق.
تدخلت أنا قائلة:
- هيا يا آسيم. أجدة محققة. إنه طفل.
- أن يكون المرء طفلاً لا يمنع من أن تكون له روح وقلب!
انقطع صوت المؤذن.

طلبت شوشان الإذن قائلة:

- هل تأذن لي يا أبي بأن أقوم من المائدة؟

تفحص آشود ابنته باستغراب، ذلك أن بعض الحزن كسا نظرتها، فقال بلا معنى:

- لم ننته من غدائنا بعد.

- أعلم، غير أنه ما عاد بي جوع.

أصر ودوماً بلا معنى:

- هذا ليس سبباً.

- رجاءً.

ثم أضافت هامسة:

- ليس من الجيد بقاء نظيم وحيداً.

مرت لحظة قبل أن يقول:

- اذهبي إذاً، لكن كوني هنا من أجل التحلية.

صاح آسيم تيرزيوغلو قائلاً:

- دعك من ذاك الملحد! لا يستحق أن يهتم به أحد.

غير أنها كانت قد غادرت.

رفع فاهي يديه إلى السماء ثم قال:

- يا لمزاجك يا آسيم! يحب ابنك بلده، ويريد أن يرى كل من يسكنه يدافع عنه، ما الغرابة في هذا؟

قال آرام بقوة:

- كل الحق مع ميدز بابا. لو أني كنت في عمر يسمح لي، لحملت أنا أيضاً السلاح لردع المهاجمين.

هددت آنا:

- أصمت أنت! من العيب التدخل في حديث الكبار، مفهوم؟
مغتاظاً انقض الفتى على قطعة لحمادجون ابتلعها دفعة واحدة.

- نظيم؟
لم تبد على الشاب الذي أدار وجهه جهة الجبال بعناد أية ردة فعل.
وضعت يدها على كتفه ثم قالت:
- أفهم ردة فعلك. لكن لا ينبغي أن تلوم والدك. هو صديقنا، ويحبنا.
- وأنا أحب تركيا.
- وهو يحب تركيا أيضاً، ويحبنا. هل في الأمر من تناقض؟
تفادى الرد على السؤال. فعادت لتقول:
- هل سبق أن أخبرك والدك أين نقل منذ حوالى عشرين سنة؟
رد بالنفي فأردفت:
- في المدينة التي ولد بها النبي إبراهيم أورفة. كنت بالكاد ولدت. ولما خمن بأن المكان لم يكن آمناً تماماً، فضّل أن يبقيك وأمك في إرزروم. في أورفة كان والدك شاهداً على حدث أثر على حياته كلها.
هبّت ريح ساخنة من الوادي محملة بالروائح البرية، فلفحت وجهي الشابين.
بصوت هادئ قالت بشكل مفصل:
- حدث ذلك سنة ١٨٩٥، في يوم الثامن والعشرين من شهر كانون الأول. كانت الشمس بالكاد أشرقت حين اقتحمت مجموعات من الحميديين المدينة. وبعد أن أخذوا مواقعهم أمام الجمرك هاني

خان القوافل، وفرضوا بأن تسلم لهم كل قطعان مواشي الأسر الأرمنية. كان الطلب إجرامياً بحكم أن تلك القطعان كانت ممتلكاتهم الوحيدة. خرجوا واحتجوا، وظل الأكراد على مواقفهم ثابتين. وهكذا، حمل كل الرجال القادرين على القتال أسلحتهم. وكانت المواجهة مرعبة، حيث دامت أياماً بلياليها. وفي النهاية، ولما نال منهم التعب كل منال، وقل ماؤهم وزادهم، قرر وفد مشكل من حوالى عشرة من وجهاء العائلات أن يقصدوا الوالي طمعاً في دعمه. أنصت الحاكم لهم باهتمام، مانحاً إياهم الانطباع بأنه يفهم تظلمهم، بل وإنه مستعد ليتخذ بحقها قرارات إيجابية. لكن ما إن هموا بالانصراف حتى أعطى أمراً باعتقالهم، فكبلت أياديهم أسفل ظهورهم، وصفوا مثل البهائم، وأجبروا على أن يجثوا على ركبهم. استل الحاكم يطقانه[٣٥] من غمده، واستظهر آية من القرآن قائلاً: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله، فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾، وجزت رقاب المبعوثين العشرة.

قطعت كلامها فسأل نظيم بشك:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- حاول زهاء ثلاثة آلاف شخص أغلبهم من النساء والشيوخ والأطفال أن يتمترسوا داخل الكنيسة، فحاصر الأكراد مدعومين هذه المرة بجنود أتراك، المبنى، وأحكموا إغلاق الباب حتى لا يتمكن أحد من الخروج، وقاموا بتكويم التبن والقش حول الجدران والسقف، وتعالت الصيحات من جوانب الكنيسة. صيحات الأطفال. صيحات نهاية العالم. كانت الساعة الواحدة بعد الزوال. وبعد ساعتين، لم تعد الكنيسة إلا جبلاً من رماد.

غمغم نظيم:

---

(٣٥) البطقان سيف تركي معقوف. المترجم.

- هل... هل ماتوا جميعاً؟

- أجل، الآلاف الثلاثة. واستمرت المذبحة حتى اليوم الموالي. فعندما انسحب الحميديون والأتراك، كانت هناك مئة وستة وعشرون عائلة قد أبيدت. ولم يبق على قيد الحياة وليد أو طفل أو إمرأة[٣٦].

- هل كان والدي من بين هؤلاء المجرمين؟ هل كان من بينهم؟

- في الساعات الأولى أجل. لم يكن يملك إلا الامتثال للأوامر، وبعد أن عاين كل تلك الفظاعات، دار رأسه وأخذ يتقيأ حتى فقد وعيه مقعياً أمام الكنيسة. ثم إنه قام وسار ناحية التلال مصدراً صرخات مثل دابة، كما لو أن من ذبح كانوا أفراد عائلته. ولم ينس ذلك أبداً.

ظهرت في الأسفل عربة يجرها حصان زليّ. كان السائق يمسك بالعنان كيفما اتفق مدندناً أغنية حزينة، أغنية تعود إلى ألف سنة يمكن أن يكون قد سمعها أبراهام، إبراهيم لدى المسلمين.

- لا يمكنني أن أتصور... لماذا لم يرو لي والدي أبداً هذه الحكاية؟

- من دون شك لأن ناراً تطفئ ناراً أخرى. ففظاعات مثل تلك التي عرفتها أورفة شكلت علامات في وجود شعبي. ووالدك يعلم ذلك جيداً. هل يمكنك أن تفهم الآن لماذا يفكر دوماً في حمايتنا؟ ولِمَ هو مستعد ليسامح بعض الأرمن إذا ما رفضوا الانضمام إلى صفوفكم. هل يمكنك أن تفهم؟

لم يقل الفتى شيئاً إذ أحنى رأسه. أخذت شوشان برفق يده، وجرّته إلى المنزل.

---

(٣٦) عدد الضحايا الحقيقي غير محدد تماماً، فكل الكتابات التي تناولت المجزرة تحدثت عن ما بين ستة آلاف وثمانية آلاف قتيل. الكاتب.

القسطنطينية، المقر المركزي للجنة الاتحاد والتنمية،
٥ تموز ١٩١٤

كان مصباح نحاسي صغير، كل ما يضيء بنوره الباهت الرقم ١٢ لشارع نوري عصماني.

توقفت عربة برلينية أمام المدخل. ترجل منها رجل وطرق الباب ثلاث طرقات، ففتح له الباب. أعلن الرجل بصوت رخيم قائلاً:

- الجنرال ليمان فون ساندرز.

وبعد أن ألقى نظرة خاطفة انسل إلى الدخل.

وجد في القاعة التي دخلها ستة رجال مجتمعين حول مائدة دائرية، كان فون ساندرز يعرف مسبقاً أربعة منهم، طلعت باشا والبارون هانز فون فانجنهايم سفير ألمانيا، والكولونيل سوفاد الحاكم العسكري للقسطنطينية، وعزيز باي مدير الأمن العام بوزارة الداخلية.

قام طلعت ليرحب بالعسكري، وسارع بتقديم الشخصين اللذين لم يكن يعرفهما، وهما الدكتوران نظيم وبهاء الدين شكير. وإذا كان نظيم بمظهر عادي فإن شكير، وبشكل شاربيه المحددين، كان يجلب النظر إليه سريعاً. أصدر الجنرال صوتاً بعقبي حذائه، ثم أخذ مكانه جوار وزير الداخلية، وقبالة السفير. وكانت النظرة الغائمة التي ألقاها على هذا الأخير تشي بالكثير، وخاصة بالضيق الذي يسببه له هذا الاجتماع. لو كان الأمر عائداً إليه وحده، لحزم حقائبه منذ مدة طويلة ولقفل عائداً إلى برلين. وعلى الرغم من كل جهوده لم ينجح الأرستقراطي البروسي في التوافق مع هذا البلد والانجذاب إليه، أو مع مسيريه الحاليين، ذلك أنه فهم سريعاً أن طلعت ليس إلا شخصاً عامياً وصولياً، ومتعاظماً خطيراً، ويتساءل لماذا قبل سنة قررت القيادة العليا بأن تعينه هو ليمان فون ساندرز قائداً للبعثة العسكرية الألمانية إلى الإمبراطورية العثمانية،

وهو الذي لم يخض أبداً أي قتال. ولم تكن المهمة بالسهلة ما دامت أنها تريد إصلاح كل مكونات الجيش التركي وفق النموذج الأوروبي.

أما النقطة الأخرى التي لم يستطع فون ساندرز فهمها هي السبب الذي دفع إلى توقيع اتفاق التحالف الدفاعي الذي يربط بلده بتركيا. ومع ذلك، فعندما سأله السفير الألماني بطلب من أنفر باشا عن رأي فون ساندرز، أتت ردة فعل البروسي مختصرة في إشتر وانسين! حماقة خالصة! فالجيش العثماني برأيه كان ضعيفاً جداً، وقادته غير أكفاء. وعلى امتداد السنة التي انقضت كان له ما يكفي من وقت ليكوّن رأيه حول حالة القوات المسلحة للبلد. وفي البداية، تفاجأ بشكل جيد، إذ إن ما اكتشفه تجاوز حدود انتظاراته، وكان سيظل مخدوعاً لوقت طويل، لولا أن أحد موظفيه أعلمه يوماً بالحقيقة، ذلك أن أنفر باشا كان يعمد إلى تحضير قواته قبل يوم من مروره حتى تمنح الانطباع بألا عيب فيها، كما لم يكن يعدم وسيلة ليمرر العتاد من وحدة إلى وحدة أخرى بطريقة سرية حتى لا يكتشف فون ساندرز الخصاص الذي تعاني منه! ومع أن فون ساندرز تأكد من هذا، إلا أنه كان عليه أن يعترف بأن كل هذه النواقص تغطي عليها كثيراً قتالية الجندي التركي. فشجاعته وقوة تحمّله كانتا مشهودتين.

- سيدي الجنرال؟

أعاد صوت طلعت باشا فون ساندرز إلى الحاضر، فقال:

- أنا أسمعكم سيدي الوزير.

- من الواجب عليّ أن أعلمكم بأنه ومنذ أيام توسعت امتيازات ت.م، فخطورة الوضع تحتم ذلك. وبالنظر إلى اتفاقاتنا الحديثة رغبت بأن أعلمكم بهذا القرار.

تبادل الجنرال نظرة تساؤل مع سفير بلده. من الواضح أيضاً أنه كان يجهل ما تعنيه ت.م. وكأن الباشا لاحظ ذلك إذ استدرك قائلاً:

- اعذراني سيداي، سبقت الأحداث. ف ت.م تعني تشكيلة محسوسة، أي المنظمة الخاصة. لقد أسست تحت إشرافي قبل حوالى سنة في فترة حرب البلقان الثانية، وكان هدفها وقتذاك قيادة عمليات قتال ضد أعداء الإمبراطورية في بلغاريا ومقدونيا وفي شواطئ بحر إيجة أيضاً. ومن غير المجدي أن أخبركما بأن هذه الحركة ولدت في سرية تامة، واليوم أيضاً لسنا إلا قلة من يعرف بوجودها.

انتقلت عيناه بين ساندرز وانجنهايم، كما لو أنه يريد أن يطمئن بأنهما استوعبا جيداً ما قاله.

- أريد أيضاً أن أشير لكما مسبقاً، بأني قررت أن أوسع امتيازات هذه المنظمة أو بالأحرى تأسيس فرع مواز لها، وسيديره الدكتور بهاء الدين شكير الحاضر معنا هاهنا، وسيكون مركز عملياته بإرزروم.

نظر البارون إلى طلعت بقلق، قبل أن يقول:

- عذراً سيدي الوزير، هل يمكنكم أن تخبروني أكثر حول هذا... الفرع؟

أخرج طلعت سبحته التي كانت ملفوفة حول سبابته، ثم قال:

- إذا ما حدث واندلعت الحرب كما نخشى جميعاً، علينا أن نتوفر على هيئة قادرة على مراقبة حدود أراضينا، وعند الاقتضاء، أن تبيد أعداء الداخل.

تقلصت عينا فون ساندرز قليلاً، وهو يسأل:

- أعداء الداخل؟ من تقصد؟

وبشكل غريب ترك التركي للدكتور بهاء الدين شكير فرصة الرد على سؤاله، وهكذا قال الدكتور:

- سيدي الجنرال، كما هو معروف ﴿إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم﴾.

- لم أفهم.

قال شكير بخيبة أمل:

- إنها آية قرآنية.

لم يصر فون ساندرز، فقبل كل شيء نحن في الشرق! زد على جهله كل شيء عن مخاطبه، ذلك أنه يمكن أن يكون عميلاً مزدوجاً كما يمكنه أن يكون مرتزقاً كردياً أو شركسيا[٣٧].

والحقيقة أن الألماني كان مخطئاً. فالدكتور شكير لم يكن أياً من هذين، فقد ولد في بلغاريا سنة ١٨٧٠، ودرس في مدرسة الطب العسكرية، وتخرج منها برتبة قائد ليعين إثر ذلك أستاذاً مساعداً في الطب الشرعي في المؤسسة نفسها، قبل أن تجعله العناية الإلهية الطبيب الخاص ليوسف عزالدين ابن السلطان عبد العزيز، والوارث المحتمل للعرش. وبسبب أفكاره الجمهورية نقل إلى اللواء الثالث المتمركز بإرزاندجان. وحدث بينه وبين قادة الاتحاد اتصال سنة ١٩٠٧. ألم تتفق أفكارهم مع أفكاره حيث رؤية بلد حيث المثالية واللغة والدين توحد كل أفراده؟ وفي سنة ١٩١٣، رقّي على التوالي مديراً لمشرحة الجثث بالقسطنطينية، ومديراً للجنة الطبية لوزارة العدل. واليوم، كان على وشك أن يعين عقيداً. كلا، لم يكن عميلاً مزدوجاً أو مرتزقاً.

تدخّل فون فانجنهايم بالقول:

- هذه المنظمة الخاصة، أتصور أنها تتوفر على إمكانات كبيرة؟ فنحن لا ننسج شبكة عنكبوت على امتداد بلد في مثل شساعة بلدكم دون عدد مهم من العنصر البشري. وأفترض أنكم مطالبون بأن تؤدوا أجوراً لهؤلاء الناس بينما لا تتوفرون إلا على هامش مالي ضئيل.

رد الدكتور شكير بهدوء مقلق تقريباً:

---

(٣٧) يعرفون أكثر بالشراكسة، وهم شعب جبلي يعيش بالقوقاز الشمالي. الأصل.

- إطمئنوا، لقد أخذنا كل شيء في الحسبان، ولن يكلفونا شيئاً.

فكر الجنرال: الشرق دائماً وأبداً.

لم يترك طلعت الوقت للدبلوماسي بأن يغوص في تفكيره عميقاً إذ قال:

- والآن يا صاحب السعادة، أحب أن نتحدث في موضوع آخر. تعلمون بلا شك بأن المملكة المتحدة كانت ستسلمنا مدرعتين، غير أنه وبحسب آخر معلوماتنا، يبدو أن اللورد وينستون تشرشل قائد مركز القيادة البحرية، قد وبخ، ذلك أنه أبدى بعض التحفظ ليمنح إلى حليف متميز لألمانيا سفينتين حربيتين قويتين، وهو ما يجعل ودائماً بحسب السيد تشرشل، توازن القوى في البحر الأبيض المتوسط يختل.

أبدى السفير ملاحظة إذ قال:

- على السيد تشرشل إذاً أن يتمتع بغريزة خارقة للعادة ما دام لا أحد يعرف باتفاقنا.

- علينا ألا ننسى بأنه إنجليزي، وبالتالي فهو يعيش حذراً شأنه في ذلك شأن باقي أبناء جلدته.

كان فون ساندرز على وشك أن يرد بأنه على اطلاع بكل ذلك بالنظر إلى كثرة المراوغة التي تتسم بها السياسة التركية، غير أنه أحجم عن ذلك.

واصل طلعت قائلاً:

- تعلمون مثلنا تماماً، إن لم يكن أكثر، الأهمية الاستراتيجية للمضائق. وفي حالة النزاع، ستكون هي الرهان الأساسي. وإذا ما حرمنا من هذه السفن الحربية، فلا شيء يمكنه أن يوقف الروس لتحقيق اتحادهم مع أسطول الحليف لهم في البحر الأبيض المتوسط. هل تفهمون قصدي؟

- تماماً. أفهمكم جيداً إلى حد أني سأقول لكم بأنكم تتمنون أن تجعل ألمانيا تحت تصرفكم سفينتي بريسلو وغوبين. أليس هذا صحيحاً؟

قلص طلعت باشا عينيه بطريقة عشوائية.

واصل الدبلوماسي حديثه بالقول:

- أقل ما يمكن أن يقال عن تلبية طلبكم هو أنه أمر صعب. فإذا ما استجبنا له فإن ذلك يمكنه أن يحدث غضباً عاماً لدى قوى التوافق، حتى إنه يمكن أن يكون مؤشراً على بدء القتال.

- معكم حق. فكرت أنا وأنفر باشا في المسألة بشكل جدي ومعمق، فوجدنا أنه علينا أن نجد وسيلة لتفادي هذه العقبة.

غاص الدبلوماسي عميقاً في التفكير.

ما كان لطلب التركي أن لا يعجبه، فوصول السفينتين إلى الدردنيل كان سيشكل تتويجاً لمساره كوزير، وسيكون الانتصار الدبلوماسي الأول لألمانيا. ومنذ سنوات وفانجنهايم يسعى إلى منصب مستشار إمبراطوري. وهو هنا يتوفر على فرصة من ذهب ليكسب بعض النقاط. فنقل سفينتي غوبين وبريسلو سيكون إنجازه الشخصي. وباتفاقه مع الحكومة التركية يمكنه ترتيب إدخالهما إلى المضيق، وبذلك يمكنه ترسيخ التحالف الألماني التركي أبداً. أجل! فالمخطط يتطلب من المرء أن يكون مغامراً، غير أنه كان محبوكاً بشكل جيد.

أخفى فرحه وهو يقول بنبرة رصينة:

- قد يكون هناك حل. ستكونون من الناحية الشكلية ملاك سفينتينا الحربيتين، وبهذه الطريقة، سنقطع الطريق على كل من يعارض الأمر.

ثم سارع إلى إخماد حماسة محدثه، إذ قال:

- تعلمون جيداً بأني لا أملك أية سلطة تقريرية. لذا عليّ التشاور

مع حكومة بلدي، لكن اطمئنوا من أني سأقوم بذلك في أقرب الآجال. والآن اسمحوا لي بأن أطرح عليكم سؤالاً يبدو لي جوهرياً.

بقي الباشا في حالة انتظار مترقباً، فعاد الدبلوماسي ليقول:

- إذا ما شاركت ألمانيا في الحرب، هل قررتم الموقف الذي سيتخذه الباب العالي؟

بدا الذهول على طلعت، وهو يقول:

- صاحب السعادة! هل أغفلتم عقد التحالف الذي وقعته حكومتا بلدينا؟ سنكون في صفكم. لا يأخذنكم شك في هذا.

- حسن. يبدو لي أننا أنهينا هذه المسألة.

دفع البارون مقعده ثم قام، فتبعه في ذلك فون ساندرز قائلاً:

- إئذنوا لي بالانصراف. سأعلمكم بقرار القيصر.

ما إن غادر الرجلان، حتى ترك طلعت نفسه يهوي على المقعد الذي كان يشغله من قبل ومال على العقيد سوفاد الحاكم العسكري للقسطنطينية، قائلاً:

- قبل قليل قصد الدكتور شكير، وأنا أوافقه على ذلك تماماً، أن يترك الغموض على الطريقة التي نعتمدها في تجنيد العناصر اللازمة لتوسيع تشكيلة محسوسة. من المؤكد أن هؤلاء الغربيين لم يعلموا شيئاً. إنهم...

وأخذ يبحث عن الكلمة.

اقترح العقيد سوفاد:

- مدققون؟

- أجل، مدققون. هذا صحيح. فباسم الأخلاق ما كانوا ليدعوا الفرصة تمر دون أن ينتقدوا تجنيدنا لمساجين الحق العام، وهم ينسون أن الأخلاق هي ترف بالنسبة لمن لا يملك الإمكانات. برأيك يا دكتور شكير كم يلزمنا من رجال؟

- لا يبدو لي أن عشرة آلاف رجل عدد مبالغ فيه، تنضاف إلى خمسين ألف رجل التي تنتمي منذ ثلاث سنوات إلى المنظمة.

دوّن طلعت على ورقته.

واصل شكير حديثه قائلاً:

- كما ذكرتم، سنستدعي المسجونين القابعين في سجوننا، والذين لم يقوموا إلى الآن بأي شيء. غير أنه من الضروري أنه وما إن يغادر هؤلاء التشيتي[38] زنازينهم، حتى إن علينا أن نفرض عليهم تدريباً، فأن يكونوا قتلة أو لصوصاً لا يعني أبداً أنهم قادرون على القيام بعمليات عسكرية، لأجل هذا علينا الترتيب لإنشاء معسكرات تدريب سرية.

وافق طلعت على الأمر بحركة من رأسه.

- بطبيعة الحال، فالتطبيق الجيد للحق والعدل يفرض ذلك.

رسم العقيد سوفاد ابتسامة ساخرة على شفتيه، فهو يرى في أن تنشئ حكومة ما منظمة مشكلة من عتاة المجرمين، توفر لهم الحماية من قبل أعلى سلطة في البلد، ويتمتعوا بكل السلطات ليحققوا مهمتها، شيئاً بلا معنى قانوني. هل يمكن لدولة ما أن تدّعي العدل إذا كانت هي من تخرق القانون؟

سمح لنفسه بأن يسأل:

- قبل قليل، ذكرتم أمام الجنرال فون ساندرز كلمة «أعداء الداخل». هل يتعين علينا أن نحذر من مواطنينا؟

- سيدي العقيد، سأكتفي بأن أعيد عليكم أقوال الدكتور شكير ﴿إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم﴾.

---

(٣٨) غير النظاميين، المرتزقة. الأصل.

لم يصر الحاكم على السؤال أكثر، فبعد كل شيء، كل ما عرف قليلاً، سيتصرف بشكل جيد، إلا أنه كان بفكرته الخاصة عن الهوية الغامضة «لعدو الداخل»، ذلك أنه سيكون بمقدور السلطان عبد الحميد أن يرقص داخل سجنه الذهبي بقصر بيلر باي.

٨

إرزروم، ١٧ تموز ١٩١٤

قطع هوفانيس المحاط بشوشان وآرام بضعة أمتار قبل أن يتوقف ليستمتع أفضل بالمنظر. فهناك في شعاب وادي كاراسو، وبين المنارات والأجراس، تتمرغ الشمس في أردية ذهبية، وهنا وعلى ارتفاع حوالى ألفي متر، حيث لا ضباب ولا غبار ولكن فقط هواء شفاف بشكل لا مثيل له.

- أحب هذا المنظر، أشعر أني أعود للحياة.

سألت شوشان:

- إذا كان الأمر كذلك، لمَ لا تأتي لتسكن معنا؟

- السنة القادمة إذا شاء الرب. أما الآن فلديّ الكثير من العمل. هناك جلسات في البرلمان، لسنا إلا أربعة عشر أرمنياً من بين مئتين وثمانين نائباً. وحضور أيٍّ منا مهم.

بفخر أبدى آرام ملاحظة قائلاً:

- وأنت أيضاً قائد «الطوكسان».

ابتسم هوفانيس ثم قال:

- ما الذي تقوله؟ لست قائد أي شيء، أنا أنتمي إلى اللجنة

السياسية للدشناك، واستقر في البرلمان هذا كل شيء. لكن وبيننا، لا يمثل الانتماء إلى الهنتشاك أو إلى الدشناك أية أهمية حقيقية لي. أنا أرمني، هذا كل شيء.

- آه... ومع ذلك فقد كنت متأكداً من أنك الرئيس الأكبر.

لم يعد هوفانيس يسمع شيئاً.

فقد جلس على طرف الطريق وبدا ساهماً.

- انظرا. انظرا إلى تلك البيوت هناك في سفح الجبل. هنا عاش الأباردجيون والشوفريون، واليعقوبيون والعديد من الشعوب الأخرى. هم إخوانكم وأخواتكم وآباؤكم وأمهاتكم بالدم. كلهم كانوا هنا قبل مئات السنين. للناس ذاكرة ضعيفة، غير أن الأرض لا تنسى أبداً. فهي تحفظ في بطنها آثار أجدادنا. آثار أرمينيا التي ننتمي إليها.

قال آرام:

- أرمينيا؟ لكن أرمينيا لم تعد موجودة أيها العم هوفانيس.

رفع هوفانيس ذراعيه إلى السماء. أشرق وجهه بفعل تعبير مضيء وشغوف ثم قال:

- لكن يا صغيري، أرمينيا ليست فقط جغرافيا، إنها هوية. فكر قليلاً. هل حاولت أن تتصور عدد الشعوب التي مرت علينا؟ واحتلتنا؟ وظلمتنا؟ استطاع هؤلاء الغزاة أن يجتثوا منازلنا، أن يملكلوا حقولنا غير أنهم لم ينجحوا أبداً في النَّيْل من ذاكرتنا.

اعلم أن الذاكرة الأرمنية لا يمكنها أن تموت. تذكر أننا كنا أول مملكة مسيحية رسمياً في التاريخ، جزيرة صغيرة من الإيمان وسط محيط من الوثنية. حدث هذا منذ أكثر من ألف وستمئة سنة. وما الذي تراه اليوم؟ ما نزال هنا، راسخون أكثر من ذي قبل على ديننا، وكاتدرائية القديسة إيتشميادزين، ملكة كاتدرائياتنا ما تزال قائمة تذكر

بأن سيدنا نوح كان يثمل من كرماتنا! وبأن سيدنا نوح عندما ركب سفينته وبلغ قمة أرارات صاح «إيرفانتس! لقد ظهرت!»

- ومنها اشتق اسم المدينة «يريفان»؟ طبعاً هي أسطورة؟

- من يدري؟ ربما لكن إذا أردت الاستمرار في الحلم، وكان عليك أن تختار ما بين الأسطورة والحقيقة، اختر الأسطورة دوماً.

استمر في حديثه لكن بنبرة شغف واضحة:

- وكم من عاصمة كانت لنا؟ بنفس عدد الأنهار. أرمافير، وقارس، وفان، وآني، وأرتاكساتا، ودفان وإيتشميادزين! وستكون لنا أخرى أيضاً في يوم من الأيام. فكل شيء ممكن حتى ما لا نستطيع أن نتصوره. حتى إننا حكمنا يوماً من قبل أمير فرنسي!

- أمير فرنسي؟

- لوزينون. في عصر كان ملوك الأرمن متحالفين مع المحاربين الصليبيين. لكن هذه قصة أخرى.

ظهر فجأة راع من منعرج ممر ضيق، موجهاً عنزاته إلى مكان يعرفه وحده.

سألت شوشان:

- هل تعتقد أننا سنحصل على بلد مجدداً؟

- أنا مقتنع بذلك تماماً. ستبعث أرمينيا في يوم من الأيام من رمادها من جديد.

وعم الصمت بينهم.

استمر هوفانيس في التحديق بالمنظر كما لو أنه غارق في قراءة كتاب غير مرئي. لم يجرؤ أحدهما سواء شوشان أو آرام على مضايقته.

وأخيراً، خرج من تأمله ومد يده إلى حجرة سوداء صغير. كان نصفها مخفياً داخل العشب.

التقط الحجرة وأعلن:

- أولتي تازي. هذا يوم سعدكما.

ردد آرام منبهراً:

- أولتي؟ أرني! شيء لا يصدق! لا شك أنها تساوي ثروة!

- لا تبالغ. إنها مجرد حجرة بقيمة عادية، والمنطقة ملآى بها، والدليل...

- هذا لايمنع. فهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها أولتي في حالتها الطبيعية.

- حسن إذاً. إنها لك. احتفظ بها جيداً كشيء قيّم.

قام هوفانيس على قدميه، ثم قال:

- ما رأيكما في أن نعود الآن؟ فعيد الماء على وشك البدء.

صاحت شوشان:

- هذا صحيح. لقد نسيت الأمر. اليوم فاردفار! عليّ أن أغير ثيابي!

وكانت الأولى من بين الثلاثة التي انطلقت عائدة.

أُعِدّت مائدة الأيام الكبرى.

وكما قضت بذلك العادة، وضعت آنا صحنا مقعراً مزيناً ببراعم ورد مملوء بحبات قمح حيث نصب صليب خشبي صغير. وفي أحد أطرافه، وضعت دمية من نباتات مجففة ومقلمة من رمانات صغيرة. وككل سنة، كان آشود من خاط الشجرة الجالبة للفرح مستعيناً بأعواد على شكل صليب، وزينها بفاكهة وجدها داخل البيت.

وفوق الموقد، كان هناك خروف علق من البارحة يرشح شحمه على قدر من البيلاف[٣٩].

---

(٣٩) طعام من أرز ولحم وتوابل. المترجم.

وكانت آنا ترتدي ثوباً طويلاً بأكمام واسعة، موشى بوردة تصل حد العقبين. وكانت تنتعل خفاً من جلد الماعز مزين بخيوط مذهبة. وكانت تتمنطق بحزام حريري واسع مزين بأزهار، في حين وضعت على رأسها منديلاً شفافاً ثبتته بتبليك فوق غطاء رأسها الأرجواني، وبدا كالتاج على رأسها.

متغزلاً قال آشود مخاطباً آنا:

- أنت متألقة، وجميلة مثل الإلهة آستريغ.

تقبلت الأمر بانحناءة احترام وهي تقول:

- من أجلك سيدي.

جرّها برفق إليه، ثم قال:

- ليبقيك الرب دوماً لي.

ردت:

- ليبقيك الرب دوماً لنا.

سأل صوت:

- من هي آستريغ؟

كان صوت شوشان، واقفة في مدخل غرفة الأكل وقد وضعت يديها على وركيها.

صرخت آنا مرتعبة:

- كيف تزررت؟

كانت الفتاة قد وضعت سلفاراً، وهو سروال واسع مهلهل، عقد من العقبين، وضع فوقه قميص من نسيج الكتان يصل حد الفخذين.

- ماذا؟ ألا أعجبكما؟

- لكنه لباس الأولاد!

- هكذا أحب نفسي. لا تصرّ يا آبريغ فلن أبدل ثيابي.

غمغم آشود:

- أنت تلبسين مثل أخوك. هذا غير معقول! بل أسوأ. هذه ورطة.

تظاهرت شوشان بأنها لم تسمع شيئاً إذ سألت مجدداً:

- من هي آستريغ؟

رد عليها آشود قائلاً:

- اذهبي وارتدي فستاناً.

- أرجوك يا آيريغ. اعفني من ذلك!

- لا يمكن لفتاة أن تخفي حقيقتها على هذه الصورة! ما الذي سيقوله الجيران؟

- أرجوك، اليوم هو فاردفار... وأ...

دخل فاهي إلى الغرفة قائلاً:

- ما هذه الجلبة؟ أصواتكم تسمع من البوسفور!

شرحت آنا موجهة أصبع الاتهام إلى شوشان:

- إنها هي. انظر ماذا تضع!

فحص الرجل المسن الفتاة بناظريه ثم قال:

- ما الذي تلومانها عليه؟ أرى أنها متأنقة.

- متأنقة؟ بلباس الصبيان؟

- لا يهم! لديها كل الوقت لتعرف أَلَمَ أن تكون امرأة. هيا بنا.

ومد ذراعه إلى شوشان، قائلاً:

- تعالي يا إمشاكريس، يا سكري لايفهم والداك شيئاً في الحياة.

- أخبرني يا ميدز بابا، من تكون آستريغ؟

- ماذا؟ ألا تعلمين؟ مع أننا نحتفل بعيدها اليوم، ففاردفار مهدى لها. آستريغ هي إلهة الحب والجمال، وهي ابنة سيدنا نوح، وقد ولدت بعد الطوفان، وأعتقد بأنها انحنت على مهدك يوم مولدك.

- على مَهْدِي؟

- بكل تأكيد يا شوشان. فآستريغ ليست معروفة فقط بأنها نثرت بتلات الورد على بلدنا من حدائقها السماوية، ولكن هذه البتلات توضع أيضاً على النساء الحوامل، لأجل هذا فالأرمنيات اللائي يولدن من بطون هؤلاء النساء هن الأجمل.

قام ومد يده إلى حفيدته قائلاً:

- تعالي، لنذهب وننضم إلى الاحتفال!

جمع قطيع من المواشي أمام الكنيسة، وقد زينت جباههم بطريقة غريبة بالخشب الذي كان من الناحية النظرية يطرد عين السوء. وما إن حانت اللحظة المناسبة، حتى أخذ القطيع إلى فناء الكنيسة حتى يمنحها الأب بيدروس دير أغوبيان بركته. كانت الساحة غاصة بالناس، حيث عمت الضحكات، وتبادل التهاني من دون جدوى، ذلك أن صوت الدول(٤٠) القوي، والإنشاد بصوت مرتفع، وصخب الزورنا(٤١) غطت على كل ذلك. وكانت النساء من كل الأعمار يرتدين فساتين ملونة، ويرقصن وقد حملن على أذرعهن سنابل القمح. أخذ الكاهن يباركهن بدوره، ذلك أن المرء ليس ورعاً بما يكفي عندما يتعلق الأمر بإزالة عاصفة أو الجفاف أو البَرَد. أطلق أحدهم حماماً طار إلى السماء خافقاً بجناحيه بحرية.

انضمت شوشان وآرام إلى نظيم ومجموعة من الأولاد المجتمعين حول نافورة، حيث كانوا يلعبون منضافين إلى من يرش رفيقه أكثر، في حين كان آخرون يصنعون كرات من الطين جعلوا يضربونها أرضاً بكل

---

(٤٠) طبل غطي كل جانب منه بجلد الماعز أو البقر وشد بواسطة حبال. الأصل.

(٤١) نوع من المزامير البدائية. الأصل.

قواهم. وكان الفائز من بينهم من تصدر كرته صوتاً أقوى عند ارتطامها بالأرض. وكان هذا التقليد جزءاً من فاردفار.

وكان آشود وآنا وهوفانيس الجالسين معزولين عن الاحتفال، يراقبون ويتفرجون عليه من مصطبة من حجارة. أما فاهي طوماسيان فقد جلس في ساحة مقهى مجاورة للكنيسة مدخناً النرجيلة رفقة آسيم.

علق هوفانيس:

- لو أن فاردفار لا يتوقف أبداً. فعندما أبصر كل هؤلاء الناس سعداء، أحدث نفسي بأن التعاسة لم توجد أبداً.

تدخّل آشود قائلاً:

- هل نسيت يا أخي العزيز، أن التعاسة هي مرحلة ما قبل السعادة؟

- مرحلة ما قبل السعادة؟

- من أين تنبع السعادة إن لم تكن من التعاسة؟ انظر إلى المحيطين بنا، هناك من بينهم من فقد عزيزاً خلال السنوات القليلة الماضية، لقد عانوا، وذرفوا الدموع، وظنوا أنهم سيموتون ألماً وكمداً. إذا كانوا لم يعرفوا لحظات مأساوية، هل تعتقد أنه كان باستطاعتهم اليوم أن يعيشوا فرحة العيد هذه بكل امتلاء؟ علينا أن نحذر من الحياة التي لا تعرف الألم والعذاب، فهي تضعنا في حالة خداع وتمنحنا الانطباع بأننا خالدون.

مسح هوفانيس الهواء بيده، ثم قال:

- آه! يا أخي! لن تتغير أبداً، دائماً تتفلسف!

علقت آنا وهي تقوم:

- لا تعتقد يا هوفانيس بأنك لم تقل شيئاً جيداً، فشقيقك حكيم!

غمزت له بطرفها قبل أن تضيف:

- في بعض الأحيان أكثر من اللازم! سأترككما. سأذهب لأرى أجدة. يبدو الملل على حرم صاحبنا الضابطية.

عاد هوفانيس ليقول:

- زوجتك محقة. أحببت فيك دوماً قدرتك على أخذ مسافة من الأحداث. كم أحببت أن أشبهك.

- آه! الحب كلمة كبيرة. فلنقل بأن رؤيتي للحياة إذا لم تمنحني شيئاً فإنها أنقذتني كثيراً.

غيّر آشود الحديث، إذ أعلن بتأثر مفاجئ:

- أنا قلق يا هوفانيس. ليس عليّ، ولكن على العائلة. إذا ما اندلعت الحرب، «هم» لن يتركونا في حال سبيلنا. أليس كذلك؟

- «هم»؟ أفترض أنك تقصد أولئك الذين يحكمون البلد. الأتراك الشباب؟

- بطبيعة الحال. لقد أدركت مثلنا جميعاً من أن الآمال التي كانت معقودة عليهم عند وصولهم إلى السلطة أضحت عقيمة. أم هل نسيت مشاركتهم في مذابح ١٩٠٩ التي أودت بحياة خمسة وعشرين ألفاً في أضنة؟ كيف نثق بهم؟ تأمل قليلاً الرجال الذين نصّبوا أنفسهم على رأس البلد، طلعت وهو شخص بارد وبلا قلب، وأنفر معتوه متباه، وجمال فظ متقلب.

- نعم، لكن لولا خشيتي من مفاجئتك لأخبرتك بأني لا أستطيع أن أتصور أن لجنة الاتحاد والتنمية ستعيد الأعمال الفظيعة نفسها المقترحة من قبل عبدالحميد. لا يمكنني تصور ذلك، فالحوار مع مسؤولي الاتحاد لم ينقطع يوماً، حتى إن بعضنا قريب جداً من أناس مثل طلعت وأنفر، إنهم يجاورونهم، ويلعبون معهم التافلو أو الورق. ولأختم، نحن ممثلون في البرلمان.

- أربعة عشر عضواً؟

- أفضل من لاشيء!

هز هوفانيس رأسه هزات متتالية وختم بالقول:

- لا، «هم» لن يعيدوا الكرة مرة أخرى.

وخلال كل الوقت الذي كان يتحدث فيه أخوه، كان يحس آشود بانزعاج يجتاحه. هل كان هوفانيس يبحث حقاً عن طمأنته هو أم أنه كان يحاول إقناع نفسه؟ كان على وشك إبداء هذه الملاحظة لولا أنه لاحظ متعجباً:

- أنظر! أليس هذا هاغوب تيليريان وابنه سوغومون؟

وقام من فوره قبل أن يردف:

- وهذا الذي يمشي جوارهما! أليس صديقك آرمن؟ آرمن غارو!

- هذا صحيح. كيف يحدث هذا؟ وفي يوم فاردفار!

كان الزائرون الثلاثة يعانون لإيجاد منفذ وسط تكتل الناس والمواشي في الساحة. وكان يلزم أن يتخلى آسيم تيرزيوغلو، بتحريض من فاهي، عن نرجيلته، ليتدخل مستعملاً سلطته كالضابطية الأعلى رتبة على صعيد الولاية ليفتح لهم ممراً:

- هاغوب! هاغوب تيليريان! يا للسعادة!

ارتمى الرجل السبعيني وصديقه أحدهما في حضن الآخر تحت ناظري سوغومون المستمتعين. كان يمكن أن يعتقد أن الرجلين لم يريا بعضهما منذ عدة أشهر بينما لم يكن لقاؤهما الأخير إلا قبل أسبوعين فقط.

استدار فاهي بعدها إلى آرمن غارو، وأخذ يتفحصه وقد تراجع إلى الخلف قليلاً، قبل أن يقول مردداً:

- آرمن... آرمن. أنت لا تتغير. آخر مرة رأيتك فيها كانت قبل

ثلاث سنوات، وما تزال دوماً بمنظر الفخر نفسه. دائماً متميز. من يصدق أني عرفتك طفلاً؟!

كان الرجل الذي ضمه فاهي بين ذراعيه لا يمتّ بصلة إلى الثائر أيام اقتحام البنك العثماني. فداخل بذلته المحاكة على المقاس وبشكل جيد، وبعقدة الفراشة وياقته المكسورة، كان يمكن أن يؤخذ بكل سهولة على أنه قنصل أو سفير، على أنه دبلوماسي على أي حال.

ومن دون تأخير، أراد فاهي أن يجرّهم إلى المقهى قائلاً:

- ياغييك! تعالوا! لديهم هنا مشروب «راقي» لذيذ...

اعتذر غارو قائلاً:

- أشكرك يا صديقي، لا نتوفر للأسف على وقت كثير، علينا أن نتحدث إلى هوفانيس. لكن اطمئن فلا شيء يدعو للقلق. هل تعرف أين نجده؟

ابتسم فاهي قائلاً:

- يكفيك أن تلقي نظرة خلفك.

استدار هاغوب وآرمن، فإذا بهما يلفيان هوفانيس وآشود خلفهما مباشرة. وما إن مضت لحظة تدفق العواطف تلك حتى اقترح هوفانيس بالقول:

- فلندخل إلى المنزل، سنكون هناك أكثر راحة.

سأل سوغومون الذي بقي بالخلف قائلاً:

- هل يمكنني أن آتي أيضاً؟

- بطبيعة الحال يا بني. فبعد كل شيء، يتعلق الأمر بمستقبلك أنت أيضاً.

مد فاهي يده إلى صحن الباكلافاس الذي يزين المائدة، فأخذ واحدة، وحكم كخبير مخاطباً آشود:

- زوجتك ملكة الحلويات، إلا أنه كان ينبغي أن تضيف الفستق والعسل. حتى في عيتاب[٤٢] لا يمكننا أن نجد أفضل من هذا!

تناولها في قضمة واحدة، وتوجه بالحديث إلى آرمن غارو قائلاً:

- هكذا إذاً، تنوون عقد الجمع العام السنوي للدشناك هنا في إرزروم؟

- أجل، في الرابع والعشرين من الشهر الجاري، أي بعد سبعة أيام.

تدخّل هوفانيس معقباً:

- أليس في الأمر بعض التسرع؟ كان من المقرر أن نجتمع في غالاطا شهر تشرين الأول القادم.

- أعلم، لكن وبالنظر إلى تطور الأحداث، ارتأينا أن نقدم التاريخ، وقد حصلنا على موافقة باقي أعضاء المجلس السياسي، ذلك أن الأب تيماكسيان اقتنع بذلك إضافة إلى ممثلي كل التيارات دون أي استثناء، والذي لا يمكن أن نغفل عنه هو أن البطريرك زافين دير ياغيايان سيشرفنا بحضوره.

حرك هوفانيس حاجبيه، فبغياب الكاثولكي، القائد الأعلى المقيم بإيتشميادزين على التراب الروسي، فرافين الأول كان الكاهن الأكثر أهمية على سلم تراتبية الكنيسة. ولما كان مقيماً في القسطنطينية، فقد كان المسؤول عن الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والتربوية بالنسبة للأرمن الذين يعيشون داخل الإمبراطورية، وممثلهم الرسمي أمام الباب العالي. ومنذ أكثر من خمسة قرون، أقل من مئة بطريرك بقليل خلف بعضهم بعضاً مجاهدين للدفاع مهما اختلفت درجة سعادتهم في ذلك، عن حقوق الرعايا أمام السلطات التركية.

---

(٤٢) تعرف اليوم باسم غازيتتاب، وهي مشهور بجودة حلوى الباكلافاس. الأصل.

لاحظ هاغوب تليريان بالقول:

- وبطبيعة الحال، فإن هذا الاجتماع لا يلغي الاجتماع الذي قررنا تنظيمه في تشرين الأول القادم. فلنقل إنها مقاربة أولى ستمكننا من تحديد وتأكيد موقفنا بشكل واضح إزاء الوضع الجديد.

ركز آشود ناظريه على أخيه، ثم قال:

- هذا بالتحديد خطابك الذي اعتمدته منذ أيام. هل تذكر ذلك؟ لقد قلت «من الضروري جداً بالنسبة لنا نحن معشر الأرمن أن نتبنى موقفاً واضحاً في حال صدر أمر للتعبئة العامة».

واصل حديثه غير أنه كان يتوجه هذه المرة إلى غارو:

- لأن الأمر يتعلق بهذه النقطة بالتحديد.

- تماماً.

سأل هوفانيس:

- وما رأي البطريرك، وباقي أعضاء الدشناك؟

- الآراء مختلفة، لأجل هذا يعتبر هذا المؤتمر ذا أهمية كبيرة. علينا أن نخرج منه بمذكرة واضحة لا غموض فيها في هذا الاتجاه أو في الاتجاه الآخر.

- بطبيعة الحال. أتوقع أن يحضر كريكور أيضاً. سيكون من الجيد حضوره.

وافق هاغوب بحركة من رأسه.

سأل فاهي بالقول:

- عن أي كريكور تتحدثون؟

رد هوفانيس بالقول:

- كريكور زوراب. نجاور بعضنا في البرلمان وهو محامٍ لامع، وأستاذ القانون الجنائي لكنه أيضاً خطيب لا يشق له غبار، وصحفي جريء، وكاتب موهوب، دعم بكل إخلاص الأتراك الشباب في ثورة

سنة ١٩٠٨، وهو أحد المقربين جداً من طلعت وأنفر، ولا يمكنكم أن تتصوروا الليالي التي قضاها هؤلاء الثلاثة يلعبون بشكل متواصل التافلو.

بشكل مفاجئ، علق سوغومون الذي ظل حتى ذلك منصتاً:

- والسيد زوراب تزوج من سيدة فاتنة.

انطلق فاهي ضاحكاً، ثم قال:

- حسن، لابنك ذوق جيد يا هاغوب!

اكتفى هاغوب بالموافقة على ذلك قائلاً:

- صحيح أن كلارا جميلة، لكن لنعد إلى أشياء أكثر أهمية.

توجه إلى هوفانيس بالكلام قائلاً:

- هل تعلم أن التظاهرة ستشهد حضور أحد أقدم رفاقك منذ سنوات الدراسة؟

- من يكون؟

- ممثل إرزروم في البرلمان.

- فارتكيس؟ فارتكيس سيرانغيليان؟

- بشحمه وعظمه. هل كنتما معاً هنا في ثانوية ساناساريان؟

أكد هوفانيس بالقول:

- هذا صحيح، لكني لم أعد أراه منذ انخراطه في العمل السياسي.

- له مسار جيد. فقد كان سنة ١٩٠٨ أحد أكبر المدافعين عن الثوار، ومثل كريكور زوراب، ساهم بشكل فعال إلى أن جانب الأتراك الشباب في خلع عبدالحميد. لا يمكنك أن تصدق أنه أيضاً يجاور طلعت.

توقف هاغوب قليلاً قبل أن يسأل:

- أخبرني يا هوفانيس، هل يمكننا الاعتماد على مشاركتك الفعالة

في المؤتمر؟ كلما كنا متحدين وأكثر عدداً، صارت القرارات التي سنخرج بها يومها أكثر ثقلاً لدى الحكومة. ثم إنك ومثل آرمن شخصية...

الكل يذكر تاريخ السادس والعشرين من شهر آب لسنة ١٨٩٦.

وافق هوفانيس من دون تردد إذ قال:

- بالطبع سأحضر. كيف لك أن تشك؟

- وأنت آشود، هل تحضر معنا؟

ولم يتلق أي رد.

باستياء قال صوت أنثوي:

- لمَ لا ترد يا أيريغ؟

كانت شوشان قد تسللت إلى الغرفة خفية حتى إن أحداً لم يلحظ وجودها. تقدمت نحو والدها، وأمسكت يده مضيفة:

- هيا، ستشارك في المؤتمر، أليس كذلك؟

منح آشود لنفسه لحظات من التفكير قبل أن يقول:

- أجل سأشارك. لكني أقر أمامكم أني سأفعل من دون قناعة فيما يخص النتائج.

سأله آرمن غارو:

- لمَ كل هذا التشاؤم؟

- لا يتعلق الأمر بالتشاؤم بقدر ما هو واقعية. قبل وصولك كنت أبث مخاوفي لأخي، وخشيتي من أنه في حال اندلاع الحرب أن نؤخذ مرة أخرى ككبش فداء. لا أعلم ما الذي تأملونه من وراء هذا المؤتمر، هل هو اقتراع من أجل إلحاق إخواننا بصفوف الجيش التركي ودعمنا اللامشروط للاتحاد؟ أو الانضمام إلى أعداء تركيا؟ على أي حال، ومهما كانت نتيجة ما ستخلصون إليه، أخشى ألا يقوم الباشوات

بشيء. فإذا ما أردوا استعادة سياستهم في القمع، فإنهم سيستعيدونها. لا أحد في العالم، ولا أية مذكرة، ولا أي حزب يستطيع منعهم عن ذلك. هل تفهمون؟

نظر آرمن إلى آشود بانتباه، قبل أن يرد عليه:

- أعتقد أنك مخطئ. إذا ما أكدت جمعيتنا يوم الرابع والعشرين بأعلى صوتها وبكل قوته وفاءها للإمبراطورية، فلا يمكن للحكومة أن تجد أية ذريعة لمهاجمتنا. أما الباشوات، . . . فسنرى. سأقابل طلعت قريباً، وأعتزم تذكيره بتعهدات حزبه اتجاهنا، وانتزاع تعيين منه إلى جوار هوف المفتش النرويجي المكلف بمراقبة تطبيق القرارات التي هي في صالحنا.

لاحظ فاهي:

- يا لثقتك بنفسك يا صديقي!

- ليس من دون سبب.

أعلن بعد أن توقف قليلاً:

- تصوروا أنه اقترح عليّ حقيبة وزارية في وزارته.

- هل هذه دعابة؟

- كلا، غير أني لست غراً. فأنا أعلم سبب كرمه هذا. هو يريد إزاحتي، فاحتمال رؤيتي إلى جوار أحد المفتشين المعينين من قبل القوى العظمى يقض مضجعه إلى حد أنه يعتقد أنه ما إن أغدو وزيراً حتى أفقد اهتمامي بكم، وبقومنا. وهذا ما هو مخطئ فيه تماماً.

بدا الارتخاء على سيماء وجه آشود وحرك رأسه برفق ثم قال:

- في هذه الحال، أقر بأني مخطئ بالقلق على مستقبلنا.

رد آرمن:

- أعتقد ذلك بالفعل. لكن وفي حال العكس، إذاً. . .

ولما صمت، سأله فاهي:

- إذاً؟

- إذاً، لن يبقى لنا إلا أن نصلي.

هزت قشعريرة جسد شوشان، وبكلّ عفوية بحث ناظراها عن عيني سوغومون، وفي حدقتي الشاب لم يكن هناك ما يمت بصلة للصلاة، ولكن فقط عزم شرس ويائس ومدمر.

غمغم بصوت يكاد لا يسمع:

- أود أن نقاتل.

٩

القسطنطينية، ١٩ أيلول ١٩١٤

تلغراف مرمز أرسله مسؤول الاتحاد ببروسيا إلى اللجنة المركزية بالقسطنطينية، ويتعلق بتجنيد عناصر المنظمة الخاصة:

كتبت سابقاً العديد من الرسائل إلى كل اللجان التنفيذية، وإلى سليمان العسكري باي، حول ضرورة تجنيد التشيتي. وطبعاً فحاجة مثل هذه، تم الوقوف عليها بعد التحري. والواقع أن عدد الرجال القادرين على الخدمة في هذه الألوية غير النظامية عرف تراجعاً ملحوظاً، غير أنه يمكننا أن نجد ضمن الشباب المجندين أشخاصاً مخلصين مؤمنين برؤى الحكومة. هؤلاء الشباب هم إضافة إلى المحكومين بالإعدام واللصوص وقطاع الطرق. من الممكن أن يتم تجميعهم وتكوينهم كوحدة مكونة من خمسمئة رجل إلى ألف رجل في دائرة بروسيا. إذا ما وافقتم على أشخاص مثل هؤلاء فالمرجو أن تعلمونا بذلك.

١٣ تشرين الثاني ١٩١٤، حي غالاطا

على الرغم من السماء العابسة، كانت القسطنطينية ترخي بظلالها على المياه المتلألئة وعلى مراكب المرسى. وفي البعيد، كان بالإمكان رؤية هضاب المدينة العتيقة، والمقابر الملآى بالسرو، ومخازن التبغ والكنائس البيزنطية التي صارت أنقاضاً، والمساجد وسط الأكواخ والبيوت شبه المهدمة، والأزقة الضيقة، والأراضي شديدة الانحدار، والتلال المعتمة.

استدار هوفانيس ناحية الولدين طالباً منهما الحذر في الوقت الذي يقترب من الضفة الشرقية، وهو ما لم يتأخر، ذلك أنه وبعد بضع دقائق، وفي اصطدام أخرس، اصطف المركب على طول رصيف الميناء، أعقبه تدافع حقيقي. ذلك أنه ومن دون انتظار أن يرسو بشكل كلي، قفز المسافرون بنفاد صبر إلى زوارق التجسير. كان هناك التجار، والموظفون والعسكريون واليونانيون والألبان ومسافرون قادمون من الأناضول عبر الطريق أو السكة الحديدية، والشراكسة والأكراد، والسوريون والقليل ممن قدموا من أوروبا، والكثير ممن أتوا من آسيا.

احتج آرام بالقول:

- غريب فعلاً هذا الاسم. هل أنت متأكد من أن البوسفور يعني «ممر البقرة».

أكد هوفانيس قائلاً:

- أجل، لقد أخبرتك بذلك. والتعبير قادم من اليونانية «بوس باروس»، وهو مرتبط بأسطورة، وحكاية خرافية.

- ماذا تقول الحكاية؟

- إنه وفي أزمان غابرة، كان الإله زيوس والإلهة لو يعيشان أياماً سعيدة، فقررت هيرا زوجة زيوس الغاضبة من عدم إخلاصه، إذ كان

يخونها دوماً، أن تزيل السحابة التي كان يختفي فيها العاشقان، ولما لحظ زيوس أن أمرهما سيكشف قام بتحويل عشيقته إلى عجلة جميلة.

- عجلة؟

- أجل. أعلم أنه أمر مدهش، لكن وللأسف، ولما كانت هيرا خبيرة أيضاً بالحيل، فقد فرضت على زوجها أن يهديها هذه الدابة الرائعة. ولم يكن بمقدور زيوس إلا أن يوافق على ذلك. وهكذا قامت هيرا بتسليم لو المسكينة إلى أحد أقربائها وهو الحارس آرغوس. وكان آرغوس يملك مئة عين لا تغلق إلا خمسون منها عندما ينام.

صاح آرام مرتعباً:

- مئة عين!

ذكرته شوشان بتعال:

- هذه أسطورة.

- ثم؟

- طلب زيوس من ابنه هيرمس أن ينقذ الأسيرة من سجانها. وكان هيرمس شغوفاً بالعزف على ناي من ذهب. وهكذا نجح في أن يغلق عيون آرغوس عيناً بعد عين، فقتله وأعتق الأسيرة. لكن وللأسف، ومع أن لو غدت حرة إلا أنها لم تستطع أن تستمتع بحريتها طويلاً، ذلك أن هيرا أرسلت لها نعرة متوحشة، فالتصقت الحشرة بخاصرتها جاعلة العجلة مهتاجة، وهو ما جعلها تتيه للأسف وعلى امتداد أشهر في اليونان كلها، وواصلت عدوها المجنون حتى بلغت هذه المنطقة واجتازت هذا المضيق الذي عبرناه لتونا «ممر البقرة»، بوس باروس، وبالتركية يقال له بواز أي الحلق.

- وماذا حل بلو؟

ردت شوشان:

- وماذا يهم في ذلك؟ ما دام الأمر متعلق هنا بأسطورة.

احتج الفتى قائلاً:

- ذاكرتك قصيرة، ولا تحتفظين بشيء!

- ماذا تقصد؟

رفع آرام عينيه باتجاه عمه، ثم قال:

- ألم توصينا قبل مدة قائلاً «إذا أردت الاستمرار في الحلم، وكان عليك أن تختار ما بين الأسطورة والحقيقة، إختر الأسطورة دوماً». أليست هذه كلماتك أيها العم هوفانيس؟

أدخل يده في جيبه، وأخرج منه حجرة سوداء صغيرة أخذ يشير إليها قائلاً:

- هل تذكر؟ إنه اليوم الذي وجدت فيه أولتي تازي هذه؟

ابتسم هوفانيس ثم قالت:

- هل احتفظت بها؟ إنها كلماتي بالفعل. قصدت لو مصر، حيث استعادت شكل الإنسان الذي كان لها من قبل، ووضعت مولوداً. هل أنت راض الآن أيها البارون آرام.

وأوقف عربة.

- إصعدا! هكذا سنسرع فلم يتبق لي الكثير من الوقت على موعدي.

صرخ في السائس:

- غالاطا! كنيسة سان سوفور.

سأل الولدين:

- إذاً هل أنتما سعيدان بمقامكما؟

- سعيدان!

- هذا صحيح.

- منحتنا هدية رائعة عندما سمحت لنا بمرافقتك. لم أتوقع أبداً أن القسطنطينية بهذا الجمال.

أضاف آرام مدققاً:

- كبيرة جداً على الخصوص!

همس هوفانيس:

- يعوزها فقط سلام القلب.

صححت شوشان قائلة:

- السلام بكل بساطة. ألسنا من الآن فصاعداً في حرب؟

- أجل، للأسف.

- هل سيُستدعى والدي؟

- كلا، فالمدرسون معفيون، إضافة إلى أنه تجاوز السن المطلوب مثلي تماماً. فأمر التعبئة يهم الرجال ما بين العشرين والأربعين.

كان هناك صمت لوقت قصير قبل أن تهمس شوشان:

- وسوغومون؟

- ابن هاغوب تيليريان؟ لقد رحل للدراسة في ألمانيا. على كل حال، إنه صغير السن.

اعتصموا بالصمت، ذلك أن الولدين كانا يلتهمان بعيون منبهرة كل تفاصيل المدينة حتى بلغوا أمام بناية يعلوها صليب صغير، وكانت بجدران بيضاء ناصعة، لأجل ذلك، كانت تذكر بالكنائس اليونانية.

وترجلوا عن العربة.

أوصاهما هوفانيس قائلاً:

- انتظراني هنا، لن أتأخر.

وولج من تحت سقيفة الكنيسة.

في الداخل، جعلت الشموع الموقدة صدر الكنيسة أشبه بدغل حام، وكان المكان خالياً إلا من امرأتين تقدم بهما العمر، وكانتا تضعان رداءين أسودين. كانتا جاثيتين على ركبتيهما أمام الهيكل، وفي تماوج

الظل والنور، صعد هوفانيس خفية جناح الكنيسة وصولاً إلى سكريستا. وما إن وصل أمام الباب حتى طرقه طرقتين خاطفتين، وانتظر بضع ثوان حتى فتح مزلاج الباب.

كانت القاعة مؤثثة ببعض الأثاث، ومركع من القش، ودولاب زجاجي وضعت به الأواني المقدسة، وأدوات الزينة الكهنوتية.

قال البطريرك زافين مرحباً:

- مرحباً بك أيها البارون طوماسيان. كنا في انتظارك.

عدل القسيس من الساغافارت[٤٣] التي تغطي رأسه، وأشار إلى الرجال المجتمعين، وكانوا حوالى عشرة قائلاً:

- أظن أنك تعرف الجميع هنا؟

وبالفعل، فما كان ليتيه عن أي واحد ممن ينتمون إلى المجلس السياسي للدشناك، كما أنهم كانوا يعلمون جميعاً من يكون هوفانيس. فقد كان دوماً، وبالنسبة لأغلبهم، حتى الشباب منهم، بطل الهجوم على البنك العثماني، ومن تجرأ على تحدي عبدالحميد وزبانيته. قام بحركة ودية إلى فارتكيس سيرانغيليان وكريكور زوراب. ولم يكن غائباً إلا آرمن غارو، ذلك أنه كان يتعين عليه السفر إلى فان لملاقاة رجال أعمال أمريكيين، وكان يأمل أن يوافقوا على تمويل سكة حديد تربط القسطنطينية بإرزروم وفان. فمنذ أشهر، جعل من مشروعه هذا المسمى شيستر حلمه الأكبر، بل هوسه.

دعا البطريرك هوفانيس إلى أخذ مكان، ونظر إلى ساعة حائط قديمة مثبتة على الجدار، وكانت تشير إلى العاشرة وخمس وأربعين دقيقة، ثم قال:

- لم يعد لدينا الكثير من الوقت يا إخواني. فالشخصيات التي

---

(٤٣) رأسية دائرية. الأصل.

ننتظرها لن تتأخر في الوصول لذا سأقصد الغاية مباشرة. انقضت ثلاثة أشهر على مؤتمرنا بإرزروم. ثلاثة أشهر كانت مركز أحداث مأساوية، سببها الشيطان بلا شك... ومرة أخرى، نسي الناس أن لا أحد يخرج منتصراً من الحرب أو من الموت.

وفجأة عبرت مسحة حزن عينيه، وهو يقول:

- قذفت القوات البحرية المشتركة الإنجليزية الفرنسية حصون الدردنيل رداً على قذف السواحل الروسية من قبل أسطول السلطان. تركيا في الحرب منذ ثمانية أيام. لقد فهمتم جيداً أني لم أغير رأيي. ففي مؤتمر إرزروم، دافعت مثل غالبيتكم عن فكرة واحدة، والتي تقضي بأن يكون المجتمع الأرمني وفياً حيث يؤدي كل فرد فيه واجباته العسكرية، ويجدد إخلاصه للوطن العثماني، وقد طمأننا زعماء الاتحاد عن طريق صديقنا بيدروس هالادجيان بأن كل أرمني سيوفي بواجبه المدني، وأن لا أحد سيتخلف عن النداء. بالمقابل، حصلنا على تأكيد بأن الحكومة ستبدي الكثير من الحرص اتجاهنا. من أجل هذا...

لوح البطريرك بورقة كانت بيده طوال هذا الوقت وهو يضيف:

- حررت هذا النص الذي سيوزع في كل ربوع البلد، ولدى السلطات المختصة، وسأضعه تحت رهن موافقتكم، وأجرؤ على الاعتقاد بأنكم ستوافقون عليه.

عدل نظارتيه، وأخذ يقرأ بصوت واضح:

- لم يتمكن بلدنا للأسف الشديد من أن يتجنب الحرب العامة التي اندلعت بين القوى العظمى الأوروبية. ولما دعت الحكومة الإمبراطورية إلى التعبئة العامة فإنها وضعت الوحدات العسكرية تحت السلاح لتكون مستعدة لكل طارئ. وعلى امتداد الأشهر الثلاثة الأخيرة، أوضحت كل البرقيات والرسائل التي وردت إلينا من كل جهات الأقاليم أن شعبنا، وتماشياً مع نداء الوطن، ودعوات الحرب،

وتوجيهات الحكومة، إضافة إلى طلبات الأموال لتلبية مختلف حاجات الجيش والحكومة، قدم مساهمته بمحض إرادته بشكل يؤكد إلى اليوم أن الأمة الأرمنية تعتبر جزءاً لا يمكن فصله عن الوطن العثماني، ذلك أنها مستعدة لكل تضحية لتبرهن كما يجب إخلاصها ووطنيتها. إضافة إلى ذلك، نؤمن عن طريق رسالتنا هذه، بجلب انتباه كبار أساقفتنا جميعاً، و كل معاوني الرؤساء، وكل القساوسة والشخصيات الرسمية إلى النقاط التالية:

١ - أن يحثوا شعبنا في الكنائس، في كل المناسبات سواء بطريقة شفاهية أو كتابية، ودون توقف على أن يستمروا وكما قاموا بواجباتهم منذ قرون تجاه الوطن العثماني، في تحملها بكل تفان، وخاصة في هذه الأيام حيث البلد في حاجة لهم.

٢ - أن يلبي شعبنا كل نداءات الوطن المقدمة باسم الحكومة، بكل إرادة، ومن الضروري حثه على أنه وإضافة إلى مساهمته المادية التي نحن متأكدون من أنه لن يدخر شيئاً في سبيل ذلك، حتى حياته، على الرغم من أنه غير معتاد على الحياة العسكرية عندما يحتاج الوطن إليه.

٣ - من واجب المدن المهمة والمؤسسات الرسمية خاصة، تخفيف الآلام الملازمة لحالة الحرب، وعليه، فمن الواجب تنظيم هيئات خيرية، وتدعيم الموجودة منها، وذلك باستدعاء إحسان ووطنية الشعب حتى تتم تلبية حاجيات عائلات الجنود المعبئين التي لم يعد لها من معيل، وتخفيف معاناة العائلات المعوزة واليتامى. ونحن على يقين من أنه عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، سيقدم الشعب الدليل على تعاطفه، وسيجعل نفسه رهن إشارة مؤسساته الرسمية الساهرة على راحة الجنود وخاصة المرضى منهم والجرحى وذلك بالتطوع للعمل في المستشفيات. وعندما يقتضي الأمر، سيستقبل أفراد الشعب بطبيعة

الحال في بيوتهم، إخوانهم المسيحيين والمسلمين على السواء. وليس من الضروري التركيز على أنه وفي أعمال التعاطف، لا يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار الانتماءات الدينية أو الوطنية ما دام الجميع أبناء وطن واحد.

٤ - نوصي بصفة خاصة إخواننا الأساقفة، وكل المؤسسات الرسمية بأن ينشئوا علاقات متناغمة مع الإدارات المحلية للحكومة، وبأن يقدموا لهم المساعدة في جهودهم، وبأن يزودوا المصالح المختصة بملاحظاتهم المتعلقة بكل التصرفات المخالفة للقوانين للبعض بكل ود، وبأن يعربوا عن أسفهم على تصرفات مماثلة.

٥ - ونوصي أيضاً بصفة خاصة كل أساقفتنا، وبالنظر إلى الظروف الدقيقة الحالية، بأن يراقبوا كل تصرفاتهم، فلا يقولوا شيئاً أو يُقدِموا على شيء إلا بكثير من الحذر.

فليبعد سلام الرب كل حزن عن وطننا وشعبنا، وليحفظه من كل خطر، وليعم سلامه على العالم، وليمنحنا جميعاً راحة الحياة الأبدية.

توقيع بطريرك أرمن تركيا، رئيس الأساقفة زافين.

بعد لحظة صمت، قال القس:

- أتطلع إلى ملاحظاتكم.

كان هاغوب تيليريان أول من تدخّل، إذ قال:

- شخصياً يا صاحب القداسة، لا يمكنني إلا أن أعبر عن قبولي بمضمون رسالتكم، فلها فضل أنها واضحة لا لُبس بها. أتمنى فقط أن تعترف بها على هذا الأساس لجنة الاتحاد والتنمية.

وافق صوت هامس محيياً ملاحظة تيليريان.

أضاف كريكور زوراب قائلاً:

- وألمانيا أيضاً. فتأثيرهم سيؤخذ بالحسبان.

هز البطريرك رأسه علامة المخالفة، ثم قال:

- ليس هذا هو الموضوع. فالأمر هنا يتعلق بعلاقاتنا المستقبلية مع الباب العالي.

- في هذه الحالة يا مونسينيور، اسمحوا لي أن أعرب عن بعض القلق. فإبان مؤتمر إرزروم، استقبلنا وفداً من الأتراك الشباب. وقابلنا ما عرضوه حينها برفض قاطع. ألم يكن ذلك تصرفاً أخرق؟

- لم يكن ما طلبه الوفد واقعياً. لقد رغبوا في أن تثير الدشناك ثورة من قبل أرمن روسيا، حتى تيسر دخول الجيوش العثمانية فيما وراء القوقاز، وهو عمل سخيف بقدر ما هو مستحيل التحقيق.

- ربما، لكن وفي المقابل وعدوا بأنه ما إن تنتهي الحرب، حتى تقام دولة مستقلة تضم أرمن روسيا والعديد من ولايات إرزروم وفان وبيتليس.

- لأنك تعتقد يا صديقي بأنهم سيفون بوعودهم؟ ما هي الضمانات التي قدموها لنا؟ ولا واحدة للأسف. وما كان بإمكاننا القبول.

وافق فارتكيس سيرانغيليان بالقول:

- مونسينيور محق. في الحقيقة، لقد كان مقترحهم هدية مسمومة. والسيّئ في الأمر أنه يمكنهم استغلال رفضنا واستخدامه كذريعة.

رفع البطريرك ذراعيه، وتركهما يسقطان:

- سنرى، إذاً...

قاطعته بضع طرقات على الباب، فأمر أحد الأعضاء قائلاً:

- هلا تفضلتم يا رستم بفتح الباب؟ لقد حضر الأشخاص الذين ننتظرهم.

وعلى خلاف المتوقع، لم يكونوا أشخاصاً بل شخصاً واحداً ظهر

من خلف الباب. كان رجلاً أربعينياً، بقامة متوسطة، وبوجه كلوم خشن. وكان يرتدي بذلة رمادية، مفتوحة على صدرة باللون نفسه حيث يمكن رؤية سلسلة ساعة جيبية. وكان يحمل طربوشه في يده، ومن دون شك أنه نزعه عند دخوله الكنيسة.

قال البطريرك متعجباً:

- كافيد باي؟ أين الآخرين؟

- لم يستطيعوا الحضور.

أدرك الكاهن في صوت محدثه الكثير من التردد، فسأل:

- لم يستطيعوا الحضور؟

تجنب التركي الرد على السؤال إذ قال:

- لن أستطيع البقاء طويلاً، جئت فقط لأخبركم بأن ابن ديانتكم أوسكان مارديكيان وزير البريد قدم استقالته صباح هذا اليوم عند الساعة الثامنة. ومن الآن فصاعداً، ليس هناك من ممثل أرمني داخل الحكومة.

أخذ نفساً ثم أردف:

- وأخبركم أيضاً بأني قدمت استقالتي ولم أعد وزيراً للمالية، فبعض المسيرين الذين أخذوا قرار الدخول في الحرب أثناء اجتماع مجلس الوزراء لا يستحقون أن يُخدموا. وهناك ما يشغل البال أكثر...

معتذراً، تقدم من النافذة، وأزاح الستارة قبل أن يقول:

- لقد بدأوا.

سأل زافين فاقداً صبره:

- ما الذي يحدث يا كافيد باي؟

- لقد دعا العلماء بإيعاز من السلطان إلى الجهاد[٤٤]، وقد خرج

(٤٤) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

الآن أول المتظاهرين إلى مركز العاصمة. وبرأيي، ليس هناك إلى الآن ما يدعو إلى القلق، فمن الواضح أنهم ليسوا إلا بعض الكومبارس ممن سُلموا بعض القروش، ولكنها البداية.

شحب وجه هوفانيس.

فكر في شوشان وآرام، وتمنى أن يبقيا عاقلين أمام فناء الكنيسة.

دار الوزير السابق على عقبيه، ثم قال:

- أنا حزين، فقد تمنيت أنه بوصول حزبي إلى السلطة ستغير تركيا وجهها.

تدخّل تاليريان قائلاً:

- نحن أيضاً وثقنا بالاتحاد.

واستظهر بتفاصح قائلاً:

- «كلنا إخوة! ليس هناك في تركيا بلغاريون أو يونان أو صرب أو رومان أو مسلمون أو يهود أو مسيحيون! ليس هناك إلا عثمانيون»! من منا يمكنه نسيان كلمات أنفر التي ألقاها في سالونيك؟

انطلق صوت مذكراً:

- لم تمر سوى ست سنوات، وعند إطلاق دعوة من طلبة المدرسة العسكرية، اجتاحت الحشود المقبرة الأرمنية بفيركوي ليجثوا أمام الجثوة حيث دفنت جثث ضحايا مذابح سنة ١٨٩٦، وبعد خمسة أيام كنا نحن من يمشي على نغمات المسيرة الوطنية ونشيد الحرية إلى حدائق تقسيم حيث توالت الخطابات الداعية إلى أخوة الشعب، وكأن شيئاً من هذا لم يحدث.

تدخّل كافيد باي بالقول:

- هذا صحيح. كل شيء كان واضحاً جداً. لقد فشلوا في كل شيء.

انحنى التركي أمام المجموعة الصغيرة قبل أن يقول:

- السلام عليكم أيها السادة. كنت أتمنى أن أحمل لكم أخباراً سارة، لكن للأسف...

سأل صوت بإلحاح:

- لحظة من فضلكم يا كافيد باي. ما الذي تنصحوننا بفعله؟

أحنى التركي رأسه، كما لو أنه يقر بعجزه، وهو يقول:

- إشتروا عمامات بيضاء، واحتفظوا بها في جيوبكم، وإذا ما أحسستم بأنكم موضع تهديد أخرجوها، ولفوها حول طرابيشكم واصرخوا «نحن مسلمون!»

رف جفن من سأل ذاهلاً من الإجابة.

- مستحيل! هل أنكر إخواني أرمن ساسون إيمانهم عندما ذُبحوا؟

رفع ميميت كافيد كتفيه، ثم قال:

- في هذه الحالة، اشترِ سلاحاً.

- سلاح؟ هذا جنون. إذا ما قتلت أحد المعتدين عليّ سيفتكون بكل أهلي. كلا، أختار في النهاية ترك أمري إلى الرب.

- الرب؟

- أجل، الرب رحيم.

ردد كافيد وهو يزيح بحركة صغيرة خيطاً وهمياً بثنية سترته:

- رحيم، بطبيعة الحال.

ثم قال وكأنه يناجي نفسه قاصداً الباب:

- العالم كله يسبح في الدم، والرب رحيم.... أجل.

ما إن خرج كافيد حتى غمغم هوفانيس ببضع كلمات اعتذار ليخرج. مذهولاً، انحدر من الممشى المركزي ليتوقف عند باب الكنيسة. تفحص بناظريه الشارع. لم تكن هناك شوشان أو آرام على

الرغم من أنهما وعدا بأن يبقيا هنالك! عض شفتيه بقوة. لماذا استسلم؟ لماذا قبل أن يحضرهما معه في هذه الرحلة؟

وصلت أصوات من الشوارع المجاورة، تعرف فيها على كلمتي كفار والله[45].

رفع ناظريه. كان برج غالاطا يحجب أشعة الشمس. متردداً نزل الدرجات، ذاهباً للبحث عنهما. ماذا لو أنهما عادا في الوقت نفسه إلى الكنيسة؟

ونزل بضع درجات إضافية.

كاد يصدمه حامل ماء.

في طرف الشارع، كان المتظاهرون يشكلون كتلة قاتمة. لا شك في أن عددهم حوالى مئة. غالبيتهم تحمل أعلاماً تركية، في حين حمل آخرون عصابات قطنية برزت بها الحروف العربية لـ«**الجهاد في سبيل الله**[46]».

عدت امرأة مذعورة، لتنكمش جوار هوفانيس تحت السقيفة.

همست المرأة قائلة باليونانية:

- باناغيامو.

ولما كانت ترتعد فقد حاول طمأنتها قائلاً:

- لا تقلقي، فزعيقهم أكبر من شرهم.

قامت برسم صليب على صدرها خفية قبل أن تسأل:

- أرمني؟

تساءل أنّى لها معرفة كونه أرمني.

أكد لها ذاك، فعادت لتقول:

---

(٤٥) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.
(٤٦) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

- هل تعلم ماذا أخبرتني جارتي الأسبوع الماضي؟ ما إن ينتصروا حتى يذبحوكم كلكم حتى آخر واحد منكم. وبعدها سيأتي الدور علينا نحن اليونان.

فتح فمه محاولاً قول شيء غير أن صوت شوشان القريبة أخرسه إذ قالت:

- العم هوفانيس!

- بحق الرب! أين ذهبتما؟

- هناك...

كان آرام يشير إلى نافورة في زاوية الشارع. انفجر هوفانيس مهدداً:

- مع أني أوصيتكما بألا تبتعدا.

وافقت المرأة اليونانية قائلة:

- والدكما محقّ. عليكما البقاء جواره.

وبإبهامها رسمت صليباً على جبهة آرام، ثمّ على جبهة شوشان قبل أن تبتعد منصرفة.

كانت المظاهرة قد أوشكت على إدراكهم، فأمر هوفانيس بصوت أبح:

- تعالا! ولا تتركا يديّ.

هل كانت الشمس هي ما بعث حرارة ملتهبة أم هي الخشية ما منح هوفانيس شعور الاحتراق في صدره؟

زعق صوت قائلاً:

- لا إله إلا الله[٤٧]!

ورد صوت آخر عليه:

---

(٤٧) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

- محمد رسول الله[٤٨]!

صارت خطوات هوفانيس أكثر اتساعاً.

ضربت حجارة لا يعلم أحد من أين أتت، كتف آرام الذي صرخ ألماً.

صرخت شوشان:

- لقد جنّوا!

- أسرعا! أسرعا!

كان الطفلان يجدان صعوبة كبيرة في تعقب خطوات الراشد. كان العالم يهمس حولهم، والضوء ينزلق، وأجساد ترتعد خوفاً، وريح آتية من الشرق جهة البحر تضرب البيوت. حتى الأشجار تفحمت بشكل مخيف. فكر هوفانيس قائلاً:

- كلا، إنها أوهام.

وطرد هذه الصور الشبحية.

أين المفر؟

تأوه آرام قائلاً:

- أنا خائف.

طمأنته شوشان.

تدحرجت حجرة ثانية أمام أقدامهم، ثم ثالثة.

والآن عوضت شعارات محرضة على التظاهر بالآيات القرآنية.

كان يظهر على امتداد الشارع الكتلة القاتمة لرستم بازاهاني، الخان القديم، وعلى اليمين بناية ذات طابع براق حيث يكن رؤية علم بنجمة يخفق على قمة سارية، وجنديي حراسة.

صاح هوفانيس:

---

(٤٨) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

- نجونا! هيا ابذلا مجهوداً.

كان العسكريان قد شهرا سلاحيهما.

صرخ هوفانيس:

- لا تطلقا النار!

غير أن التحذير لم يكن مجدياً، ذلك أن الرجلين أمسكا بزمام الأمور، وهكذا فقد أطلق أحدهما النار في اتجاه السماء، في حين فتح الآخر الباب، دافعاً الثلاثي والطفلين أولاً إلى داخل المبنى.

ساحة ونافورة، وجهنمية[٤٩] تغطي جزءاً من الجدار، وظل، ونداوة، والكثير من العلامات المطمئنة.

ارتمى آرام في أحضان أخته. كانت كتفه دامية.

وفي الخارج، عاد الصمت، ولم يعد يسمع إلا صوت بعيد جداً.

- أفندي؟

ظهر رجل ستيني في الساحة، ثم سأل بلكنة تركية فظيعة:

- ماذا حدث معكم؟

رد هوفانيس بالإنجليزية، وبلكنة فظيعة أيضاً:

- إسمي هوفانيس طوماسيان. أنا أرمني.

ثم قدم شوشان وآرام قائلاً:

- ابنة أخي، وابن أخي.

وأضاف مشيراً إلى كتف آرام:

- يجب معالجته.

تفحصهم الرجل من أخمص أقدامهم حتى رؤوسهم ثم قال:

- لماذا كان يلاحقكم أولئك الرجال؟

---

(٤٩) جَهَنَّمِيّة: نبات شجري يُزرع للزينة في المنازل والحدائق. المترجم

- لا أعرف. أو لأقل بأني أعرف. أجل، هذا الصباح دعا العلماء إلى الجهاد[١٤٩]، وهكذا...

- أفهم... هل تعلمون أين أنتم؟

- حسبت أني تعرفت على العلم الأمريكي. لا بد أنها السفارة.

- هذا صحيح.

ومد الرجل يداً حازمة إلى هوفانيس مقدماً نفسه بالقول:

- أدعى هنري مورجونطو. أنا السفير.

(١٤٩أ) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

١٠

القسطنطينية، إقامة سفير الولايات المتحدة الأمريكية،
١٤ تشرين الثاني ١٩١٤، التاسعة صباحاً

استدار آرام وأخذ يفحص ضمادة كتفه أمام المرآة التي تزين غرفة النوم. اقترب، وجعل ينظر إلى شعره الأشبه بجناح غراب، وأنفه بطاقتيه الواسعتين قليلاً، وحدقتيه السمراوين المنقطتين بالسواد، ثم تراجع قليلاً منحنياً ومميلاً رأسه إلى الجانب:

- هذا غريب. هذه المرة الأولى التي أراني فيها بشكل كامل.

- وهل يعجبك شكلك؟

- لم أتوقع أبداً أني طويل القامة بهذا الشكل. في البيت لم أر دوماً إلا نصفي.

استدار جهة السرير مردفاً:

- السفير إنسان طيب، لم أكن أتصور أن ينالنا بكرمه.

- لقد قام بأكثر من هذا، فقد أنقذ حياتنا. ما أزال أتساءل لماذا أراد أولئك الناس قتلنا مع أننا لم نفعل لهم شيئاً.

- لا أعلم. لم أخف طوال حياتي مثل هذه المرة.

تمطت شوشان كقطة، ثم قالت:

- يعجبني هذا السرير بشكل مثير. إنه كبير.

- هذا طبيعي، إنه سرير أمريكي.
- أمريكي أم غير أمريكي، سأحصل يوماً على سرير مشابه.
- في هذه الحالة، عليك أن تحصلي على زوج ثري! لا شك في أن سريراً مماثلاً يكلف ثروة.
- أتزوج؟ أبداً!
استلقى آرام بدوره، وهمس لها في أذنها:
- حتى من سوغومون؟
انتصبت كما لو أنها تلقت عضة قائلة:
- سوغومون؟
- سوغومون. لا تظني أني لم ألحظ الطريقة التي تنظرين بها إليه.
- وماذا في ذلك؟ أنا أنظر إليه بالطريقة عينها التي أنظر بها إلى الجميع.
رد وكأنه وجد ضالته رافعاً سبابته:
- كلا، تنظرين إلى سوغومون بالقلب.
- أنت مجنون...
ثم قفزت تاركة السرير قائلة:
- أتضور جوعاً. لا شك أنهم أعدّوا الإفطار.

كانت غرفة الطعام أكثر إثارة من السرير، غير أنها كانت كبيرة، بجدران عالية مغطاة بطنافس ومائدة من خشب البلوط تستطيع أن تستضيف حولها حوالى عشرين مدعوّاً. وفي السقف علقت ثريا من كريستال بوهيميا.
قالت شوشان محدثة نفسها: (غرفة طعام أمريكية).
كان عمها والسفير غارقين في الحديث.

أعلن هوفانيس:
- باري لويس!! وأخيراً استفقتما!
أشار لهما مورجونطو قائلاً:
- تعالا يا ابناي. إجلسا. سيُقدَم لكما طعام الإفطار.
حمل الدبلوماسي ناقوساً فضياً صغيراً، أخذ يقرعه بتحريكه، ثم قال:
- ماذا تشربان؟ قهوة أم شاياً؟
رد هوفانيس:
- شاياً. إذا كان هذا ممكناً بطبيعة الحال.
- بطبيعة الحال.
ردد مورجونطو إلى كبير الخدم الذي دخل الغرفة:
- أحضر شاياً لهذين الشابين.
ثم سأل:
- أفترض أن ابنيك لا يتحدثان الإنجليزية.
- كلا.
وصحح هوفانيس بطريقة مؤدبة:
- يتعلق الأمر بابنَي أخي.
- آه! أنا آسف. لم أتذكر. الذاكرة! هذا ليس جيداً بالنسبة إلى محام سابق!
شرب آخر جرعة من فنجانه، ثم واصل:
- هكذا إذاً، أنت برلماني وعضو في الفيدرالية الثورية الأرمنية.
- أجل، الدشناك.
- هذا مثير للاهتمام، أعتقد أنكم حوالى عشرين شخصاً في البرلمان، أليس كذلك؟
- أربعة عشر بالتحديد.

- على المرء أن يتمنى أن يبقوكم هناك، فمع كل ما يحاك، أخشى أن تحدث الكثير من التقلبات. أبدى الباشوات استخفافاً كبيراً بدخولهم الحرب إلى جانب ألمانيا، وعندما أرى كيف يتعامل المبعوث العسكري للقيصر، الجنرال فون ساندرز الذي تسلم قيادة الجيش التركي لا يسعني إلا أن أتصور أن الأمور ستزداد سوءاً.

سكب لنفسه القهوة، مع قطعتي سكر في فنجانه قبل أن يواصل:

- تصور أني وبتاريخ الثامن عشر من شباط قدمت أول عشاء رسمي. وكان الجنرال من بين المدعوين، وكان يجلس إلى المائدة إلى جوار ابنتي روث التي لم تقضِ أمسية طيبة لأن الرجل العزيز، المسجون داخل زيه العسكري وصدره المملوء بالأوسمة، لم يقل كلمة واحدة طوال العشاء. فقد أكل عابساً، ولم تفلح كل محاولات ابنتي بفتح باب الحديث معه، إلا بأن تنتزع منه بين فينة وأخرى، بعض الكلمات المبتورة. وبعد العشاء، جاء إليّ فون أونتيوس القائم بالأعمال الألماني متأثراً، وخاطبني قائلاً: لقد ارتكبت خطأ جسيماً سيدي السفير. فسألته معتقداً أني قمت بشيء لا يجوز: ما هو؟ فقال: لقد أحرجتم الجنرال فون ساندرز بمنحه مكاناً في صف أدنى من الوزراء الأجانب. فهو الممثل الشخصي للقيصر، وما دام كذلك، كان يتعين أن يعامل مثل السفراء. وهكذا فقد ألحقت العار بالقيصر نفسه! كان هذا التفسير على السلوك الفظ لفون ساندرز. أما مواطنه البارون فون فانجنهايم فلم يبد بمثل براعته.

- البارون فون فانجنهايم؟

- سفير ألمانيا. كانت بضع دقائق من الحديث كافية لأتعرف جيداً على شخصية الرجل. هو من نوع الرجال الذين يعتبرون أن الناس ينتمون إلى أحد صنفين: الحكام أو المحكومين.

زفر مورجونطو رافعاً عينيه إلى السماء، ثم قال:

- لعلكم تفهمون الآن لماذا اعتقد أنه وبمثل حلفاء مماثلين لا يمكن للأمور إلا أن تسير إلى الأسوأ بالنسبة للأتراك؟ فلا طلعت، ولا أنفر ولا جمال باشا استطاعوا فهم الهدف الحقيقي الذي تسعى إليه ألمانيا والذي هو الاستيلاء على الأمم البلقانية، وتحويل تركيا إلى تابع.

- أخشى أن تتمكن من ذلك.

- على عكس ذلك تماماً، أنا على يقين من أن قوات الحلف الثلاثي ستخسر هذه الحرب. هؤلاء الباشوات غارقون في الانحلال والإخلال بالواجب، ويكفي فقط الاطلاع على طريقة عيش أنفر للتأكد من ذلك، وأنا شاهد على ما أقول.

رفع هوفانيس حاجبيه، متفاجئاً. فعاد الدبلوماسي للقول:

- تماماً! فقبل حوالى شهرين سرت أخبار بأن الحكومة التركية عازمة على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية. هل تفهم ما أرمي إليه؟ هو نظام يمكن لكل الأمم، بما في ذلك الولايات المتحدة، بأن تتوفر على محاكمها الخاصة وسجونها التابعة لقنصلياتها لمحاكمة ومعاقبة الجرائم التي يرتكبها مواطنوها على التراب التركي. حتى المدارس ليست خاضعة للتشريع التركي، ولكن للبلد الذي يتعهدها.

تدخّل هوفانيس قائلاً:

- أقر بأنه نظام ظالم. فالبلد الذي يحرم من وسائل التشريع لتطبيق القانون يصير مجرد...

- أجل، أجل. أفهم ما تود قوله. لكنه موضوع نقاش آخر. كنا نتحدث عن أنفر، وطريقته في العيش. قبل شهرين إذاً، وعندما بلغتني هذه الشائعة، طلبت لقاءه، فرد عليّ بأنه يفضل أن أذهب لزيارته، ليس في وزارة الحرب لأنه كان يلازم فراشه نتيجة لعملية جراحية بسيطة بسبب تعفن أحد أصابع رجليه. وهكذا سنحت لي الفرصة لأرى الرجل وسط أسرته، ولأرى درجة رفعته. له بيت في أحد أكثر الأحياء سكنية

في المدينة. تمت مرافقتي حتى غرفة جميلة حيث كان يرقد أنفر على كنبة، واضعاً مئزراً حريرياً طويلاً. وكان يحمل كماناً بيده. وكانت الغرفة مؤثثة بشكل جيد، وتضم، وهذه نقطة مفاجئة، منصة وضع عليها كرسي مذهب. لقد كان العرش الزواجي لزوجة أنفر الإمبراطورية. أنت تعلم طبعاً بأنه تزوج من قريبة السلطان. وأمام هذا العرض الباذخ، طرحت على نفسي السؤال الذي تطرحه القسطنطينية: من أين يحصل أنفر على المال الذي يلزم لمثل هذا البذخ؟ فهو لا يملك ثروة شخصية، فوالداه بائسان علناً، وراتبه كوزير في الحكومة لا يفوق الثمانية آلاف دولار، وزوجته تتلقى تعويضاً متواضعاً عن كونها أميرة إمبراطورية، ومع ذلك فهو يحظى بنمط حياة يلزم له عائدات أكبر. وإذاً؟

قُطع حديثهما بوصول شابة هيفاء، بجديلة شعر ملتفة خلف رأسها. اعتذرت بالقول وهي تدخل قاعة الطعام:

- إعذروني يا صاحب السعادة، لكنكم طلبتم مني إحضار الجريدة فور تسلمها.

سلمت الجريدة إلى مورجونطو، وانسحبت بهدوء كما دخلت.

أوضح الدبلوماسي، وهو يضع نظارتيه:

- جريدة تركيا. جسم صحفي رسمي، وصوت لجنة الاتحاد والتنمية.

ألقى نظرة بصمت على الصفحة الأولى. صدرت عنه زفرة قبل أن يشرع في القول:

- هذا واضح. الآن يمكن فهم الاعتداء الذي تعرضتم له في الأمس. سأقرأ بعض المقاطع:

- «أذهلت الحكومة الطاغية التي ترفع شعار الوفاق من قبل الشعوب المسلمة بالهند وآسيا الوسطى ومعظم البلاد الأفريقية التي

حصلت على استقلالها السياسي، وعلى حكومتها وحتى على حريتها. فمنذ أكثر من نصف قرن، تفقدنا أثمن أجزاء الإمبراطورية العثمانية (. . .)، وبتشجيع وحماية جيراننا، فقد كانت سبباً مادياً ومعنوياً في تدمير مئات الآلاف من المسلمين الأبرياء، إذ اغتصبت الآلاف من العذارى المسلمات، وتم تدنيس مقدسات الإسلام بشكل متعصب، وازدادت الأمور تعقيداً بتحويل العالم كله إلى ساحة حرب (. . .) ومن المحتم أن أولئك الذي يضطهدون الدين الإسلامي سيكونون إن عاجلاً أو آجلاً ضحايا للغضب السماوي الذي سيفتك بهم مادياً ومعنوياً. وهكذا، فقد اعتبر خادم المدينتين المقدستين، وخليفة المسلمين، وأمير المؤمنين أن من واجبه أن يدعو الشعب المسلم إلى الحرب المقدسة:

«أيا أمة محمد!

أيها الشعب المسلم!

فكما هو الوعد الإلهي، كل من يضحي من أجل الحق سيحقق المجد والسعادة هنا والجنة في السماء (. . .) ففي يومنا هذا، حيث دولتنا في حرب ضد روسيا وفرنسا وإنجلترا وحلفائهم، أعداء الإسلام الأبديين، يدعوكم أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين إلى الحرب المقدسة!»

باستخفاف ألقى مورجونطو الجريدة على المائدة معلقاً:

- وهكذا، فقد تم إطلاق الدعوة إلى الجريمة!

عقد هوفانيس حاجبيه، وبدا القلق في عينيه، ثم سأل:

- من وقع؟

- اثنا عشر عالماً. . . من بينهم حسين كامل رئيس مجلس الدراسات اللاهوتية.

وعمّ الصمت بينهما، قبل أن يقطعه هوفانيس قائلاً:

- أفترض أن هذه الأنباء لن تغير شيئاً من عزيمة رئيسكم. فأمريكا ستبقى على الحياد.

بحركة من شفتيه، أبدى مورجونطو ارتيابه قائلاً:

- الصراحة هو أن السؤال ليس إن كانت أمريكا ستدخل الحرب أم لا، ولكن متى! ولسون رجل سلم معروف، مثلي تماماً. غير أن للسلم حدوداً، ينبغي الحذر عندما يوشك أن يتحول إلى وهم ساذج.

صمت قليلاً قبل أن يقول بتأثر:

- هذا يشبه قليلاً أناس مجتمعكم، يا سيد طوماسيان.

ظل هوفانيس صامتاً، فأضاف مورجونطو قائلاً:

- أجل، أخشى أن تكون وأصدقاءك غارقين في هذا الوهم الساذج الذي ذكرته لتوّي. من المحتمل جداً أنك لست على اطلاع بعد بأن الحكومة التركية أعطت الأمر بطرد كل المفتشين الأوروبيين المكلفين بالسهر على تطبيق الاصلاحات لفائدة أرمن الإمبراطورية العثمانية. كلهم ومن دون استثناء.

- ماذا؟ هل أنتم متأكدون؟

- تماماً، في هذا الوقت بالتحديد يجمعون حقائبهم.

مال الدبلوماسي برأسه قليلاً، قبل أن يواصل:

- أنا أنتمي إلى عائلة مهاجرين يهود ألمان، وأعلم ما يعني الانتماء إلى أقلية. فالأقلية دوماً هي كبش فداء طرف ما، وإذا ما نحت الأحداث منحى سلبياً للأتراك، ستكون أنت وبنو جلدتك معنيين يا سيد طوماسيان.

- كبش فداء؟ لماذا بحق الشيطان يلزم أن يكون هناك كبش فداء؟

- لأنه حين يعجز بعض الأشخاص أن يقوموا بعمل مباشر تجاه مصدر كبتهم، يحولون عدوانيتهم إلى هدف أسهل أو يمكن اختراقه.

وليبرروا هذا الاعتداء يضفون على هذا الهدف سمات سلبية أو غير مرغوب فيها، ثقوا بي فأنا أعرف عمّا أتحدث.

أصاب الشحوب وجه هوفانيس، ثم قال:

- على الرغم من أن الأتراك الشباب...

- الأتراك الشباب؟ إنهم في جيب البشوات الثلاثة. والبشوات الثلاثة في جيب الألمان. فأي شخص قرأ ولو بشكل سطحي الأدب التابع لألمانيا سيدرك الطريقة الخاصة الممجدة إزاء الشعوب المزعجة لألمانيا. إنه الإقصاء والنفي بكل بساطة، وبشكل خالص وبسيط. إبعاد شعوب بأكلمها بالقوة، ونقلها من أقصى طرف في أوروبا إلى أقصى الطرف الآخر. وهي جزء منذ سنوات لمشاريع غزوات ألمانيا. تأمّل كيف دفعوا الأتراك قبل مدة إلى طرد الرعايا اليونان من آسيا الصغرى. أنت تعرف هذا أليس كذلك؟

هز هوفانيس رأسه علامة التأكيد، وهو يقول:

- سمعت عن الأمر.

- إنها حقيقة، فمنذ حوالى شهرين فقط، في سميرنا[٥٠] أدت هذه السياسة إلى طرد كل العمال اليونان العاملين في شركات أجنبية، وتم تعويضهم بعمال مسلمين، وقد عاشت الأمر نفسه «سينجر مانيفاكتشرينغ كومباني» وهي شركة أمريكية، الوضع نفسه.

- ألم تحاولوا أن تعارضوا هذا الوضع؟

- بطبيعة الحال. طلبت أن يستقبلني طلعت، وأعربت له عن احتجاجي القوي، وأخبرته بأنه يثير مشاعر كارثية في الخارج، وبأنه سيحدث تأثيراً على التعاطف الأمريكي.

- وما كان رده عليكم؟

---

(٥٠) إزمير حالياً. المترجم.

- شرع في شرح رؤيته الوطنية بشغف. فبحسبه، كل الأقليات الموجودة داخل البلد تآمرت دوماً على تركيا. وهو السبب الذي أضعف الإمبراطورية العثمانية، وهي توشك على الاندثار. وأوضح قائلاً بالحرف «ولتبقَ هذه الأخيرة موجودة كجزء صغير في بلدنا، علينا التخلص من الشعوب الأجنبية، فتركيا للأتراك».

فجأة ارتفع صوت شوشان التي تابعت حديث الرجلين كاملاً غير منقوص، إذ قالت:

- عمي هوفانيس!

- نعم؟

- ماذا كان مكتوباً في اللافتة التي حملها المتظاهرون؟

- الجهاد في سبيل الله[٥١].

وشرح لها ما عنته العبارة مستعملاً في ترجمته كلمة حرب مقدسة كترجمة للجهاد. فسألته شوشان:

- حرب مقدسة؟ ضد من؟ أفترض أنها ضد أولئك الذين أعلنوا الحرب علينا.

انقضت ثوانٍ قبل أن يرد عليها مؤكداً فعادت للسؤال:

- ولماذا إقحام الله فيها؟

- لأن بعض المسلمين يعتبرون أن لهم الحق في القتل باسم الله بالطريقة نفسها التي يرى فيها المسيحيون أنه من المشروع قطع الرؤوس والتعسف في إلقاء الأبرياء في المحرقة، مع اختلاف واحد فقط، وهو أن المسيحيين قاموا بذلك منذ تسعمئة سنة، ولم تعد هناك محاكم تفتيش منذ مدة طويلة جداً.

- وإذاً؟

---

(٥١) هكذا ورد في الأصل. المترجم.

- إذاً ماذا؟ هكذا يا شوشان، وجد في التاريخ دوماً أغبياء يعاندون في التحقق من الوقت في ساعات معطلة.

استدار ناحية السفير معتذراً عن التحدث بالأرمنية، ليرد الدبلوماسي:

- لا مجال للاعتذار يا سيد طوماسيان، أحسنتم صنعاً بتربية أبنائكم على حب لغتكم، إنها تراثكم. وهو الشيء الوحيد الذي يبقى لدى المرء عندما يفقد كل شيء.

خفض فجأة من نبرة صوته، وهو يقول بشكل حزين:

- إحذروا من أن تصير قبركم.

وزارة الحرب، في الوقت نفسه

كانت السماء تمطر بغزارة. لم تعرف أبداً ذاكرة ابن اسطنبول فيضاناً مماثلا. كان بالكاد يمكن رؤية البناية الرسمية، وهي نسخة مشوشة للشونبرون[٥٢]، والتي أضيف إليها بشكل غريب قوس النصر، من خلف أعمدة من الماء.

في الطابق الثاني، وفي قاعة الاجتماعات التي أحال دخان السجائر أجواءها ضبابية. توقف أنفر باشا أمام خريطة كبيرة لتركيا، ووضع كف يده على منطقة الأناضول.

- إرزروم! سنرحل عن إرزروم. أليس عزت باشا من يقود اللواء الثالث؟

أكد أحد الضباط، فعاد للقول:

---

(٥٢) قلعة نمساوية شكلت علامة فارقة في فن العمارة والثقافة. المترجم.

- حسن. فليجعل الجنود على أهبة الاستعداد، ولينتظروا أوامري، وأعلموه بأني سأحل بعين المكان في الأيام القادمة.

ثم عاد ليجلس وسط المسؤولين العسكريين المجتمعين مكتملي العدد، وقبالة جمال باشا الذي كان ينقر بعناية سبحته الوردية اللون، مخفياً عصبيته. ما إن جلس أنفر حتى بادره وزير البحرية بسؤال، إذ قال:

- ألم يتغير شيء في المخطط الذي سلمتك إياه؟

- بكل تأكيد، لقد صادق طلعت على تعيينك حاكماً لسورية.

بدا أن الجواب أراح جمال الذي رد على الفور قائلاً:

- في هذه الحالة، سأرحل إلى دمشق نهاية هذا الأسبوع، وما إن أصل حتى أنظم كما تم الترتيب لذلك، الحملة لطرد الإنجليز من مصر بمساعدة العقيد فون كريسنشتاين. كم يلزمني من رجل؟

- ثمانون ألفاً. أرى أنه عدد كاف جداً.

ابتسم جمال برضى مردداً:

- جداً.

وعمّ الصمت فترة قصيرة، قبل أن يميل أنفر جهة الحاكم العسكري للمدينة العقيد سوفاد سائلاً إياه:

- هل نقلت تعليمات وزير الداخلية بخصوص الملف الآخر؟

- أجل يا صاحب السعادة، لقد تم إخبار الولاة، وسيتم تنفيذ الأوامر حرفياً.

لمعت عينا أنفر.

لماذا عاد إلى بال العقيد سوفاد ما كان قد فكر فيه قبل أربعة أشهر؟

سيتمكن السلطان عبدالحميد من الرقص في سجنه الذهبي لقصر بيلرباي.

١١

إرزروم، ١٠ كانون الأول ١٩١٤

جعل الطرق المتكرر على الباب فاهي يقفز من مكانه. كان جالساً قرب المدفأة، فألقى نظرة على ساعته. كانت الساعة تشير إلى السادسة! من تراه يكون هذا المستهتر!

عاد الطرق مجدداً.

شيء لا يصدق! سيوقظ الجميع!

وضع الرجل المتقدم في السن فنجان القهوة الذي كان يستعد ليشربه على طرف الطاولة، وضم إليه الغطاء الغليظ، وقام ليفتح الباب.

ألفى غريباً يقف عكس النور في بذلة سوداء. كان مستقيماً في وقفته، صلباً بوجه هزيل تحت طربوش حريري على شكل بلوطة. كان يحمل في يده اليمنى حقيبة جلدية بالية، وكانت سوداء هي أيضاً. وعند رؤيته، أول ما خطر لصاحب السبعين سنة أن الرجل «محصل الضرائب».

- طوماسيان أفندي؟

- أنا فاهي طوماسيان.

- أقدم نفسي. مصطفى كافيسي. هل يمكنني الدخول؟

كافيسي؟ كافيتي؟ إسم غريب بالنسبة لموظف في المالية.

- هل تعرفون كم الساعة الآن؟

- إنها الأوامر.

- هل لديكم الأوامر بأن توقظوا الناس النائمين؟

إبتسم الرجل.

- لديكم روح الدعابة يا أفندي. هل يمكنني الدخول؟

- لا مجال للإلحاح! عودوا فيما بعد، عندما أكون قد شربت قهوتي ويكون الجميع قد استيقظوا.

- مستحيل، أنتم آخر من على لائحتي، وعليّ أن أكون في إرزاندجان عند حلول المساء.

- قلت لك فيما بعد! بالمناسبة، ماذا تريد؟

تغير سلوك الزائر دفعة واحدة، إذ أخذ يفتش في حقيبته ليخرج ورقة قدمها لفاهي بطريقة واضحة.

- ما هذا؟

- هذا مرسوم من وزير داخلية بلدنا، صاحب السعادة طلعت باشا.

- لا أحمل نظارتي، ماذا فيه؟

- كل المواطنين الأرمن للولاية، ملزمون بتسليم جوازات سفرهم؟

- تذكراتنا[٥٣]؟ هل تعلمون ماذا يعني هذا؟ لن نتمكن من التحرك في السندجاك[٥٤]، أو في البلد!

- أو خارج البلد. أجل أعرف القانون.

---

(٥٣) هكذا ورد في الأصل. المترجم.

(٥٤) الناحية، قسم من الولاية. الأصل.

- القانون! القانون! أي قانون يسمح بمنعنا من الانتقال حيثما نريد؟ هه؟ أجيبوني!

وكرّد على السؤال، ألح الرجل بالقول:

- هل يمكنني الدخول؟ لأنكم لستم وحدكم المعنيين فقط، هناك أيضاً ابنكم وزوجته.

صاح فاهي:

- اذهبوا إلى الجحيم!

كان على وشك دفع الدخيل عندما صعد أربعة أشخاص، كانوا حتى ذلك الوقت مختفين، ودفعوا الرجل المسن بلامبالاة داخل البيت. كانوا مسلحين ببنادق موزير.

- أنتم! ماذا يحدث هنا؟

كان آشود بشعر رأسه الأشعث قد دخل حين سمع الصيحات مسرعاً إلى الغرفة.

شرح فاهي قائلاً:

- يريدون سجننا في مدينتنا!

احتج الموظف بنبرة معسلة قائلاً:

- طوماسيان أفندي غضب من لا شيء. لا أحد يريد أن يصيبكم بسوء أو حتى أن يسجنكم.

تأمل آشود قامته، ثم قال:

- أنا أسمعكم.

وكما فعل الرجل قبل لحظات، أشهر المرسوم في وجه آشود:

- تذكراتكم. أمر من وزير الداخلية. عليكم تسليم تذكراتكم.

ثم سارع بسؤاله:

- هل أنتم آشود طوماسيان؟

أجاب آشود بالموافقة، فأردف الموظف قائلاً:

- حسن. ستعاد لكم جوازاتكم فيما بعد.

- فيما بعد؟

- عندما تنتهي الحرب.

- اشرحوا لي.

- ألستم معفيين من الخدمة العسكرية؟ أنتم بسبب وظيفتكم كمعلم، و...

أشار إلى فاهي بذقنه مضيفاً:

- ووالدكم لأنه تعدى سن القتال؟

- ما علاقة ذلك بتذكراتنا؟

- يمنع على المواطنين المعفيين أن يتجولوا، من باب الأمن. وهكذا يمكن للسلطات المعنية أن تسهر على حمايتهم. هل تفهمون؟

سأل فاهي ساخراً:

- كل المواطنين؟ قلتم قبل قليل «المواطنين الأرمن».

أغلق الموظف عينيه بأسى مصطنع، ثم قال:

- أرجوكم، لا تعقّدوا مهمتي. انها الحرب للأسف، حتى المواطنون الأجانب ملزمون بالتقيد بإكراهات، و...

- مواطنون أجانب؟ هل تقارنوننا بالمواطنين الأجانب. أنتم؟ أنتم؟ في الوقت الذي كان فيه أجدادنا يعيشون على هذه الأرض، ويشيدون الممالك، لم يكن أجدادكم إلا يساريع في خصيات البدو! نحن مواطنون أجانب؟

أمسك آشود والده من كتفيه، وحاول السيطرة على ارتعاد أطرافه، ثم حدثه قائلاً:

- آبريغ. أتوسل إليك. هونتار غيتسر. إهدأ. أرجوك!

ارتفع صوت الموظف مجدداً، وكان أكثر عزماً:

- هيا! كل هذا سخيف. أنتم لا ترغبون في أن نستعمل القوة، أليس كذلك؟ سيكون ذلك مؤسفاً!

ثم خفض من نبرة صوته قليلاً، وهو يردف:

- خاصة من أجل الولدين. أليس لديكم طفلان يا أفندي؟

بدا كأنه سيقفز حين قال:

- انظروا! إنهما هنا! ليباركهما الله[٥٥]. إنهما رائعان.

التفت آشود ليلمح شوشان وآرام وقد التحقا بهم بعيون ناعسة، وآنا أيضاً أخرجت من سريرها أيضاً، وقد أصيبت بالرعب عند رؤيتها للجنود.

- آشود؟ ماذا يحدث؟

- يطلب هذا السيد أن نسلمه جوازات سفرنا.

همس الموظف وهو يهز رأسه عدة مرات:

- مؤقتاً. مؤقتاً.

رفع آشود يده ناحية الأشخاص الأربعة الواقفين في أحد الأركان، ثم سأل:

- من هؤلاء؟ إنهم لا يرتدون زي الجيش أو الدرك. من هم؟

وكردّ على آشود، ركز الموظف ناظريه عليه لكن بقسوة.

- تذكراتكم، أفندي.

بعد صمت بدا طويلاً، قصد آشود خزانة جلب منها ثلاث وثائق سلمها إلى الرجل.

صاح فاهي غضباً:

---

(٥٥) هكذا ورد في الأصل. المترجم.

- لماذا تفعل هذا؟ لا يملكون الحق!

- لا عليك يا آبريغ. هذا غير مهم.

حياهم الموظف بأن لامس بيده قلبه وفمه ثم جبهته، ثم قال بنبرة متصنعة:

- أشكركم. فليكن الله معكم! وأكرر مرة أخرى، مؤقتاً. كل هذه الهموم مؤقتة.

خرج وفي أعقابه الرجال.

عاد فاهي ليقول:

- ما سبب استسلامك؟ أخبرني!

- لم يكن لديّ الخيار، وأنت تعلم ذلك.

- لدينا دوماً الخيار.

أخذت آنا على عاتقها الإجابة نيابة عن زوجها، إذ قالت:

- اعذروني يا أبي. ما كان لآشود أن يفعل غير هذا. رأيتم هؤلاء الرجال، ما العمل أمام البنادق؟

خانعاً، ترك الرجل المسن جسده يهوي على كرسي قريب، وبسرعة لحقت به شوشان وهي تقول:

- لا بأس يا ميدز بابا. فبعد كل شيء. ما تلك الوثائق إلا مجرد أوراق.

- أوراق؟ لا يا شوشان دجيان[٥٦]، ليست مجرد أوراق، بل هي حقنا. الحق في الوجود. الحق في الحرية. الحق في أن نعامل كمواطنين مثل الباقين.

---

(٥٦) يا روحي. الأصل.

أشار إلى آرام ليقترب منه، وضم الولدين إلى صدره. وبصوت خافت بالكاد يُسمع قال:

- أين آرتافازد؟ أين هو؟ متى سيفصل روابطه، وروابطكم؟ متى سيخرج من ظلمته وعتمات أرواحكم؟ متى سيخرج؟ أين هو؟ أين آرتافازدي أنا؟

هل تألقت الدموع كجواهر في عيني الرجل المسن المتعبتين، أم أن انعكاس سماء إرزروم الماطرة هو الذي أعطى هذا الانطباع؟ بكل تأكيد هي السماء الماطرة.

أحست آنا بقشعريرة، فقالت:

- الجو بارد. شهر كانون الأول هذا ينذر بأنه سيكون قارساً.

رفعت عينيها إلى زوجها مضيفة:

- تريد أن أجلب تيزيك[٥٧] من المرآب؟

- كلا. سأذهب أنا.

أخذت آنا فنجان القهوة الذي تركه فاهي قبل ذلك. كان الحزن ينبعث من قسمات وجهها والخوف أيضاً.

- سأحضر لك فنجاناً آخر، سأحضره ساخناً.

لم تبدر عنه أية ردة فعل.

سألت شوشان برقة:

- من كان آرتافازد يا ميدز بابا؟

- كان ملكاً. أحد أكبر ملوكنا. حكم عليه بأن يظل مقيداً في كهف بالجبل المقدس أرارات. عليه أن يتحرر يوماً من قيوده لينقذ شعبنا.

---

(٥٧) نوع من التربة المضغوطة التي تستخدم عادة كوقود. الأصل.

أضاف بصوت رقيق:

- ليس مستعداً للعودة، لأن. . .

قاطعه آرام:

- اسمعا! اسمعا!

كانت جلبة بعيدة قد صدرت في مكان ما في مداخل المدينة، وأخذت ترتفع شيئاً فشيئاً. كان مزيجاً من الدعس والصهيل والصلصلة.

سارع الفتى إلى الشرفة قائلاً:

- تعالوا! انظروا! تعالوا انظروا!

كانت تهتز في السهل وعند أقدام القصر البيزنطي، أمواج من البنادق والزي العسكري الموحد كاكي اللون، وخوذات من دون مقدماتها. وفي الخلف، يمكن تبين وحدات الخيالة، وأبعد منهم المدفعجيون الذين يتميزون عن الباقين بقبعاتهم المصنوعة من جلد الحملان، زينت بنسيج أخضر.

رسمت آنا إشارة الصليب ثم قالت:

- هذا الجيش التركي كله جُمع هنا!

بذعر قال فاهي:

- الجيش التركي؟

قصد الشرفة، ورسم الصليب على صدره أيضاً، قائلاً:

- آسدفادزيم! يا إلهي!

- لكن. . . لماذا؟ ماذا يفعلون في إرزروم؟

- نحن قرب الحدود يا آيريغ. ومن جورجيا بالتحديد، ومثل الحرب الماضية، يمكن الافتراض بأن القوات الروسية توجد بهذه المنطقة.

صاحت شوشان:

- انظروا! ذاك الرجل هناك! لكأنه القائد.

صحح صوت:

- هو أكثر من قائد.

كان آسيم تيرزيوغلو الذي لم يسمعه أحد حين دخوله.

كرر صاعداً الدرجات:

- أجل، هو أكثر من قائد. ألا تعرفونه؟ انظروا إليه جيداً.

كان الرجل بمظهر لائق جداً فوق مطيته. كان بمعطف طويل، وشريطة محاكة بأخيط ذهبية وفضية، وسروال أزرق فاتح، وحذاء طويل أصفر، بحميلة وحزام أبيضين. كان رقيق العظم، بوجه أملس إلا من شارب دقيق لف من جانبيه، وكانت لمسة الرجولة الوحيدة على وجهه الأنثوي.

أصر الضابطية عندما سأل:

- إذاً؟ ألم تتعرفوا عليه بعد؟

وعلى الرغم من محاولاتهم، لم يستطع أي فرد من العائلة وضع اسم لهذا الشخص.

تخلى آسيم عن الأمر إذ أعلن:

- صاحب السعادة إسماعيل أنفر باشا!

صاح آشود:

- وزير الحربية؟ ما الذي يفعله هنا؟

رفع الضابطية كتفيه، قائلاً:

- هو هنا للتفتيش من دون شك. هذه الجلبة أيقظتني. أما الرجل الممتطي حصاناً إلى جواره، فهو الجنرال عزت باشا.

أعلنت آنا:

- سأذهب لإعداد القهوة، وأقترح عليكم أن تدخلوا.

أشارت بيدها إلى السماء مضيفة:
- ستمطر.
ثم توجهت بحديثها إلى الدركي قائلة:
- قهوة لك أيضاً يا آسيم، أليس كذلك؟
- بكل سرور يا هانم.
أخذ فاهي مكاناً قرب المدفأة، وقال متفحصاً التركي بسخرية:
- هل يمكن أن تخبرني أين كان «الضابطية الأعلى رتبة في كل الولاية، صباح هذا اليوم عند الساعة السادسة؟
- في بيته. في سريره. لماذا؟
استعان الرجل المسن بآشود إذ قال:
- أخبره!
- جاءنا مبعوث من وزير الداخلية، وأخذ منا جوازات سفرنا.
- جوازات سفركم؟ ما سبب ذلك؟
- مرسوم. لكن أغرب ما في الأمر، هو أن الموظف لم يكن مرفوقاً بجنود أو بدرك، ولكن بمدنيين مسلحين.
أخذ التركي يفكر لحظة قبل أن يعلن قائلاً:
- الآن فهمت. فقبل أيام، اقتحم بعض الرجال مركز الدرك. كانوا حوالى عشرة. كشف اثنان منهما عن هويتيهما. وهكذا فقد عرف الأول نفسه كمساعد لقنصل ألمانيا، وكان باسم يصعب نقطه، شيء مثل أوبرريشتر[58]. أما الآخر فكان يدعى بهاء الدين شكير. وهو طبيب. وهو شخص غريب فعلاً. لم أحب عينيه. عينان صغيرتان

(58) ماكس شوبنر ريختر. سيشارك فيما بعد في ميونيخ في التاسع من شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٢٣ في الهجوم على معمل الجعة والذي سيصاب فيه بشكل مميت حين كان إلى جوار أدولف هتلر. وباستقباله للرصاصة التي كانت ستقضي على الديكتاتور القادم، قام من دون علمه بتغيير منحى التاريخ. الأصل.

متطفلتان تريدان السوء بك. ولم أحب أيضاً شعره المدهون، كما لم أحب شاربه الكث الذي يمتد حتى خديه. أعلن لي فجأة أنه يحمل أمراً بأن يُصادر جزءاً من مركزنا من أجل الاستقرار به هو والضابط الألماني وفريقه.

- فريقه؟

- هذه هي الكلمة التي استعملها. فريق. والواضح أنه بدا عليّ التردد، لأنه سارع إلى وضع أمر وُقع من قبل طلعت باشا شخصياً أمام عيني.

سأل آشود:

- هل شرح أسباب هذه المصادرة؟

- كلا. وأنا لم أسأله شيئاً. ثقوا بي عندما أقول لكم إنه ليس من نوعية الناس التي تُسأل. ولكن وعندما تتحدثون لي عن مدنيين مسلحين، أتساءل إن كانوا من ضمن هذا الفريق، وهناك شيء آخر، فبعد يوم التقيت بهدايات صاخباً وكأنه وقع على وصفة سحرية.

- هدايات الصيدلاني؟

- أجل. تصوروا أنه أعلن لي بالقول حرفياً «لقد تشرفت مدينتنا! هل رأيت من أتى للاستقرار بمسكن الوالي تحسين باي؟» وعندما بقيت حائراً في ما يقول، واصل حديثه قائلاً: «الدكتور بهاء الدين شكيرا» أجبته بالقول: نعم تعرفت عليه بالأمس، وبعد؟ ما المهم في الرجل؟ فأخذ هدايات يشرح لي بأنه عرف الدكتور شكير في المدرسة العسكرية للطب في الوقت الذي كان يشغل فيه منصب أستاذ الطب الشرعي، ودائماً بحسب هدايات، فشكير أضحى من المساعدين المقربين جداً من طلعت باشا، وهو هنا في مهمة خاصة.

رفع آشود حاجبيه.

وأعلنت آنا بالقول:

- القهوة!

رفعت الجيزفي، وهو وعاء نحاسي صغير مزود بمقبض طويل، فسكبت القهوة في الفناجين وقدمتها على التوالي إلى كل من فاهي وآسيم ثم آشود.

واصل الأخير حديثه بالقول:

- هل قلت «مهمة خاصة»؟

- هذا ما قاله هدايات.

مسح فاهي جبهته، ثم قال بحيرة:

- هناك شيء ما يتم الإعداد له، لكن ما هو؟

قال آسيم ساخراً:

- من دون شك أننا لن نعرفه.

غمغم آشود:

- بالأحرى سنعرفه، لكن عندما يكون الوقت قد فات.

استدار إلى النافذة، وبقي صامتاً حتى وضعت آنا يدها على كتفه قائلة:

- تبدو قلقاً فجأة.

- وكيف لي ألا أكون كذلك؟ حرمونا من جوازات سفرنا، والآن، هذا الجيش، وهذان الشخصان الغريبان، الدكتور شكير والقنصل الألماني. كل هذا ينبئني بأن لا شيء يسير بشكل جيد. أتساءل إذا لم يكن علينا أن...

قاطع نفسه بشكل قطعي.

- أين هما الطفلان؟ سيتأخران عن المدرسة!

مررت آنا يدها على جبهتها، ذلك أنها لما انخرطا في الحديث لم ينتبه أحدهما للأمر.

افترض فاهي قائلاً:

- لا شك أنهما في ساحة الكنيسة كما هي العادة.

قالت آنا:

- سأذهب إلى هناك!

في الوقت الذي تجاوزت فيه العتبة، أبرقت السماء ليدوي الرعد. وبدأت زخات المطر تتساقط على إرزروم.

١٢

مختفية وراء جدار صغير، استمرت شوشان مفتونة تراقب أنفر باشا بالإعجاب المرضي للفريسة أمام المفترس.

ولما كانت عاجزة عن إشاحة ناظريها عن الوزير، فقد تجاهلت الماء الذي غمر وجهها، وبقيت هنالك، بلا حركة كالمخدرة.

جرها آرام من كم قميصها قائلاً:

- هيا، فلنذهب. سنتأخر عن المدرسة.

- فقط للحظة. أ...

- هه، أنتما هناك!

ترنح الصبيان في الوقت نفسه. كان عسكريان قد قبضا عليهما. أَمَرَ أكبرهما سناً بالقول:

- اتبعانا!

برقت السماء مجدداً، أعقب ذلك دوي رعد.

- تحركا!

قال آرام متأتئاً:

- نحن... نحن لم نقم بسوء. نحن...

- قلت تحركا!

ولما كانا ما يزالان مترددين، فقد هوى الجندي بمؤخرة بندقيته على كلية الفتى.

ثارت شوشان غاضبة:

- لا تلمسه!

- أصمتي! تحركي!

سارا حوالى عشرة أمتار، حتى رأوا العناصر الأولى للواء العسكري بين المسجد والعمدية.

انطلق صوت ساخر قائلاً:

- ماذا تجلب لنا هنا؟ أسيران روسيان؟

رد أحد الجنديين بالقول:

- كانا يتجسسان.

احتجت شوشان بالقول:

- أبداً! هذا غير صحيح!

اقترب عسكري يبدو أنه أعلى رتبة، ودار ببطء حول الفتاة ملتهماً جسدها بعينيه، ثم قال:

- لا بأس بها. أرمني؟

هزت رأسها قائلة:

- أرمنية.

- أنت جميلة. كم عمرك؟

لاذت بالصمت.

عاد ليشرع في دورة جديدة لكنه ضيق الدائرة هذه المرة. وفي لحظة، مرر يده في حركة أولى أرادها غير مؤذية، فلامست خصرها ثم في حركة ثانية تحولت إلى وركيها قبل أن تنزل إلى أسفل ظهرها.

وهكذا مر كل شيء سريعاً.

صرخت محاولة نشب أظافرها في خدي الرجل:

- شان زافانيرا إبن كلب!

- هه! إنها مجنونة!

انطلقت حولهم ضحكات ماجنة.

أمر الجندي قائلاً:

- كفى! وإلا...

كان قد شل حركة قبضتي شوشان ممسكاً بهما بصلابة.

- دعني!

قال آرام متوسلاً:

- غي بافي! كفى! سيقتلوننا.

اختلطت الضحكات بدويّ الرعد.

أجبر الجندي شوشان على الانحناء. وعلى الرغم من كل محاولاتها، فقد خرّت ركبتاها، وجثت على ركبتيها من دون أن تكف عن مقاومتها. هددها العسكري قائلاً:

- ستهدئين، وإلا سأجعلك تلعنين يوم ولادتك!

قال آرام مناشداً:

- شوشان... أرجوك!

لكن هل سمعته؟ ذلك أن العسكري المتميز غضباً صفعها بظهر يده، ما جعلها تترنح إلى الخلف. وعندما حاولت أن تقف على رجليها، ضربها مجدداً لكن هذه المرة بباطن كفه.

قال آرام راجياً:

- إنك تؤلمها.

دوى صوت بالجوار قائلاً:

- هذا يكفي!

وفي جلبة حوافر الخيل، ظهر حصان أشقر نحاسي. انتظرت شوشان اللحظة التي سيدوسها فيها غير أن المطية وقفت أمام وجهها تماماً، فقفز الفارس أرضاً.

في البداية، كانت الفتاة مواجهة لحذاء طويل أصفر، وأسفل

سروال أزرق فاتح. ولم تكتشف المعطف الأسود والشرائط المنسوجة بخيوط الذهب والفضة إلا عندما ساعدها على القيام.

- اقبلي اعتذاري، بايان[٥٩]. هؤلاء الناس يجهلون كل شيء عن المعاملة بلطف. إنهم عديمو التربية، وبدو.

أنفر باشا.

غاص بعينيه في عيني شوشان. عينان باردتان لا يمكن اختراقهما.

صراخ؟ من أين ينبعث هذا الصراخ؟ نحيب استرحام وتأوهات قدت من الجحيم، من جحيم الجحيم؟ هذه الأجساد الزاحفة المتوسلة، وهذا الدم. من أين يتدفق هذا الدم؟ هذه الأودية الأرجوانية، وهذه الأنهار التي تجرف جثث القتلى، وبطون النساء المبقورة؟ والشمس؟ شمس تسقط باتجاه الأفق وتغرق في صحراء بلاقرار. وها هو الحيوان القذر. عنكبوت ضخمة لكنها بأنياب ابن آوى. إنها تبصق وتتقيأ. وتصيح «إسمي آي يلضز! نجمة القمر!»

وضعت شوشان وجهها بين يديها، وأخذت تنتحب.

سألها أنفر مستغرباً:

- ماذا بك؟

وكردّ على سؤاله، أخذت أخاها من ذراعه، قائلة:

- تعالَ يا آرام، تعالَ، فلنذهب...

أراد جندي الوقوف في طريقهما غير أن نائب قائد القوات المسلحة أوقفه بحركة من يده قائلاً:

- دعهما!

---

(٥٩) آنستي. الأصل.

أُضيئت مصابيح الكيروزين.

مررت آنا يدها برفق على خد شوشان المتفخ، قائلة:

- لن يبقى منها شيء غداً.

ووجهت نظرة امتنان إلى الصيدلي الذي ما إن أُخبر بالحادث حتى أصر على أن يحضر لهم مرهماً أعده بنفسه.

وكان يجلس عند أقصى الطاولة القس بيدروس دير أغوبيان الذي قدم هو أيضاً لكن من دون زوجه عايدة. وحضور القس كان استثنائياً ودليلاً على خطورة الوضع. والواقع أنه كان من النادر جداً أن يُرى تاركاً بيته أو كنيسته إلا عندما يتم استدعاؤه ليقف على سرير محتضر، مع أن وضعه كقس متزوج لا يسمح له بالقيام بالقداسات. ولما كان حبه مقسماً بين حب الله وحب زوجه، فقد فَقَدَ كل أمل في تسلق الدرجات في تراتبية الكنيسة، مجبراً على البقاء طوال حياته حيث هو، قس بسيط في الخورنية[٦٠].

وكان آسيم الجالس بين آشود وفاهي بوجه كئيب، ذلك أن وجبة آنا مع أنها لذيذة، وأنوش أبور[٦١] التي تشم منها رائحة القرفة وماء الورد لم تنجحا في جعله يسترخي.

أكد بصوت حزين:

- أعتقد أنكم تعون جيداً بأن ما وقع مقلق جداً. الاعتداء على طفلة؟ هذا غير مقبول!

ارتفع صوته أكثر، وضرب الطاولة بقبضة يده مضيفاً:

- أبلغت الأمر إلى قائدي!

تدخّل آشود قائلاً:

---

(٦٠) قرية يخدمها الكاهن وتسمى أيضاً كنيسة الخورنية. المترجم.

(٦١) تحلية تعد من فواكه جافة. الأصل.

- اهدأ! ستوقظ آرام. بالكاد نام الآن.

اعتذر الضابطية بفتور.

سأل القس:

- وما كان رد قائدك؟

أحنى آسيم رأسه لإخفاء تبرّمه، ثم قال:

- كلب حي أفضل من أسد ميت.

- ماذا يقصد؟

- ليس من مصلحتي إثارة الأمر، إلا إذا أصابني الجنون، فلا أحد يجرؤ على انتقاد الجيش، خاصة في هذا الوقت.

قام آشود وأحضر قنينة نبيذ أحمر، ثم قال:

- من منكم يريد منه؟ هذا خربوت، وأنصحكم به.

ولمفاجأة الجميع، كان آسيم أول من رفع كأسه قائلاً:

- اسكب لي لأشرب يا صديقي.

أمسك هدايات صرخة رعب قائلاً:

- هل فقدت عقلك؟

أبدى الضابطية لامبالاة وهو يقول:

- إذا ما وُجد الجحيم، فهو في قلبي هذه الليلة. ماذا سيغير بعض النبيذ في ذلك إذاً؟ هيا يا آشود! اسكب!

سأل القس:

- كم من الوقت تعتقد أن هذه القوات ستبقى في إرزروم؟

رد آسيم:

- أنى لي معرفة ذلك؟ إما سيتحرك الجيش لملاقاة الروس، وإما سينتظر هنا. وحده أنفر باشا يعرف الجواب. وبالنسبة لي، أرى أن المنطق يقضي بألا يتيه جيشنا في القوقاز.

أكد هدايات:

- هذا صحيح، فالروس خبروا الحرب في فصل الشتاء.

أحس بقشعريرة فأضاف:

- بالمناسبة يا سيد طوماسيان هل يمكنك إضافة بعض التيزيك في المدفأة؟ ستتجمد.

- سأذهب لجلبه من المرآب.

وبينما كان يقصد الباب، قامت شوشان قائلة:

- سأصحبك يا مديز آيريغ.

احتجت آنا:

- لا تقولي إنك جادة. عليك أن ترتاحي.

- أنا بخير يا أمي. أحتاج إلى بعض الهواء.

كان البدر الممتلئ يغادر القمة المسننة لجبل بالاندوكن. وكانت الطريق عند أسفل البيت تفك شريطها الطبشوري الممتد حتى قاع الوادي، حيث يعتقد أن المعسكر هناك. كان الجيش نائماً، وتصورت شوشان بأن أنفر باشا ينام أيضاً. أنفر باشا. لن تنسى وجهه أبداً. أبداً ما دامت حية.

مرر آشود ذراعه حول ابنته، وضمها برفق إليه دون أن يتوقفا عن السير.

- لا تجعليني أخاف عليك مجدداً يا شوشان دجان، أبداً. لا تنسي أنه عندما يصيبك السوء أتألم أيضاً.

- أعتذر. لم أتصور أن الأمور ستحدث هكذا. كنت أود فقط أن أرى الباشا عن قرب.

- لماذا؟ ما فائدة ذلك؟ فليكن باشا إن شاء، لكن في النهاية هو رجل، ليس أكثر.

- ربما، لكن ليس للرجال الآخرين حق تقرير حياة أو موت جيرانهم، بينما هو...

توقفت فجأة، وشدت نفسها إلى آشود، قائلة:

- أنا خائفة...

- خائفة؟ ممَ أنت خائفة؟

- رأيت الدم في عينيه، وجثثاً وعنكبوتاً ضخمة لكنه كان بأنياب إبن آوى. كان ذلك فظيعاً!

مرر يده على شعرها، وحاول إخفاء انزعاجه بأن قال مازحاً:

- يا لخيالك! عنكبوت؟ وبأنياب إبن آوى؟

- أقسم لك يا آيريغ. لقد رأيته. ما الذي سيحدث لنا؟ أخبرني.

- هيا يا شيكريم! أنت في العادة شجاعة. أنت التي تودين أن تصيري ملكاً!

- لأنك لا تعرفني جيداً، فأنا أحب فقط أن أتصور بأني شجاعة، والكل يعتقد أني كذلك.

- هذا خطأ، ذلك أن آرام أخبرني بالطريقة العنيفة التي ارتميت بها على الجندي، وكيف أنك كنت على وشك اقتلاع عينيه. أليست هذه شجاعة منك؟

- كلا، إنها حماقة. أعلم أنه يمكنني أن أصير مجنونة.

قالت هذا بجد إلى حد أنه لم يستطع منع نفسه من الضحك.

- حسن، أنت مجنونة، ولكن تذكري أن هناك دوماً بعض الجنون في الشجاعة. لم أعرف قط أعمالاً بطولية حركها العقل أو الحكمة. هل تتذكرين قصة دافيد ساسون[٦٢]؟ لقد درستها في المدرسة. هل تعتقدين أنه لو كان حكيماً لجرأ على مقاتلة ميسراميلك العنيف المتوحش في مبارزة بينهما؟ أشك في ذلك.

---

(٦٢) تعد ملحمة دافيد ساسون أسطورة مؤسسة للثقافة الأرمنية التي تحكي قصة حرب هذا الشعب ضد ظالميه، ومن المرجح أنها كتبت حوالى القرن الثامن الميلادي. الأصل.

- مع أنه كان مزوداً بسيف لامع، وبصليب الحرب المقدس، وبالأسلحة التي خلفها له والده! زد على ذلك أنه كان يركب الجليلي، ذاك الحصان الخيالي.

- غفلت عن الأهم.

جثا أمامها، وأمسك يدها، وشرع يستظهر:

- أتيت لأطلعك على سر سيمكنك من حمل أسلحة والدك بشكل مناسب. سيقودك المهر الجليلي إلى الجبل الأزرق، حيث سترى عيناً. اشرب من ماء هذه العين. تعمد بمائها ثلاث مرات، وعندها فقط، اذهب لمواجهة ميسراميلك!

بدت حائرة إذ قالت:

- نسيت هذا المقطع.

- مع أنه الأهم. لأنه ومنذ اللحظة التي شرب فيها الشاب من هذه المياه المعجزة، كبر حتى وصل إلى قامتي والده وجده الكبيرتين، وهكذا فقد تضاعفت قوته عشرة أضعاف، وكان مستعداً لمواجهة عدوه.

- ما الذي تود قوله يا أبي؟

- ما يلي: في اليوم الذي تشعرين فيه بأن الخوف تملّكك، عندما تكونين أمام العنكبوت ذات أنياب إبن آوى، تذكري أنه عليك أن تغرفي من دمي ومن دم جدك القوة لمواجهة أعدائك. لا تنسي يا شوشان دجان. عندها لن تهزمي...

القسطنطينية، ٢٠ كانون الأول ١٩١٤، وزارة الداخلية

كان آرمن غارو الجالس قبالة طلعت باشا يتفصد عرقاً، كذلك كان في كل مرة يجتاحه الانفعال أو الغضب.

قال مؤكداً على كلماته:

- هذا أمر لا يمكن غفرانه يا صاحب السعادة! كيف أمكنكم إعطاء أمر مماثل؟ وقف نشر «الدجاغادامار» من دون سبب؟ هي جريدة حزبنا؟

من دون أن يتأثر بما سمعه، رد الباشا سريعاً قائلاً:

- من الواضح أنكم لا تسمعون أو أنكم تتظاهرون بذلك؟ ما دمت قد أخبرتكم بأن الأمر لم يصدر عني ولكن من الكولونيل سوفاد حاكم العاصمة العسكري!

- الذي لم يطلعكم على هذه الخطوة!

- هذا صحيح. لم يكن هناك من سبب ليفعل ذلك.

- لكنه عمل جائر! فهذه الجريدة...

- هذه الجريدة! فلنتحدث عنها! هل تجدون من الطبيعي أن تضع جريدة يومية مثل هذا العنوان المستفز؟ «جبهة القتال»! ألاتعتقدون أنكم وجماعتكم تفقدون بعض التقدير؟ هل تجدون من الطبيعي أن بعض المتطوعين الأرمن عبروا الحدود إلى روسيا ليقاتلوا في صفوف القيصر؟ هل تعلمون أن في هذه اللحظة التي نتحدث فيها، عبروا الحدود وهم يدلّون العدو على المسالك والمعابر والطرقات؟ لقد تجاوزتم الحدود يا غارو أفندي! جداً!

- وعندما صادرتم تذكراتنا، ألم تتجاوزوا الحدود؟ كنا ندعمكم طوال سنوات. سرنا إلى جانبكم عندما لزم الأمر عزل المستبد. وصفقنا للحماسة الجديدة التي زرعتموها في هذه الأمة. ومنذ ست سنوات، ونحن نقدم دليلاً على ليننا النموذجي، وقمنا بكل شيء من أجل أن يسود التناغم بين شعبينا، بينما أنتم تتحفظون جداً لاحترام وعودكم.

احتقن وجه طلعت، وتنفس بعمق، ثم حدق في الأرمني بعينين ملتتا غضباً قائلاً:

- أمنعكم بأن تخاطبوني بهذ النبرة! هذا قذف!

- قذف! ماذا عن الاتفاق الذي وقعناه قبل عشرة أشهر، في الثامن من شباط تحديداً، والذي تعهدتم فيه بتطبيق الإصلاحات المشهودة، والتي كانت ستجعل جريدة إخواني أكثر تقويماً؟ وطلبنا. . .

وأخذ يعد على أصابعه:

- بمبدأ نصف لنصف. نصف الموظفين من الأرمن والنصف الثاني من الأتراك في ولاية إرزروم، وقلتم لا! يمنع دخول المحاسيريون[٦٣] إلى أرمينيا، واكتفيتم بوعد شفاهي. بالمقابل قبلتم بطلبنا الأخير، القاضي بمشاركة المسيحيين في المجالس العامة في المناطق التي يوجد فيها أقليات. وما الذي شاهدناه؟ لا شيء! حتى هذا الامتياز البسيط لم يدخل أبداً حيز التنفيذ.

- أنتم. . .

- وماذا عن طلباتنا الدائمة بخصوص تمثيليتنا في البرلمان؟

لم يدعه الوزير يكمل هذه المرة، إذ قال:

- لقد أجبتكم! فالنواب لم ينتخبوا لتمثيل عرق، لكن لتمثيل كل الأمة العثمانية، وبالتالي لا أجد مسوغاً بأن نمنح للأرمن بطريقة أتوماتيكية عدداً من المقاعد بحسب ديمغرافيتهم!

عاد الصمت بينهما، تبادل الرجلان نظرات مطولة قبل أن يقول آرمن غارو بنبرة جادة:

- سأقول لكم يا صاحب السعادة شيئاً، نزعتكم التركية، التي تسعى إلى جمع كل الشعوب التركية بأي ثمن، ومهما كان أصلها في دولة وأمة واحدة، هذه الإيديولوجية ستقودكم إلى الخسارة.

---

(٦٣) المحاسيريون (بضم الميم) هم أتراك «أصليون» غير المسلمين، يتحدرون في الأصل من البلقان والقوقاز وآسيا الوسطى، استقبلوا في تركيا كلاجئين من أقاليم البلاد التي كان يحكمها نظام إسلامي. الأصل.

أضاف بالنبرة نفسها:

- لقد أفقدتكم السلطة عقولكم! تحسبون أنفسكم نابوليون أو بيسمارك!

هزت ضحكة ساخرة طلعت، وهو يقول:

- بيسمارك؟ لِمَ لا؟

- على خلافكم، لم تفهموا شيئاً من تاريخ هذا البلد. هذا ليس بلداً، بل هو فسيفساء! اليونان، الشراكسة، والعرب، والبلغاريون، والجورجيون، والسوريون، والإيرانيون، والألبان، والمسيحيون، واليهود، والسنة والشيعة والعلويون وما غفلت عنه من الأقوام! عندما تسلتم السلطة، اعتقدنا فعلاً بأنكم لن تسلكوا نهج عبد الحميد نفسه الذي كان مهووساً باتباع نظرة واحدة. التوحيد، التركنة، الأسلمة، وساهمنا في رؤيتكم، ودعمنا نداءاتكم بالانفتاح والأخوة، وما هي النتيجة؟ لقد خنتم أنفسكم، وخنتمونا. تريدون التوحيد؟ هذا جيد، فلنتحدث عن الأكراد، لم يتمكن أي فاتح من احتوائهم إلى يومنا هذا. وإذن؟ ما الذي تنوون فعله من أجل تركنتهم؟ هل تنوون محو كل أثر لهم؟ ونحن؟ معشر الأرمن؟ وإذا ما كانت نيتكم، بعد الشر، أن تجعلونا نختفي أيضاً، اعلموا أننا سنخرج يوماً من قبورنا بدمائنا، بأيتامنا وبأراملنا، وبأجزائنا المبتورة، لكننا سنخرج أحراراً!

شحب وجه طلعت. قام من كرسيه، ثم وضع يديه على مكتبه، وأعلن بصوت بهيم قائلاً:

- للأسف، حان وقت افتراقنا. إلى اللقاء.

وعندما كان يغادر آرمن الحجرة، أدرك أنه لم يعد هناك من لقاء آخر بينهما.

١٣

إرزروم، الثاني من شهر كانون الثاني لسنة ١٩١٥

قال فاهي بمسحة حزن جلية:

- ستحل في القريب رأس السنة[٦٤]. سأخبركم بشيء تافه، لشد ما يمر الوقت سريعاً.

وافقت آنا، وهي تضع الأطباق، والملاعق، والسكاكين، والشوكات في خزانة الأطباق. فأضاف قائلاً:

- أتصور أنك ستعدّين لنا طبقاً من الغاتنابور[٦٥]، الذي تملكين سره؟

- نعم يا أبي، ستحظون بالميزي، وبأوراق شجر العنب، والبوريك والفواكه الجافة وكل شيء! أعدك.

سأل آرام الذي كان غارقاً في قراءة كتاب:

---

(٦٤) يتأخر رأس السنة عند الأرمن بأسبوعين عن رأس السنة لدى الكاثوليك، ذلك أن الكنيسة الأرمنية رفضت الاعتراف بالتقويم الذي وضعه البابا غريغوار الثالث عشر سنة ١٥٨٢، وفضلت الاحتفاظ على السنة اليوليوسية، وهكذا فإن الاحتفال بميلاد المسيح يتم في السادس من كانون الثاني متزامناً في الوقت نفسه مع عيد الغطاس. الأصل.

(٦٥) نوع من الرز باللبن ترش عليها القرفة. الأصل.

- أخبرني يا جدي. هل كتبت رسالتك إلى الغرانت بابا[٦٦]؟

- طبعاً!

حملق الفتى بناظريه.

- لا تخبرني بأنك ما تزال مؤمناً بذلك!

- لأنك لا تعتقد بذلك أنت؟

- لا، ليس منذ الليلة التي فاجأت فيها آيريغ يضع اللعب في شجرة عيد الميلاد.

- أنا أشفق عليك. لم أتصور أنك سهل التأثر. واأسفاه!

- سهل التأثر؟

- طبعاً، ما الذي يثبت أن تلك اللعب لم يأت بها غرانت بابا، وكان والدك يضعها هناك فقط؟ هه؟

- لأني رأيت أبي بلحمه وشحمه، لكني لم أر غرانت بابا. هذا منطقي أليس كذلك؟

ضحك فاهي ضحكة قصيرة ماكرة ثم قال:

- منطقي؟ هل تعلم ما يلزم إنجاح شجرة عيد الميلاد؟ تلزم ثلاثة أشياء، الشجرة بطبيعة الحال، ومزينات جميلة، ولكن ما يلزم أكثر وهو الأهم، الإيمان بأن الأيام التي ستعقب أعياد الميلاد ستكون رائعة. وحالة الروح هذه تدعى إيماناً. والإيمان هو القدرة على رؤية ما لا يُرى. وعندما يُفقد، تُفقد معه سلطة غير عادية، وتصير حينها مثل الجميع. تافه، لأجل هذا قلت إني أشفق عليك.

همّ الفتى بالاحتجاج ذلك أنه فتح فمه محاولاً قول شيء، غير أن فاهي لم يترك الوقت لذلك، ذلك أنه خرج إلى الشرفة مصحوباً بضحكة آنا، غير عابئ بالجو البارد، ومتفحصاً السهل الذي غمرته

---

(٦٦) ما يشبه بابا نويل. الأصل.

الثلوج. فمنذ ثلاثة أيام، لم تعد تظهر الخيام، كذلك الحال بالنسبة للرجال والعربات. لم يعد هناك أي أثر للواء الثالث. فبحسب البعض، فقد أخذ طريقه بقيادة أنفر باشا شخصياً إلى ساريكاميش على بعد حوالى مئة كيلومتر إلى الشمال الشرقي من إرزروم. ومنذ ذلك الحين، تناسلت الشائعات المتضاربة، ذلك أن البعض يؤكد أن الروس قد هُزموا في حين يقول آخرون أن لا شيء من ذلك حدث، وأن وضعية الأتراك في القوقاز حرجة للغاية. والواقع ألا أحد كان يعلم ما يحدث فعلاً، وانقطعت أخبار الشخص الوحيد القادر على مدهم بمعلومات، يمكن تصديقها، وهو هوفانيس، منذ ستة أسابيع عندما عاد إلى القسطنطينية، ودون أن يرسل رسالة أو يصدر أية إشارة حياة، ولم يكن هذا من عادته. بقلق داعب الرجل المسن شاربه. هيا، اهدأ. لقد وعد بأنه سيكون هنا في عيد الميلاد، ليس هناك من سبب لتقلق.

- ستصاب بالبرد يا أبي.

لم يستدر فاهي، ذلك أنه وبحركة من يده دعا آنا لتلحق به. قالت وهي تدنو منه:

- تبدو قلقاً.

- قلقاً؟ كلا. مفكراً فحسب. كنت أتساءل عن صمت هوفانيس.

- مع كل ما يحدث، الاجتماعات والتوترات. أتصور بأنه منشغل جداً. أنا أكيدة أن كل شيء بخير. سيكون بيننا في عيد الميلاد:

- فليسمع الرب نداءك!

غيّر الموضوع قائلاً:

- أما كان على آشود وشوشان أن يكونا قد عادا؟

- من دون شك أنهما وجدا صعوبة أكبر من المتوقع في إيجاد شجرة عيد الميلاد.

ثم أمسكت بذراع فاهي وهي تقول:
- فلندخل يا ميدز بابا. أنا أرتعد.

قدما شوشان تغوصان في الثلج. بدت سعيدة. وما كان الأمر كذلك بالنسبة لآشود، والذي لم يحب أبداً ما يطلق عليه اسم «الطين الأبيض». زد على ذلك أن شجرة الميلاد التي كان يحملها على كتفه، بدأت تثقل كاهله.
- هيا يا آيريغ! تشجع!
وأشارت إلى ممر ضيق رسم على بعد أمتار إلى الأسفل مضيفة:
- كدنا نصل!
- أجل، قريباً. لكن كم هي طويلة «قريباً» هذه!
ووسع خطواته.
حولهما، كانت شدة بياض المنظر تكاد تعمي الأبصار. وكانت القمم المكسوة بالثلوج تختلط بالسحب. وككل فصل شتاء، وعند مواجهة هذا المنظر، كان آشود الذي لم ير أبداً البحر يفكر: وكأنها أمواج متضخمة ملأى بالزبد.
هتفت شوشان التي بلغت الممر قائلة:
- ها قد وصلنا! الآن، سيغدو الأمر أسهل، و...
ثم توقفت كلياً.
تحولت بقية جملتها إلى صرخة رعب مدوية، فسأل آشود قلقاً:
- ماذا هناك؟
تلعثمت مخفية وجهها بيديها قائلة:
- يا إلهي!
ألقى الأب شجرة الميلاد، وركض نحو ابنته.

متجمدة في مكانها، أشارت بإصبعها أمامها مباشرة.

كان رأس، أو بالأحرى، الجزء العلوي لرأس قد برز من بين الثلوج.

أمرها آشود قائلاً:

- لا تنظري! ابتعدي!

وعندما لم تُبدِ أية ردة فعل، سحبها بقوة إلى الخلف.

تأوهت قائلة:

- هذا فظيع. من استطاع فعل شيء كهذا؟

- اسمعيني. ابقي هنا! لا تتجرئي على الاقتراب. هل تعدينني؟

همست «نعم» مرجرجة.

عاد على عقبيه، وجثا بركبتيه أمام الجثة المكتشفة. وبكل حذر، أخذ يزيح الثلج من حول الصدغين والخدين، وسرعان ما أخذه مذاق غثيان مر، صعد حتى وصل شفتيه، فأخذه الدوار. هذه الملامح التي تبدو أمام ناظريه. هذا الوجه الأملس. هذا التعبير الساذج! لقد كانت للآيغ! آيغ ميناسيان. إبن الدباغ. مع أنه من بين أوائل مجندي إرزروم! أخذ آشود الذي امتلكته حالة من الهيجان، يخلص باقي الجثة. كان الرجل بالزي العسكري. ولم تكن هناك إصابة على مستوى صدره، ولاأثر لأي اعتداء. أدار آشود الجثة على بطنها. ومرة أخرى أصابه الغثيان. هكذا إذاً! ففي أسفل رأسه كان يمكن ملاحظة ثقب بحجم قرش.

قام محاولاً استعادة هدوئه. استدار في مواجهة شوشان. وفي هذه المرة، اعتقد بأن قلبه سينط من بين ضلوعه، ذلك أن الفتاة الصغيرة المستندة إلى شجرة، كانت تشير بسبابتها إلى الأرض ناحية اليسار من حيث تقف. كانت هناك يد بأصابع ملتوية تشير إلى السماء.

كانت أردية الغسق تنزلق ببطء على أسطح المنازل.

قال آسيم:

- تسع جثث. كلهم مجندون، وكلهم اغتيلوا برصاصة في الرقبة. لا أفهم. بسم الله الرحمن الرحيم[٦٧]. لا أفهم!

وبطريقة غريبة، لم يصدر عن العمدة تحسين باي أو قائد الدرك سليمان أي تعليق، ذلك أنها المرة الثانية التي أخذ فيها الضابطية يصف مقبرة العظام التي اكتشفها رفقة رجاله عند طرف الهضبة فوق الممر الضيق.

سمح آشود لنفسه بأن يبدي ملاحظة قائلاً:

- وكل الضحايا من الأرمن!

هز العمدة رأسه بشكل ممل.

- هذا محرج يا صديقي. محرج بالفعل. لا أملك إلا أن أفكر في أن الأمر لربما يتعلق بتصفية حسابات، أو بشجار. أنتم تعلمون كيف هم الشباب، و...

- شجار؟ قُتل هؤلاء المساكين جميعهم برصاصة في مؤخرة الرأس!

- أجل، أجل. أخبرتكم بأن الأمر محرج.

وافق قائد الدرك الجالس معزولاً قرب المدفأة، وهي الشيء المتميز بإرزروم، دون أن يزيغ بناظريه عن الشمعدانات الصغيرة المرصوفة على رف جدار حيث خبت جذوة شموع من الودع[٦٨].

سأل آشود بحزم، كان أول المتفاجئين به قبل الآخرين:

- ما الذي تنوون فعله؟

---

(٦٧) هكذا ورد في الأصل. المترجم.

(٦٨) شحم الأمعاء. المترجم.

همَّ تحسين باي بالرد لولا أن وقع أقدام تناهى إلى أسماعهم، فقام من مكانه.

حيّى متعجباً باحترام:

- السلام عليكم!

أما قائد الدرك فقد انتصب في تحية عسكرية، وفعل آسيم بعفوية تامة، الشيء ذاته.

وأمام كل هذه المظاهر، رد الزائر بأن هز يده باسترخاء، وجلس جوار آشود، ثم قال:

- علمت الخبر. أنت المعلم، أليس كذلك؟

لم يجد هذا الشخص ضرورة ليقدم نفسه، لكن لماذا بدا مرتاحاً للغاية؟

كان الضابطية قد شرح من قبل قائلاً:

- هو طبيب، شخص غريب فعلاً. لم أحب عينيه. عينان صغيرتان متطفلتان تريدان السوء بك. ولم أحب أيضاً شعره المدهون، كما لم أحب شاربه الكث الذي يمتد حتى خديه.

إنه هو من دون شك. الرجل الذي وصفه آسيم قبل أيام.

- أنا المعلم، آشود طوماسيان.

- وأنا الدكتور بهاء الدين شكير. المسؤول عن شؤون الأمن بالولاية.

أشعل سيجارة وترك نفسه يجلس على المقعد الذي تركه العمدة شاغراً.

- ما حدث مؤسف، لقد أمرت بفتح تحقيق.

- أشكركم. أنتم واعون بأنه تمت تصفية هؤلاء الشبان.

- تصفيتهم؟ لماذا تستعملون هذه الكلمة؟ أنا أفضل كلمة «قُتلوا».

عقد آشود ذراعيه قائلاً:

- حسن. إذاً أية كلمة ستستخدمونها عندما يموت تسعة عسكريين ينتمون جميعاً إلى اللواء الثالث في الظروف نفسها، واليوم نفسه وبرصاصة في مؤخرة الرأس؟

تجرأ آسيم على القول:

- لم يكن أياً منهم مسلحاً.

ألقى عليه رئيسه نظرة غضب، بيد أن الرجل لم يبال بذلك، إذ أضاف:

- أقول بأن هؤلاء المساكين، كانوا فريسة لقاتل مجنون، لشيطان لن نتأخر في القبض عليه.

- قاتل مجنون لم يجعل له من هدف إلا الأرمن. أليس هذا غريباً؟

- ليس أغرب مما تفترضون أنها تصفية إلا إذا...

- أجل؟ عفواً؟

زفر الطبيب سحابة من الدخان، ثم قال:

- نحن في حالة حرب. يمكن أن يكون هؤلاء الرجال قد حوكموا بكل بساطة من قبل محكمة عسكرية، وأدينوا.

سأل آشود:

- أرمن فقط؟ ما السبب في ذلك؟

ركز بهاء الدين عينيه الصغيرتين الشبيهتين بعيني نمس في عيني آشود، وهو يقول:

- الخيانة يا سيد طوماسيان... الخيانة...

بحث عن مرمدة، ولما لم يجدها ألقى عقب سيجارته أرضاً، وسحقه واقفاً من على كرسيه ثم أعلن ماداً يده إلى آشود:

- طونيدين. أمسية سعيدة. وناموا هانئين، سنسهر...

بعد مدة طويلة من ابتعاد آشود عن مقر المعمودية، ظل يلح في

معرفة ما قصده الطبيب بقوله «سنسهر»، فتملّكه خوف أخرس. ومن المحتمل أن خوفه كان سيكون أكبر لو أُخبر أنه وقبل ثمانٍ وأربعين ساعة من ذلك، اغتيل ساهاغ أرداباشيان قس إرزاندجان وسائق عربته في المكان الذي يُطلق عليه اسم كانليدر في مقاطعة سوزيهير.

القسطنطينية، وزارة الداخلية، ٨ كانون الثاني ١٩١٥

كانت ملامح طلعت باشا أشبه بملامح وجه محتضر، إذ كانت كابية، ولم تفصح شفتاه المتقلصتان بشكل ضيق عن شيء. وحدهما عيناه السوداوان فضحتاه فقط. كان يمكن أن يقرا بهما وهن غير محدود.

انتهى بأن تمالك نفسه، وطلب من العقيد سوفاد حاكم القسطنطينية أن يعيد عليه كلمة كلمة ما أخبره تواً.

- قصد نائب الجنرال الأعلى أنفر باشا نهاية شهر كانون الأول إرزروم، المقر العام للواء الثالث للترتيب للعملية التي ستمكن من فتح طريق باكو وستساعد في جعلنا نفوز للإمبراطورية بجميع الأراضي القوقازية. وكان مخطط نائب الجنرال الأعلى يقضي بفصل الجيش الروسي عن قاعدته بقارس، وحصرها بساريكاميش. وقد بدا هذا المخطط ناجعاً في البداية، ذلك أنه وبحسب معلوماتنا، فقد أمر قائد القوات الروسية قواته بالتراجع العام. وللأسف، فقد رفض الجنرالان برجيفا سكلي، ويوديفيتش الامتثال للأمر. ومفاجئين الجميع، قاما بهجوم معاكس. ولما كانت قواتنا قد أضعفها التيفوس، والكوليرا، ولما أثر البرد القارس عليها، وشل الثلج حركتها، لم يكن بمقدورها مقاومة الاصطدام. وهكذا فقد دمر اللواء الثالث تماماً.

- ما هو حجم الخسائر؟

راجع سوفاد الأوراق الموضوعة أمامه فقال:

- ستون ألف قتيل، واثنا عشر أسيراً من مجموع تسعين ألف رجل.

- والناجون؟

- أجبروا على القتال في حالة تراجع، وبحسب آخر معلوماتنا، فقد فروا عبر الولايات الشرقية تتعقبهم قوات روسية التي يمكن أن تكون قد توغلت كثيراً في محافظة إرزروم، وتهدد مدينة فان.

صمت الرجل، وكان بإمكانه أن ينقل له أيضاً آخر خبر توصل به، ويقضي بأن أنفر الذي أصيب في ساقه، لم ينجُ من جحيم ساريكاميش إلا بفضل ضابط من أصل أرمني يتحدر من سيفاس، وهو أحد المقاتلين السابقين في حروب البلقان، قام بحمله على ظهره، غير أن غريزته أوحت له بأن يصمت عن هذا التفصيل.

ساد القاعة صمت مخيف.

ضغط الجنرال ليمان فون ساندرز الذي دعاه طلعت على وجه السرعة، قبضة يده. فالكارثة كانت وشيكة...

سارع بالقول معلناً:

- سيدي الوزير، عليّ أن أشير هنا إلى أني حذرت صاحب السعادة أنفر باشا. لقد نصحته مشدداً على ترك الروس يتقدمون حتى سيفاس حيث بإمكانه أن يُشكل مقاومته لكنه لم يشأ الإنصات لنصحي.

بدا وكأن طلعت لم يسمع ما قاله، فقال مغمغماً:

- من هو حاكم فان؟

رد أحد الضباط:

- تحسين باي.

- فليعوضه سيفدي باي.

- نسيب صاحب السعادة أنفر باشا؟

- لقد سمعتموني جيداً، فتحسين ليس جيداً وهو متساهل جداً. عينوا أيضاً نسيبي مصطفى خليل في بيتليس. وفيما بعد ستعمدون إلى القيام بتعيينات أخرى. من الآن فصاعداً، أريد رجالاً موثوقي الجانب، وخاصة قساة القلوب على رأس المناطق الحساسة.

كتب بضع كلمات على ورقة، ثم سأل فون ساندرز قائلاً:

- هل لديكم معلومات بخصوص المشاريع الإنجليزية؟

- بحسب عملائنا، فإنهم يستعدون لفتح جبهة في ميزوبوطاميا(٦٩) لكني لا أعتقد أنهم الوحيدون الذين يجب أن يُحذر جانبهم، فكل المعطيات تدفع إلى الاعتقاد بأن البلغار لن يتأخروا في الالتحاق بمعسكر الحلفاء، والذي سيقحم اليونان ورومانيا حتماً، ولا يخفى على أحد أنه ومع حلول فصل الربيع ستقوم إيطاليا بالمثل.

أطرق طلعت قليلاً متفكراً، غائصاً بعينيه في العدم قبل أن يرد:

- هل نعرف عدد الأرمن المنتمين إلى اللواء الثالث؟

رد سوفاد:

- كلا. لكن يمكنني الحصول على المعلومة. بالمقابل، نعلم أن العدد الإجمالي للأرمن الذين لبوا نداء التعبئة العامة يصل إلى حوالى ستين ألفاً.

- وكم يصل عددهم في صفوف العدو؟

- لقد تم الحديث عن مئة وثمانين ألف رجل(٧٠) فقط بالنسبة للمتطوعين، وهنا نتوفر على معلومات دقيقة.

---

(٦٩) يوافق جزؤها الأكبر العراق الحالي. الأصل.

(٧٠) يفسر تباين هذين الرقمين كون الخدمة العسكرية في تركيا لم يسمح بها بالنسبة للمواطنين المسيحيين إلا سنة ١٩٠٨، بينما كانت إجبارية في القوقاز وجورجيا منذ سنة ١٨٨٦. الأصل.

فتح العسكري ملفاً، وجعل يقلب أوراقه قبل أن يشرع في القراءة:

- يقود الفوج الرابع الجنرال كيري، وهو لقب كافتر آرشاغ كالفايان، أحد أقدم المسؤولين بالدشناك، والفوج الثاني تحت قيادة درو واسمه الحقيقي دراسدامار غانيان، وهو يعد أحد أجرأ الإرهابيين، فعندما كان يافعاً جداً، عاقب محافظ مقاطعة سورمالو، غالونتسين. وفي باكو سنة ١٩٠٥، وبناءً على قرار اللجنة المركزية للدشناك قتل حاكم ناغاتشيزي في واضحة النهار، وهناك أيضاً المدعو أندرانيك والمدعو آفشاريان اللذان...

قاطعه طلعت بجفاء:

- من غير المجدي المتابعة! سنعرف كيف نقيّم في الوقت المناسب والساعة الملائمة دور هؤلاء... ماذا قلت عنهم؟

- هه... متطوعون؟

- متطوعون. أجل نسيت أن هذا ما يُطلق في أيامنا هذه على الخونة. لكن لمَ لا؟ متطوعون. حسناً.

أخذ ليمان فون ساندرز يحملق في وجه الوزير بقلق. ما الذي أراد قوله؟ هل يمكن اعتبار هؤلاء الجنود خونة؟ ذلك أنه وفي سنة ١٨٩٦، وفراراً من المجازر التي كان يقف خلفها عبد الحميد، أُجبر أكثر من مئة وخمسين ألف أرمني على البحث عن ملجأ بالقوقاز...

أليس من الطبيعي إذاً أن يوجد البعض منهم، أو من أبنائهم بعد عشرين سنة يخدمون تحت العلم الروسي؟ ولما كان الضابط الألماني يعرف طلعت جيداً، فقد وجد أنه من السخيف فتح نقاش في الموضوع، وهكذا فقد اختار قضية أخرى، عندما سأل:

- في حال آلت الحرب إلى ما لا نتمناه يا صاحب السعادة، وهو الشيء الذي أرفض أن أصدقه طبعاً، علّ فكرتم في خطة للدفاع عن العاصمة؟

صدر الرد من دون تردد:

- لن يتمكنوا منها أبداً! لن أخلف لهم إلا ركاماً من الرماد والأنقاض. في نيتي أن أصدر أمراً بأن توضع براميل من البترول في نقاط استراتيجية، وعندما تحين الساعة، سنوقد النار بها! أنتم تعلمون أن أغلب البيوت بنيت من الخشب، وبالتالي... الأنقاض كما أخبرتكم. هذا ما سيجده أعداؤنا! ماذا سنخسر؟ لقد سلبونا تقريباً غالبية الإمبراطورية. ما الذي تبقّى لنا؟ سوريا وفلسطين؟ مجرد بقايا... من الأفضل لنا أن نقضي عليها!

- والمآثر؟ هذه المآثر البديعة؟ هذه المساجد، وكنيسة سانت صوفي، والقصور...

- لا شيء أيها الجنرال فون ساندرز. لن ندع لهم شيئاً!

١٤

القسطنطينية، ١٨ كانون الثاني ١٩١٥

أصدقائي:

أنا حزين للغاية لعدم تمكني من قضاء عيد رأس السنة الميلادية رفقتكم، ذلك أنه تعذر عليّ السفر، فهذان أسبوعان قد مرا، ولأسباب طارئة وغير مفهومة، بلغتني وعدداً من رفاقي في الدشناك دعاوى قضائية بمقرات سكننا، وتشدد رجالات الاتحاد نحونا مقلق للغاية.

أسرّ لي هذا الصباح فؤاد باي وهو أحد أصدقائي الشراكسة، والعضو في البرلمان، وعهد لي الأمر على أنه سر، خبر شق عليّ تصديقه، ذلك أن هناك ترتيباً لنزع سلاح كل الجنود الأرمن من دون استثناء، وعزلهم عن الجيش لجعلهم عامل تبوري أي عمالاً. وهكذا سيعينون في أعمال ذات نفع عام. وبالموازاة مع ذلك، على باقي مواطنينا الذين لم يستدعوا للخدمة تحت الأعلام التركية بأن يُسلموا الأسلحة التي بحوزتهم. وبشكل مسبق، أرتعد خوفاً، ذلك أنه التدبير نفسه تماماً الذي عمد إليه في عهد عبدالحميد، والذي سبق مسلسل المذابح الطويل.

هل هذا ممكن يا إلهي؟ هل سينبعث الرعب مجدداً؟ تحدثت في الأمر إلى كريكور وزوراب وإلى أعضاء من الدشناك، وغالبيتهم عدا

كريكور المتفائل دوماً، مقتنعون بأننا على عتبة مأساة أكثر دموية من تلك لسنة ١٨٩٥، وتخوفهم هذا يجد شرعيته ما دام عدد من إخواننا قد قضوا مؤخراً غرقاً، أو أُطلقت النار عليهم، أو تم طعنهم، (خصوصاً في محيط إرزروم، وفي الحدود الفارسية)، في الوقت الذي كانوا فيه يخدمون في الجيش. وما يدعو إلى القلق أكثر، أنه تم العفو عن العديد من المجرمين المشهورين، وترتفع وتيرة تحرير بعض المحبوسين. وبحسب بعض المصادر التي لا أستطيع ذكرها هنا، فقد تم تحرير أكثر من عشرة آلاف سجين من سجناء الحق العام من دون سبب، بينما وفي الوقت نفسه تمت إقالة حاكم لبنان الأرمني أوهانيس كيويوميدجيان من منصبه.

ويلغتنا معلومات منذرة من هنا وهناك، أذكرها لكم من دون ترتيب. ففي بداية كانون الأول، قُطع خط التلغراف عن بيلو بيه، وهي قرية صغيرة تقع على حدود كازاع[٧١] غارزان وجوفاس، وبسرعة اتُهم القرويون من قبل القائم مقام المحاط برجال الدرك الذي قام بإحراق القرية. ولحسن الحظ تمكن القرويون من الفرار. وفي غرغار الواقعة بين فان وبيتليس، ولأن شابين ثارا ضد عنف رجال الضابطية، فقد سُلمت القرية إلى الأكراد الذين عاثوا فيها سلباً ونهباً. . . وقد بلغني أيضاً أن السلطات تعتزم حظر نشر يومية آزادامارت وهي جريدة أخرى تنشرها الدشناك، وهناك إلزامية تتشكل نجهل أهميتها حتى الآن.

ماذا أخبركم أيضاً؟ لا شيء سوى أنه وغداة جدال عنيف نشب بينه وبين طلعت باشا، أخذ آرمن غارو القرار المجنون بمغادرة البلد ليتطوع في الألوية الأرمنية المجندة في جيش القيصر، وقد أعربت له عبثاً عن عدم موافقتي على قراره ذاك، بينما اجتمعنا به رفقة أربعة من رفقائنا في

---

(٧١) ضواحي. الأصل.

بيت صديقنا آلادجيان لثنيه عن فعل ذلك. وأعلمكم هنا بالمناسبة بأن آرمن لم يكن الوحيد الراغب في الرحيل إلى القوقاز، فرفيق دراسة هوفانيس وفارتكيس سيرانغيليان يشاركانه الرغبة ذاتها. وخلال ساعات طويلة، عرضت لهم مساوئ التعاون مع الروس، غير أنهم لم يريدوا سماع شيء. ونُظم لقاء أخير في بهو جزيرة الأمراء، هذه المرة بحضور أحد القادة التقدميين في الأتراك الشباب، وهو أحمد باشا، وبحضور فاهاكن داطيفيان أحد أصدقائه المقربين. وجاهد أحمد بدوره ليبين لهم أن مشروعهم محكوم عليه بالفشل إذ قال لهم «تريدون العمل من أجل الروس، فلتعلموا إذاً أنهم سينزعون سريعاً الآبقين من النار». وأضاف قائلاً، وهي رعونة من قبله، «تحدثتم عن موضوع وحدة الإمبراطورية العثمانية. نحن في وضع صعب، وأنتم تمسكون بخناقنا، سيستغل الأجانب نقاط ضعفنا، عليكم أن تعلموا أننا لن نصمت إزاء موقف مماثل من جانبكم، ويمكن أن تكون النتائج غير قابلة للجبر».

وإذا ما عاد فارتكيس إلى صوابه، فإن آرمن من جانبه لم يرد أن يسمع شيئاً، وعوض أن تهدئه أقوال الزعيم الوحدوي، فإنها على العكس من ذلك، أخرجته عن طوره. فهو لا يفهم تحميلنا مسؤولية «إثارة مشكلة وحدة الإمبراطورية»، إذ غادر صافقاً الباب خلفه. ومنذ ذلك الوقت، بقينا من دون أخبار عنه. ما أتمناه فقط هو أن يخرج سالماً من المعارك الدائرة بين الروس واللواء الثالث في ثلوج ساريكاميش.

قلبي منقبض يا أصدقائي، فمن نافذتي أتأمل جسر غالاطا، هذا المعبر بين الشرق والغرب، بين آسيا وأوروبا، وأحدث نفسي قائلاً بأنه لم يكن يوماً بمثل هذه الهشاشة. غداً، أو في يوم من الأيام، ونتيجة لخطأ متعصبين لا يبصرون، أو وطنيين أغبياء، يمكن لهذا الجسر أن ينهار، وتتم التفرقة بين العالمين. فلنصلِّ حتى لا تشرق شمس هذا اليوم أبداً.

أجهل الوضع لديكم بإرزروم، لكنني أتوسل إليكم بأن تأخذوا حذركم، وأن تحتاطوا من كل شيء، ومن أي أحد. أتساءل عمّا إذا كان يتعين عليكم التفكير في الرحيل عن المدينة، والذهاب لملاقاة القوات الروسية. أعلم ما يستدعيه قرار مماثل، لكن وأمام الأسوأ، ألا ينبغي التفكير في شيء كهذا؟

أضمكم بقوة إلى قلبي، ولتعلموا أنه لا تمر عليّ لحظة كل يوم من دون أن أفكر فيكم. فليحمكم الرب.

هوفانيس

بتأثر جلي، عاد آشود ليتأكد من التاريخ الذي دوّن على الرسالة، ثم غمغم قائلاً:

- نحن في الثامن والعشرين من شباط. لقد أمضت أكثر من خمسة أسابيع لتصل إلينا!

علق فاهي الذي ظل سعيداً قائلاً:

- كان من الممكن ألا تصل أبداً.

تدخلت آنا ملاحظة:

- على كل حال، كل ما قاله عن فيالق العمال بدا صحيحاً، ذلك أن آسيم أخبرنا أنه تم تجريد الجنود الأرمن من أسلحتهم، وفي منتصف هذا اليوم بالذات، قامت حفنة من أولئك الرجال الذين يقودهم ذلك الطبيب الذي نسيت اسمه...

قال آشود:

- بهاء الدين شكير.

- شكير. أجل. اقتحم أولئك الرجال بيت آل أفاكيان لإجبارهم على نزع السلاح، ولما أخبروهم بأنهم لا يتوفرون على سلاح لديهم، هاجوا وماجوا، وقلبوا عالي البيت سافله، ودمروا كل شيء.

رفع فاهي كتفيه قائلاً:

- إذا ما تجرّأوا على المجيء إلى هنا، فقد أعددت لهم استقبالاً لن ينسوه أبداً.

- هيا يا آيريغ، العنف يولد العنف، ثم إننا لسنا وحدنا، هناك الأطفال.

أعلن آرام متحدياً:

- وما أهمية ذلك؟ لسنا خائفين.

بحث عن دعم لدى أخته إذ أضاف:

- أليس كذلك يا شوشان؟

لم تجب الفتاة. هي أيضاً تلقت رسالة. رسالة احتفظت بها لنفسها. ظلت تحتضنها وكأنها الشيء الوحيد النفيس الذي تملكه في هذه الدنيا. قرأتها وأعادت قراءتها طوال الصباح. وصارت الآن تحفظها عن ظهر قلب.

أصر آرام قائلاً:

- شوشان؟ أنا أكلمك!

عادت إلى الأرض لتقول:

- ماذا هناك؟

- نحن لسنا خائفين من أفراد الميليشيات أليس كذلك؟

بتردد قامت بحركة نفي برأسها.

مازحها الفتى الصغير قائلاً:

- بالك مشغول.

ثم قام بحركة كأنه يريد أخذ المظروف الذي كانت تحمله بيدها، لكنها راوغته وغادرت الحجرة متوعدة.

بغضب قالت آنا:

- هه! لا كلمات نابية هنا! وأنت يا آرام، إلحق بأختك!

قال آشود ملاحظاً:

- لقد أحسن أخي صنعاً إذ حذرنا، فهنا أيضاً، وقبل عشرة أيام تقريباً، ألم يتم اغتيال صديقنا سيتراك بسترمادجيان نائب مدير وكالة البنك العثماني من قبل جنديين أمام الملأ؟ وعلى الرغم من معرفة الجانيين من قبل الجميع إلا أن أحداً لم يوقفهما. هذه إشارة.

توقف قليلاً، ثم سأل:

- أخبرني أيها الأب، ما رأيك في اقتراح هوفانيس؟

أخذت آنا على عاتقها مهمة الرد إذ قالت:

- الذهاب لملاقاة الجنود الروس؟ هكذا بشكل أعمى؟ أرى أن الأمر ينطوي على مجازفة كبيرة.

- لربما هي مجازفة أقل من البقاء هنا، و...

أوقفته ضربة قوية على الطاولة.

- خينتس! أنت مجنون يا بني! كيف أمكنك أن تتصور للحظة واحدة الرحيل عن بيتنا، البيت الذي ولدت فيه، وحيث رأى ولداك النور أول مرة؟ خينتس! أبداً. هل سمعت؟ لن أتحرك من هنا أبداً! عليهم دفني حياً، صلبي، حرقي حياً، أنا هنا في بيتي ولا أحد سيطردني.

- لا مجال أن نفرّ أو أن نطرد، سيكون الأمر مؤقت. س...

- لا!

- أرجوك يا أبي! دعني أكمل. لقد قرأت مثلي تماماً الأخبار. فكر. لقد بدأوا بمصادرة تذكراتنا، ومنعوا صدور جريدة الدشناك وجعلوا أعضاءه تحت الإقامة الجبرية، وتم إيجاد جنود أرمن مغتالين، وتقيدت حركة جنود آخرين، ورحلوا إلى الأوراش. والآن، قرروا أن يصادروا أسلحة المدنيين أيضاً. نحن عراة، وبلا دفاع! إذا ما قام شياطين الأمس من مراقدهم، ماذا سيحل بنا؟

أشار إلى آرام مضيفاً:

- هل فكرت بهما؟ هل أنت مستعد لأن تقامر بحياتيهما؟

همّ بالرد لولا أن رأى جسد دير أغوبيان المتشح بالسواد يظهر من خلف النافذة، ألصق القس جبهته بزجاج النافذة، وضرب بوسطاه المثنية بضع ضربات:

سأله فاهي متفاجئاً:

- ما الذي تفعله هنا؟ هل يحتضر أحد إخواننا؟

فتحت آنا الباب.

- باريف دير آسير[72]. أي ريح طيبة حملتكم إلينا؟

- باريف سيد طوماسيان. أعتذر على إزعاجكم، ولكني وددت إطلاعكم على الخبر السعيد.

كان القس يحمل بيده نسخة من «عثمانيشر لويد»، جريدة القسطنطينية التي تصدر بالألمانية.

كرر قائلاً:

- أجل، إنه خبر سعيد.

أخذ القس نظارتيه، وشرح قبل أن يشرع في القراءة، إذ قال:

- هي رسالة موجهة إلى مطران كونيا. أنصتوا سأترجم لكم: «أعتذر لعدم تمكني من التحدث مع جنابكم المحترم خلال مقامي القصير بكونيا، هناك حيث تسلمت الرسالة التي وجهتها إلى عنايتكم، والتي تعبّرون فيها عن امتنانكم. من جانبي، أشكركم وأغتنم هذه الفرصة لأخبركم بأن الجنود الأرمن العثمانيين يقومون بواجبهم في ساحة الحرب. . وهو ما يمكنني أن أشهد به إذ إني قد رأيته بأمّ العين. أرجو أن تنقلوا مشاعر رضاي وامتناني إلى الأمة الأرمنية التي عرفت

(٧٢) صباح الخير أيها الأب المحترم. الأصل.

على الدوام بتعلقها الكبير بحكومة الإمبراطورية العثمانية».

أغلق الجريدة ثم سأل:

- خمنوا من يكون الكاتب؟

رسم آشود وفاهي علامات جهلهما:

- نائب القائد الأعلى للجيش الإمبراطوري! إسماعيل أنفر باشا شخصياً.

مستغربة سألت آنا:

- هل هذا معقول؟

- بالطبع! إنه هنا في الجريدة! وأن يكون مؤرخاً بتاريخ الثامن والعشرين من كانون الثاني لا يغير شيئاً.

سأل آشود:

- الثامن والعشرون من كانون الثاني؟ لكن كيف حصلتم على هذه النسخة؟

- جلبها لي هذا الصباح جاري السيد فراميان، علم بأني أقرأ الألمانية قليلاً، ورجاني بأن أترجم له المقال. كيف حصل على الجريدة؟ لست أعلم. وبما أنكم قلقون جداً على هوفانيس، فكرت بأن هذا الخبر قد يريحكم بعض الشيء. لقد سمعتم أقوال أنفر إزاء إخواننا. يبدو أنه ما من شيء يدعونا للخوف.

وافق فاهي بأن هز رأسه، أما آشود، فبدا أنه لم يقتنع أبداً.

وبدا أن القس لحظ ذلك منه، ذلك أنه سأل قائلاً:

- ما الذي يحدث؟ هل تعتقدون أن هذه الرسالة غير صحيحة؟

- كلا يا أبتِ. لكنها تبدو لي بكل بساطة في تعارض تام مع الواقع. فمن جانب، تمدح مزايا جنودنا، ومن جانب آخر تنزع أسلحتهم، ويحولون إلىٰ عامل تبوري، إلى عمال أوراش. ويتم الإعراب عن العرفان للأمة الأرمنية، ويحرم أفرادها من حقهم في

الحركة، وفي حماية أنفسهم. ويتم الإعلان أننا شعب مخلص للإمبراطورية، ويوضع سياسيونا في الإقامات الجبرية. هذا دون أن نتحدث عن الاغتيالات المثبتة في حق بعض جنودنا.

- مع أنه...

تدخّل فاهي قائلاً:

- أنا أصدق الرسالة! أصدقها لأنه ما من سبب يجعل شخصية مرموقة مثل أنفر يكتب رسالة من هذا النوع لينكرها فيما بعد.

تبادل آشود وآنا نظرة خاطفة، ففي حمأة رغبته الجامحة بعدم ترك إرزروم وبيت العائلة، كان الرجل المسن مستعداً للتمسّك بأية قشة أمل.

أكد دير أغوبيان بالقول:

- أشاطركم الرأي، فمهما كان أنفر إلا أنه يمتلك بعض الشرف.

بقي آشود صامتاً.

شرف؟ علمته الحياة بأن الشرف لدى الشرفاء فضيلة، بينما قد يتحول لدى الوضعاء، إلى سلاح للانتقام.

رفعت شوشان الممددة على سريرها الغطاء حتى ذقنها، ثم شرعت تقرأ رسالة سوغومون للمرة الألف..

برلين في ١٥ تشرين الأول ١٩١٤

العزيزة شوشان

أذكر الوعد الذي قطعته لك قبل رحيلي إلى ألمانيا.. يبدو لي أن الأمر حدث قبل قرن لشدة اشتياقي إلى أرضي وأهلي. أمضي وقتي في عد الأيام قبل عودتي إلى الأناضول.

برلين مدينة مدهشة، زينت بالحدائق والبحيرات والممرات الخضراء. تصوري أنه يعهد لطلاب المدارس زرع البذور لتحسيسهم باحترام الطبيعة. وحيثما وليت وجهك تشعرين بالنظام، والمنهج والمغالاة، لكن هناك القبح أيضاً. القبح الذي يتبدى لك سريعاً عندما تتأملين البنايات القهرية. كان على الشعار البروسي أن يكون «إجعله أكبر، إجعله أغنى دون جعله جميلاً».

أما البقية، فمع كل التفاتة تدهش العين. هناك الآلاف من الكريات الكنسية معلقة على أعمدة معدنية، وما إن يرخي الليل ستائره، حتى تضاء في الوقت نفسه، وترى كأنها حدقات كبيرة ثابتة. هي مدهشة، خاصة عندما نفكر أنه عندنا في الأناضول، ما نزال نستعمل مصابيح الكيروزين أو الشموع.

كل شيء مختلف هنا، سواء تعلق الأمر بالتصرفات الباردة والمتحفظة للناس أو بالطريقة الوقحة التي تتسكع بها الفتيات بالتنانير القصيرة، بأعناقهن وأذرعهن العارية. وشخصياً أجد الأمر صادماً، لكن لعله حيائي الأرمني هو ما يغلبني.

سأعود في الربيع إذا أراد الرب. ولن أعدم وسيلة في الحضور لزيارتك. أتمنى أن تكون الحرب قد وضعت أوزارها حينها. أنا خجل من الاعتراف، لكن في أعمق أعماقي لا أعرف من أفضل أن أراه منتصراً: تركيا أم الحلفاء.

أتمنى أن تكون عائلتك بخير، وألا تكونوا تعانون كثيراً في هذه الأوقات العصيبة.

أقبّلك بكثير من الود

صديقك

سوغومون

ملاحظة:

بشكل غريب، ومنذ تواجدي في برلين، اختفت أزماتي التي يسببها لي «الشر الكبير» لربما يعود الأمر إلى الجو!

أعادت شوشان الأوراق داخل المظروف. أغمضت عينيها سامحة لنفسها أن ترحل بعيداً عن إرزروم، إلى تلك الشوارع والأزقة المضاءة، وإلى تلك البنايات ذوات النوافذ المفتوحة على العالم الذي لربما لن تعرفه أبداً. وأعادت التفكير في تلك المزحة التي صدرت عن أخيها عندما أخبرهما سوغومون برحيله إلى ألمانيا معرباً لهما عن تحفظه إذ رد آرام بالقول «لو كنت مسافراً مكانك، لكنت سعيداً على عكس ما أنت عليه!» كان يمكنها أن تقول الشيء ذاته. الرحيل! اكتشاف وجوه أخرى، وطرق عيش أخرى، ومناظر أخرى. صدم سوغومون لعادات اللباس للشابات الأرمنيات وما كانت لتصدم هي، بل على العكس من ذلك تماماً. ما كانت لترحل فقط، بل كانت ستكبر أيضاً. أنّى للمرء أن يكبر في الوقت نفسه الذي يظل فيه دوماً مرتبطاً بجذوره، بأبيه وبأمه وبميدز بابا؟ هل يمكن تجاوز المراهقة دون مفارقة المراهقة؟ أن يشيخ المرء دون أن يصير راشداً؟ لم يكن لديها إلا يقين واحد، وهو إذا ما مس شر الناس الذين تحب في يوم من الأيام، وإذا ما أصاب الموت أحدهم فإنها ستموت أيضاً، ومن دون تردد.

القسطنطينية، وزارة الحربية، ٢٣ نيسان ١٩١٥

كشفت ملامح وجه طلعت غضبه وشكه.

- عصيان؟ هل قلت عصيان؟

أكد اليوزباشي[(٧٣)] بخجل قائلاً:

- أجل يا صاحب السعادة. فتقرير سيفدي باي كان واضحاً، فمنذ عدة أيام قام متمردون من الأرمن المسلحين بالتمترس بشكل جيد داخل مدينة فان.

حملق إسماعيل أنفر الواقف جوار زميله بعينيه، ثم قال:

- السلاح؟ أي سلاح؟ ألم يجرد كل الأرمن من أسلحتهم؟

- طبعاً، لكن المتمرّدين أحرقوا مركز الدرك، وحفروا حفراً في جدار الطابق الأول، ونفذوا منه إلى المخزن.

- ثم...؟

- نهبوه. ثم إن النساء والأطفال هم من قام بحمل صناديق الذخيرة، والبنادق والديناميت.

ردد أنفر:

- النساء والأطفال. لا معنى لكل هذا! وهل سمح نسيبي بأن يحدث كل هذا؟

- قام سيدفي باي بأفضل ما يمكنه القيام به. ركز الخمسة آلاف رجل التي تحت إمرته البارحة لمحاولة الاختراق، وتخلى المقاومون عن موقع متقدم لتجنب خسائر فادحة، غير أنهم احتفظوا بالمواقع المهمة. ويبدو أن الثوار الذين يقال بأن عددهم حوالى ألف أو ألفين، يتحركون بشكل متواصل من منزل إلى منزل، أو يستعملون الأنفاق. كلهم يقاتلون ومن دون استثناء. ذكرت النساء والأطفال، لكن يقال بأنه يوجد شيوخ أيضاً ورجال دين. هم خنازير برية من دون شك. غير أن هناك خبراً سعيداً، فاثنان من زعمائهم الثلاثة الرئيسيين قد قتلا، وهما آرشاغ فراميان وإيشكان، ولم يفلت إلا آرام مانوكيان، وهو من يدير العمليات الآن.

---

(٧٣) قبطان، نقيب، قائد فرقة عسكرية. الأصل.

ظهرت على جبهة طلعت ندف العرق، وأخذت شفتاه ترتعشان:

- عصيان؟ في وقت الحرب هذا حيث الروس يتحركون إلى فان! هذا واضح. نحن أمام تصرف يعد خيانة عظمى. أعد هؤلاء الكلاب جيداً لعملهم هذا، يحاولون تيسير تقدم قوات القيصر، وسقوط الولاية.

أمر القائد بالخروج، ثم هوى على كنبة بوجهه الساخط. أطال النظر في أنفر ثم قال:

- هذا خطير. خطير جداً، وإمعاناً في السوء، تأتي من مصر أخبار كارثية.

- علمت بذلك.

- تحولت حملة صديقنا جمال باشا إلى كارثة. صده الإنجليز بينما وصل إلى ضفاف السويس. كارثة مشؤومة مثل...

كان طلعت على وشك أن يقول ساريكاميش، قبل أن يتوقف في آخر لحظة ليواصل:

- ترك في الميدان ستة آلاف قتيل، وأسرى وعتاداً ولربما الأكثر إحراجاً جثث العديد من الضباط الألمان، بما فيها جثة ويلهيلم فون ديم هاغين، وأخبرت بأنه أحد المقربين من السفير الألماني. والأشد حزناً هو أن جزءاً من الهزيمة يتحمله على ما يبدو وجود... ديكة ودجاج في صفوف جيشنا.

حملق أنفر بعينيه مردداً:

- دجاج؟

- نوغاليس باي[74]، هذا المرتزق الفينزويلي الذي حضر ليقاتل إلى جانبنا، أخبرني أن بعض جنودنا المنتمين إلى يومنا هذا، إلى

(٧٤) اسمه الحقيقي رفائيل نوغاليس. الكاتب.

المدرسة الحميدية العتيقة، أحضروا دجاجاً مع عدتهم ليتمكنوا من استهلاك البيض الطازج! ليس الدجاج فحسب بل الديكة أيضاً. وكان الجيش على وشك مهاجمة المعسكرات البريطانية عندما عنّ لهذه الفراخ الحبيبة أن تغني، منذرة بذلك العدو، ولاغية عامل المفاجأة! وعلى كل حال، فمهما كان السبب، فإن الهزيمة لا جدال فيها.

رفع صوته مضيفاً:

- أعلم أني أعطيت أوامر، وإن كانت ضداً على ما يريده قلبي، لكني أصدرتها، ستنقل احتياطات الذهب، وأرشيفات الدولة إلى مكان آمن خارج القسطنطينية. ستعد قطارات وتدفأ من أجل السلطان وأعضاء بلاطه الذين سيقصدون كونيا، إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك. وتم إخبار السفراء الذين يتمنون مغادرة البلد بأن عربات قطارات ستوضع رهن إشارتهم!

صرخ أنفر قائلاً:

- أنت مخطئ يا طلعت! لن تسقط القسطنطينية! لم ينتهِ الأمر بعد! لدينا مدافع وذخيرة وفيرة، وسرايا مدفعية متواجدة على أرض صلبة بينما يتواجد الإنجليز والفرنسيون فوق الماء، وبالتالي فهم قابلون للإصابة بشكل أكبر. وأخيراً، المزايا الطبيعية التي توفرها المضائق التي تمنح دفاعاً صلباً لكل محاولة رسو. ثق بي، لقد درست المسألة وأعلم أني محق.

- إسماعيل...

- ما دمت وزيراً للحربية فلن نستسلم أبداً. افترض أن الأساطيل الحربية الإنجليزية والفرنسية اقتحمت الدردنيل، ودخلت بحر مرمرة، ووصلت إلى القسطنطينية. ما الذي سيجنونه؟ صحيح أن بإمكانهم قذف المدينة وتدميرها، ولكن لن يتمكنوا منها. أتحداهم! فهم لا يتوفرون على ما يكفي من قوات، وأفضل ما يستطيعون القيام به، هو

التوقف هنا لأسبوعين أو ثلاثة حتى يستنفدوا مؤونتهم، وهنا تتحتم عليهم المغادرة سالكين المضيق، ومخاطرين مرة أخرى بأن يهلكوا تحت نيران مدافعنا. ثق بي! لم نخسر شيئاً بعد.

منذ أيام، ألفى نائب القائد الأعلى كل العجرفة والتعاظم اللذين عرفا عنه قبل كارثة ساريكاميش، مع أنه وعند نهاية كانون الثاني، عندما عاد إلى القسطنطينية لم يكن كذلك. ذلك أنه أحس ضعفاً كبيراً إلى حد أنه لزم بيته في الأيام الأولى، ثم كانت تلك الأمسية التي نُظمت لفائدة الهلال الأحمر، والتي قرر حضورها متبعاً في ذلك نصائح زوجته نجدية، غير أنه عزل نفسه بمقصورة قصية مرتعباً من سخرية الجمهور. وكانت كل الشخصيات المميزة في القسطنطينية قد حضرت الأمسية، بما في ذلك ولي العهد، وأعضاء الحكومة وعدد من السفراء. وفي نهاية العرض، وكما جرت العادة بذلك، دعا الأمير الشخصيات ليسلم عليها أو ليهنئها. ولمفاجأته الكبيرة، دُعي أنفر أيضاً، وهذه اللفتة المميزة الملهمة منحته على الفور الشجاعة والثقة اللتين افتقدهما حتى ذلك الوقت. ولما أحس نشاطاً متدفقاً، سارع إلى الاختلاط بالدبلوماسيين الذين، وهذه مفاجأة أخرى، عاملوه بالكثير من الدماثة واللطف. وعند الفجر، بدا قتلى ساريكاميش الستون ألفاً والأسرى الاثنا عشر ألفاً كأنهم لم يتواجدوا قط.

قام طلعت، وذرع المكتب ببطء وهو يقول:

- سنرى. لكن عليّ أخذ الاحتياطات. فكل شيء صار هشاً.

أخرج علبة فضية من جيبه، واقترح سيجارة على محاوره الذي أخذها.

طرق أحدهم الباب ثلاث طرقات.

نظر طلعت إلى ساعته الجيبية وأعلن:

- لقد سبق موعده...

- من تقصد؟

- اليهودي.

- اليهودي؟

- سفير الولايات المتحدة...

- مورجونطو؟ ماذا يريد؟

- لا أعلم. منذ يومين وهو يتحرش بي. سنرى.

ثم رفع صوته قائلاً:

- تفضل!

تقدم السكرتير ثم قال:

- اعذروني يا صاحب السعادة، السيد مورجونطو...

- أجل، أعلم.

ثم همس لأنفر قائلاً:

- فلتبق.

بدا الأمريكي وهو يحمل حقيبة في يده. توقف للحظة إذ أبصر وزير الحربية، قبل أن يدخل الحجرة. حيّى الرجلين لكن بنبرة متحفظة.

دعاه طلعت إلى الجلوس، في حين قصد أنفر نافذة، ووقف هناك مولياً ظهره لضوء النهار.

- ما الداعي إلى تشريفكم لنا اليوم سيدي السفير؟

ومن دون أن يتخلى عن بروده، أخرج مورجونطو ملفاً من عدة أوراق وضعه على مكتب الوزير، قائلاً:

- هذا... إنه تقرير موقّع من قبل الدكتور كلارنس يوشير.

عقد طلعت حاجبيه سائلاً:

- يوشير؟

- إنه رئيس البعثة الطبية الأمريكية المتمركزة بمدينة فان والتي هُدمت مستشفاه قبل وقت قريب.

سأل أنفر دهشاً:

- من دمرها؟

رد مورجونطو ساخراً:

- من؟ أنت لا تعلم إذاً يا صاحب السعادة؟

ثم أضاف بنبرة قوية:

- بمئات القنابل التي يمطر بها نسيبك سيدفي باي المدينة منذ أيام.

- كردّ على مئات القنابل التي يُطلقها خونة الوطن. هل تجدون هذا غير منطقي؟

- برقية الدكتور يوشير...

بغضب قال طلعت:

- هم خونة سيادة السفير. هل تفهمون؟ خونة! تتمرد مدينة في الوقت الذي يقترب منا العدو. هذا غير مقبول.

وكرر بالحدة نفسها:

- غير مقبول!

أصر مورجونطو على أسنانه قائلاً:

- هل يمكنني الحديث؟

وافق طلعت بحركة وقحة من يده، فعاد الأمريكي ليقول:

- هل يمكن أن تكونوا عمياناً إلى هذه الدرجة؟ تتحدثون عن الخيانة بعدما ذبحتم مئات الآلاف من هؤلاء المساكين على امتداد ثلاثين سنة، وأهنتم نساءهم وبناتهم؟ بعد أن نهبتموهم وأسأتم معاملتهم بشكل غير معقول، ومع ذلك تدعون بأنكم تعتمدون على وفائهم الأكثر دقة. لكن رجاءً! في أي عالم تعيشون؟! ليس سراً على أحد أن الأرمن

يميلون إلى الوفاق. هل تتصورون العكس؟ أينبغي عليّ أن أذكركم بما يقال في القسطنطينية؟ يقال بأنه إذا رغبتم في معرفة كفة من ترجح في الحرب ما عليكم سوى النظر إلى وجه أرمني. فإذا كان مبتسماً فإن الحلفاء منتصرون، وإذا كان واجماً فهذا يعني أن الألمان منتصرون.

صرخ أنفر وهو يتقدم نحو الأمريكي:

- رائع! أنتم ترون بأننا محقون!

- خطأ! فالرقبة البريئة التي توضع على قاعدة السندان، والتي تحاول تجنب ضربة الساطور، خائنة أم بريئة؟

- بريئة؟ هل تصفون تمرد فان هكذا؟

لاحت على وجه مورجونطو ابتسامة مريرة، وهو يقول:

- أخبركم بأني لا أحمل بين يدي تقرير الدكتور يوشير وحده بل أيضاً تقرير موظف القنصلية الإيطالية السينيور سبوردوني، والذي لا يمكن لأحد أن يتهمه بالتحيز.

- أكاذيب، وافتراء كالعادة!

- هل تعلمون على الأقل لماذا ثار سكان هذه المدينة؟ هل لديكم أدنى فكرة؟ كلا بالطبع. حسناً، سأخبركم!

أخذ نفساً ثم أضاف:

- طوال المدة التي قضاها سيدفي باي كمدافع عن الحدود التركية الفارسية، لم يعمد إلا إلى سلب ونهب المدن، وقتل غالبية المسيحيين المتواجدين بها. وعندما عينتموه حاكماً لفان، كان أول عمل قام به مهاجمة القرى المحيطة بها، قرى بطبيعة الحال بغالبية مسيحية. وهذه المجازر تمت بوحشية غير مسبوقة.

- خطأ!

- بقرت بطون الأطفال، وجردت النساء والفتيات من ثيابهن، وطردن عاريات مثل الدواب إلى الجبال.

- خطأ !

- قبل حوالى خمسة عشر يوماً، استدعى سيدفي نفسه خمسمئة شاب من قرية أكانتز، وهم أرمن بطبيعة الحال، وتحت ذريعة أنه ينوي إخبارهم أمراً من السلطان، ومع مغرب الشمس، اقتيدوا خارج المدينة لتطلق عليهم نيران البنادق.

- خطأ!

- قبل ثمانية أيام، وصل به صلفه إلى حد فرضه على سكان مدينة فان بأن يمدوه بأكثر من ثلاثة آلاف رجل من أجل إلحاقهم بألوية عمال الحفارين، لكن من يصدقه؟ حاول الرجال عبثاً بأن يفاوضوه، حتى إنهم اقترحوا أن يدفعوا مبلغاً من أجل ترضيته لكن سيدفي جعل يتحدث فوراً وبصوت عال عن «تمرد»، وعن قناعته بـ«خنقه مهما كان الثمن، إذا ما أطلق المتمردون طلقة واحدة». وظن أنه من الجيد أن يوضح قائلاً: «سأقتل الرجال والنساء والأطفال الذين يصلون إلى هنا»، وأشار إلى ركبته. وأمام إصرار السكان عمد الوالي إلى تكتيك آخر، ذلك أنه قرر التخلص من القادة.

وهنا أشار مورجونطو إلى برقية الدكتور يوشير مضيفاً:

- ذكرت الأسماء هنا! سأعفيكم من التفاصيل. اعلموا فقط أنهم قُتلوا.

صمت الدبلوماسي متوقفاً، ومركزاً ناظريه على أنفر وطلعت قبل أن يسمح لنفسه بالقول:

- هذه يا صاحبي السعادة حكاية خونة فان المزعومين.

أشعل طلعت سيجارة أخرى، في حين أطفأ أنفر سيجارته، وعمّ صمت ثقيل أرجاء الحجرة.

وأخيراً سأل مورجونطو قائلاً:

- وإذاً؟ أية تدابير تزمعون اتخاذها؟ ففي الوقت الذي نتحدث فيه يموت الأبرياء.

- سأفكر يا سيدي السفير. سأفكر... لكن من أجل ما هو أفضل، فاطمئنوا.

وعمّ الصمت مرة أخرى، حاول خلاله مورجونطو من دون أن يفك شيفرة «من أجل ما هو أفضل»، وما قصده طلعت باشا من خلالها.

تقدم أنفر نحو السفير، ثم قال:

- اسمحوا لي أن أخبركم شيئاً. تعرضنا للوم دوماً لعدم تمييزنا بين الجناة الأرمن والأبرياء منهم، هل تعلمون لماذا؟

- أنا أنصت لكم.

- لأنه يستحيل ذلك.

- يستحيل...

- أجل سيد مورجونطو، لأن أبرياء اليوم هم جناة الغد.

توتر السفير ثم قال:

- إئذنوا لي بأن أنسحب.

وافق طلعت قائلاً:

- فليكن لكم ذلك يا صاحب السعادة. انقلوا مشاعر صداقتي لزوجتكم! على فكرة، لقد خصصت لكم عربة في القطار إضافة إلى معاونيكم. سيكون من الحذر أن ترحلوا.

- لا مجال لذلك أبداً! لن أغادر القسطنطينية. من واجبي البقاء. أما عن منصبي كسفير فأنا مستعد أن أقدم استقالتي، وأن أظل فقط كقنصل عام شرفي، عوض أن أتبع السلطان. إلى اللقاء يا صاحب السعادة!

ما إن أقفل الباب حتى أخذ طلعت التقرير، وفحص الغلاف متفكراً. سأله أنفر:

- تحدثت عن كونك ستفكر. هل سيدوم ذلك طويلاً؟

هز الوزير رأسه ثم قال:

- سترسل البرقيات المشفرة هذه الليلة، سيُسمح لبهاء الدين ومسؤولي المنظمة الخاصة بالشروع في المخطط المعد سلفاً.

رفع عينين رهيبتين إلى أنفر قبل أن يضيف:

- أبواب الجحيم يا أخي. سنفتح أبواب الجحيم.

القسم الثاني

١٥

القسطنطينية، ٢٤ نيسان ١٩١٥

- افتحوا! إمنيي! الشرطة!

خفق جفنا هوفانيس. لم يكن بحاجة إلى التأكد من الساعة إذ كان يكفيه أن يرى الوميض المرتجف للنجوم الذي يبدو من خلال الشبابيك المغلقة ليعلم بأن الوقت ما يزال ليلاً.

- افتحوا!

أخذ قلبه يدق بقوة أكبر. لمَ هذا اليقين من أن الأمر لا يتعلق بتفتيش غير مؤذ؟ أنّى له بهذا الشعور المنتمي إلى زمن ينقضي، زمن نهاية الطريق؟ كان الأمر سخيفاً.

مرر المزلاج.

كانوا ستة. ستة أشخاص بلباس مدني، خمسة منهم كانوا مسلحين. أفصح غير المسلح منهم عن هويته قائلاً:

- بدري باي.

لم يكن وجهه يخفى عنه. ذلك أن هوفانيس حظي بفرصة للقائه. لكن أين؟ وفي ظل أية ظروف؟ كان جافاً قصير القامة بربطة عنق عقدت بشكل سيّئ على ياقة قميص مهملة. لم يكن مظهره ليوحي

بالمكانة المرموقة التي يحتلها ذلك أنه يشغل منصب قائد شرطة القسطنطينية.

- ماذا تريدون مني؟

غطت الجلبة جزئياً على الرد، إذ كان بعض الأشخاص ينزلون عبر الدرج أو يُجرون بالقوة. وهكذا تذكر هوفانيس أنه من المحتمل أنه ليس عضو البرلمان الوحيد المعين للإقامة بهذا اليالي[٧٥].

- اتبعونا!

ابتسم هوفانيس. كان نصفه العلوي عارياً، فطلب:

- هل يمكنني أن ألبس؟

- خمس دقائق.

لم تبدُ له خمس دقائق تمر بتلك السرعة أبداً. لكن وقبل كل شيء، في أي يوم كنا؟ الرابع والعشرين من نيسان؟ كان الربيع قد حل، وبعد يومين سيكون في سن الحادية والأربعين من عمره. لم يجد من المجدي وضع ربطة عنق ليحضر أمام بدري.

- أنا مستعد.

ما إن بلغ صحن البيت حتى لمح بقع الدم تلطخ الدرجات. كانت شاحنة عسكرية مغطاة تقف في الشارع. رُفع هوفانيس! كان يوجد بها حوالى عشرين رجلاً صُفوا على مقاعد هنالك. قال أحدهم مجبراً نفسه على الابتسام:

- باري كالوسدا! مرحباً!

ظل هوفانيس ذاهلاً، فقد كان المتحدث حايك طيراقيان، عضو الدشناك، وعضو البرلمان السابق.

تلعثم قليلاً وهو يسأل:

---

(٧٥) بيت من خشب على البوسفور. الأصل.

- أنت؟

- أجل يا صديقي!

وأشار إلى الآخرين بحركة من يده قائلاً:

- هم أيضاً...

سأل أحدهم قائلاً:

- هل يملك أحد هنا فكرة عما يحاك ضدنا؟

رد حايك:

- أبداً. يمكنني أن أخبرك بأنهم لا يأخذوننا لنتناول فطورنا لدى السلطان.

أعلن صوت غاضب:

- أنا أعرف. لقد قرروا قطع رأس شعبنا قبل أن يهشموا ساقيه.

عندما ارتجت الشاحنة، سأل هوفانيس:

- هل كلكم من الدشناك؟

رد صوت آخر:

- أنا لست كذلك. أنا روبن زاراطاريان رئيس تحرير الزامارت، وأشار إلى الشخص الجالس جواره مضيفاً، وهذا نيرسيس بابازيان وهو صحافي.

وقدم أحد الركاب نفسه بالقول:

- أنا أيضاً لا أنتمي إلى الدشناك، ولم أمارس السياسة أبداً، أدعى أريستاكيس غاسباريان، وأنا محام.

ثم قال شاب في حوالى الثلاثين من العمر:

- وأنا الأقل شأناً منكم جميعاً. اسمي فاروجان، و...

صرخ هوفانيس:

- فاروجان؟ دانيال فاروجان؟ الشاعر؟

- إذا شئتم.

وعمّ الذهول مع ترديد اسمه بإعجاب:

- فاروجان، فاروجان.

قال المحامي:

- قرأت كل شيء لك.

ثم استشهد من فوره قائلاً:

- اعلم جيداً يا صديقي أن غنائي روى ألم المتعة ومتعة الألم. أنظر إلى كأس القلب حين يملأ نبيذاً ينسل دم الرب. أنت عبقري!

اكتفى الشاب بإخفاض عينيه محرجاً.

قدم آخرون أنفسهم أيضاً. آرام أندونيان، وهو صحافي، والأب كريكور بالاكيان، والأب كوميطاس...

بدت ندف العرق على جبين هوفانيس. هكذا كان الأمر إذاً، وكما أحسه، لا يتعلق بمجرد تفتيش من دون أذى، كلا، كان هناك مصطلح آخر لما تقدم عليه الشرطة التركية هو السلب.

أجل، لقد كان الأمر كذلك.

والواقع أنه وفي الوقت نفسه من تلك الليلة عينها، اعتقل حوالى مئتين وخمسين من أعيان ومثقفين وصحفيين وساسة وكتّاب وفنانين. فقبل مدة طويلة، أعدت بعناية قائمة بأسماء الشخصيات الموقوفة، وأرسلت رسائل تخفي التعليمات الواضحة من قبل بدري باي إلى كل أقسام شرطة العاصمة. ولم يُترك شيء للصدفة.

وسمعت أصداء طلقات مدفعية متفرقة من خرير محرك الشاحنة.

سأل أحدهم بقلق:

- ما كان هذا؟

- من المرجح أنها أساطيل الحلفاء الحربية تدك التحصينات الموجودة حول العاصمة.

صرخ فاروجان:

- لكن هذا جيد، وهو يعني أنهم آتون لإنقاذنا!

تبادل الركاب نظرات خفية، بينما حدّث هوفانيس نفسه بأن الشعراء فعلاً أشخاص حالمون ولطفاء. ومن خلال غطاء الشاحنة، كانت تُرى مياه البوسفور تهتز. كانت خضراء زمردية. لماذا رآها حمراء بلون الدم؟

القسطنطينية، ٢٦ نيسان ١٩١٥، إقامة طلعت باشا

وزع كبير الخدم صراخ احتجاجه، غير أن كريكور زوراب وفارتكيس سيرانغيليان لم يلقيا له بالاً، ذلك أنهما بعد أن عبرا بهو البيت أخذا طريقهما إلى البهو. كانا يعرفان المكان جيداً، لأنهما كانا معتادين ولفترة طويلة على المواظبة على زيارته. كان المكان أقرب إلى قصر منه إلى بيت أحد الأعيان، حيث يتجاور معجون المرمر والرخام ونسيج البروكار والحرير. كانا على وشك الدخول إلى البهو، عندما وبخهما طلعت باشا الأشعث، والذي كان يضع ثوب نوم من الساتان، إذ قال:

- هل فقدتما عقليكما؟

كان الوزير يقف أعلى سلم رخامي كبير، وكان بالإمكان أن يُفهم بأنه غادر لتوه سريره مكرهاً.

رد عضو البرلمان بصوت أجش قائلاً:

- ليس هذا وقت البروتوكول. ما حدث وحشي.

- لا شيء كان متوقعاً.

- متوقع؟ متوقع؟ منذ متى؟ ومن قبل من؟ لا أصدق أنه وفي ليلة الرابع والعشرين، وفي الوقت نفسه الذي كانت تحدث فيه هذه العملية

القذرة، جررتني أنت وخليل باي لنلعب الورق في «دائرة الشرق» وكأن شيئاً لا يحدث! خليل الذي أذكّرك بأنه وجد مأوى لديّ في الوقت الذي كانت رأسه مطلوبة من قبل رجال عبد الحميد! هذا قذر! قذر!

برباطة جأش أخذ طلعت وقته ليجلس على كنبة قبل أن يقترح بصوت تعب:

- كريكور يا أخي، يا صديقي. ما رأيك في قهوة لذيذة؟ لا شيء أفضل منها من أجل توضيح الأفكار.

صفق بيديه، ثم سأل فارتكيس:

- قهوة سوداء لك أيضاً، أليس كذلك؟

رفض عضوا البرلمان معاً عرض الانسجام المقدم إذ أصر كريكور بالقول:

- يبدو أنك لا تدرك خطورة الوضع.

- مع أن الوضع واضح. فكل الأرمن الذين قاموا بالفعل أو بالريشة أو بالحركة لتشييد وطن أرمني مستقل أو يمكنهم أن يفعلوا ذلك يوماً، يتم اعتبارهم من الآن فصاعداً كأعداء للدولة، وينبغي عزلهم بالنظر إلى الوضع الراهن.

رد فارتكيس:

- هذا ظلم! يوجد من بين الموقوفين العديد من الأشخاص الذين لم يحفلوا يوماً بالسياسة! ما ذنبهم؟

تفادى طلعت السؤال وأمر الخادم الذي تقدم منهم بالقول:

- ثلاثة فناجين من القهوة...

ومن فوره سأل أحد زائريه قائلاً:

- كيف تأخذ قهوتك؟ سادة أو أورطة أو إكيرلي[٧٦].

---

(٧٦) من دون سكر، متوسطة السكر أو كثيرة السكر. الأصل

صاح كريكور:

- نحن نخوض في مسألة حياة أو موت مئات الأبرياء!

تدخّل فارتكيس بالقول:

- منذ أربعة أعوام، وبطريقة ممنهجة، أحبطتم كل جهودنا، وزعزعتم إيماننا. أخذتم ببطء لكن بثبات تمتصون دمنا! وفي النهاية يكتشف أن لجنة الاتحاد والتنمية أكثر وقاحة وأشد خطورة من عبد الحميد نفسه.

- قهوة.

ثم صحح طلعت بهدوء أعصاب:

- هذا صحيح. كانت هناك من دون شك أخطاء ارتكبت، وسنقوم بتصويبها، وسيحرر الأبرياء إذا ما وُجدوا. صدقاني، أنا على ثقة دائماً بالشعب الأرمني. ولا تستهدف التدابير المتخذة إلا أعضاء الأحزاب السياسية، مع أني مقتنع بأننا لا نملك أي عامل يؤشر إلى وجود أي حركة تسعى إلى زعزعة استقرار الدولة. وعلى الرغم من ذلك، ومن أجل أمن البلد، قدرنا أنه من الأفضل عزل المناضلين السياسيين مؤقتاً، وحل الأحزاب.

تدخّل فارتكيس بالقول:

- في هذه الحال، وبما أنه لا يوجد أي أثر لمعارضة الحكومة، ففحص كل حالة على حدة من المعتقلين لا معنى له. فالمنطق يفرض أن يحرروا جميعاً ومن دون تأخير. من جهة أخرى، لمَ لم يتم اعتقالنا؟ ما الذي شرفنا بهذا العفو؟

تبنى طلعت هيئة غريبة وهو يقول:

- ليست الأشياء بهذه البساطة.

ثم واصل بالقول:

- سيداي، في أيام ضعفنا وبعد أن سقطت أندرينوبل أمسكتم

بخناقنا، وفتحتم مسألة الإصلاحات. من المنطقي إذاً أن نغتنم الوضع الملائم الذي نتواجد إزاءه. أليس كذلك؟

- تغتنمون؟ ما هو الهدف؟

بفظاظة مفاجئة، بقدر ما هي تحمل تهديداً، أخذ الوزير ينظر إلى الرجلين كل على حدة:

- لتشتيت شعبكم إلى حد أنكم ستنزعون من رؤوسكم أية فكرة عن الإصلاح لمدة خمسين سنة. والآن يمكنكما تركي رجاءً.

وفي الحال، ظهر في مدخل البهو عسكريان متمنطقين بمسدسين، بعيون متوعدة.

لم يعد يشك فارتكيس أو كريكور عند خروجهما من قصر طلعت في أن مصيرهما رهين بإخفاق أو نجاح المواجهة المسلحة التي كانت تدور في تلك اللحظة في مضيق الدردنيل. وعند الطرف الجنوبي لشبه جزيرة غاليبولي، كان خمسة وسبعون ألف رجل الذين أرسلهم تشرشل وأغلبهم من الأستراليين والنيوزيلانديين قد وطئوا اليابسة، بينما وفي الجهة المقابلة، لم يكن قائد الدفاع التركي سوى... الجنرال ليمان فون ساندرز، وكان يعمل تحت إمرته عقيد يبلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة، ويدعى مصطفى كمال. وإذا ما سارت الأمور لغير مصلحة الإمبراطورية فيمكن لفارتكيس وكريكور أن يكونا مجديين عند التفاوض، وفي حال حدوث العكس، فإن مصيرهما يكون قد حدد من قبل.

إرزروم، ٢٧ نيسان ١٩١٥

تجمّع الحميديون، فرق الموت تلك، أمام ساحة الكنيسة في عاصفة من الغبار. وفي كل مكان تقريباً، كان أعضاء الميليشيات

المنضمون حديثاً إلى التنظيم الخاص، وقد تمنطقوا، قد أخذوا مكانهم في المناطق الاستراتيجية، أمام الدكاكين والمخازن.

ولثالث مرة، يكرر بيدروس دي أغوبيان المستقوي بفعل مركزه كمسؤول ديني:

- لا تملكون الحق!

بدت على الوجه الكردي الذي توجه إليه بالحديث ابتسامة وهو يجيب:

- وأنا أقول لكم بأن الحق غير مكانه!

- إذا ما صادرتم الطعام والسلع الغذائية والمواشي، كيف نستطيع أن نعيش؟ أخبروني؟ كيف؟

دنا منه رجل كان يرتدي بذلة أنيقة. ومن فوره تعرف على الدكتور بهاء الدين شكير.

قال ساخراً:

- تعيشون يا أبت؟ هل قلتم «تعيشون»؟ هل سألتم أنفسكم هذا السؤال عندما اغتيل جنودنا المساكين على يد الخونة من بني عرقكم في ساريكاميش؟ هه؟ هل سألتم أنفسكم هذا السؤال ولو لمرة واحدة؟

وبصق مسؤول التنظيم الخاص أرضاً:

- أيها الكاهن! لديكم ربع ساعة لتجميع كل تجار المدينة هنا!

وعلى بعد أمتار منهم، كانت مجموعة أخرى قد اقتحمت ورشة الصياغة لساركيس ستيبانيان. وكان الصائغ وهو رجل قصير القامة، رقيق العظم أصلع الرأس، يرتعش مثل ورقة.

- لا تقتلوني يا أفندي. أرجوكم. من أجل أولادي.

ثم أضاف وهو يشير إلى المجوهرات الموضوعة على الرفوف قائلاً:

- خذوا كل ما تريدون...

سخر أحدهم قائلاً:

- لأننا ستتركها لك؟ هيا تفضلوا! إنه الذهب الأرمني!

وفي كل مكان بإرزروم، وبدقة كبيرة، كانت المشاهد عينها تعاد وتكرر. كان الأمر وكأن يداً غير مرئية عمدت إلى تحرير مياه حُبست طويلاً.

كان فاهي طوماسيان الذي أخرجته الجلبة إلى الشرفة، أول من لمح التشيتي يقتربون بخطى واسعة. كان من بينهم أكراد تعرف عليهم بقلنسواتهم من اللبلد بالوبر، ومن دون تردد، دخل المطبخ، وأخذ أول سكين صادفه أمامه.

رجاه آشود قائلاً:

- لا يا أبي! لا تفعل هذا! لا!

انضمت آنا إلى رجاء زوجها إذ قالت:

- آيريغ! فكر في الولدين! أستعطفك. فكر في الولدين!

تجمع آشود وشوشان المرعوبان بإحدى الزوايا يرقبان المشهد.

وأخذ الباب يُدق.

أمر فاهي قائلاً:

- لا تفتحوا!

- اسمح لي أن أفتح يا أبي، وأزل هذا السكين.

- افعلوا ما أقوله لكم، أرجوكم.

استسلم الرجل الطاعن في السن.

وزادت حدة دقات الباب.

صرخت شوشان:

- أسرع يا أبي! سيكسرون الباب.

أخذ مدفع بأحد التحصينات الواقعة عند خاصرة جبل ديفي -

بويون يرعد. وارتفعت في العنان صرخات اختلطت بوقع حوافر أحصنة جامحة.

أزال آشود عصا المزلاج.

دخل أولاً رجل هو القائد من دون شك. كان بلحية قصيرة شذبت على شكل خنجر، وجعل تصلُّب فكّيه وجنتيه تبرزان.

- أسلحتكم، عليكم تسليمنا كل الأسلحة التي بحوزتكم!

شرح آشود بصوت رصين:

- أنا آسف، ولكن ما من سلاح أسفل هذا السقف.

لم يبال الرجل بالجواب إذ أمر:

- فتشوا! فتشوا كل الأركان!

تفرق التشيتي ومن خلفهم الأكراد في فورة اهتياجهم في المنزل، فرفعوا السجاجيد والأثاث وأفرغوا الجوارير، وقلبوا الخزائن وفتحوا الدواليب ورموا ما حوت أرضاً مالئين المنزل بالهيجان والذل.

وبعد حوالى عشر دقائق، خرج أحد أعضاء الميليشيا من غرفة نوم الزوجين حاملاً علبة مجوهرات صغيرة، كان قد تخلص من غطائها قائلاً:

- لم تذهب زيارتنا هباءً!

أخذ عقداً فضياً، ولوح به فوق رأسه، ومن فوره قال آشود:

- أعده لي!

وفي موجة ضحك صاخبة، ألقى الكردي العقد عند أقدام رفاقه كما لو أنه رمى عظماً إلى سرب من كلاب الصيد.

احتجت شوشان قائلة:

- لا! لا! إنه عقد ميدز ماما!

ومفاجئةً الكل، ارتمت على العقد وأخذته ثم ضمته إلى صدرها وتكورت على الأرضية مستعدة أن تعض.

تقدم الكردي منها. خطوة واحدة فقط. ذلك أن آشود تناول السكين الذي تخلى عنه فاهي ووقف بينه وبين الفتاة الصغيرة، متحدياً الرجل بنظراته، وقد ملئت حدقتاه بغضب كبير:

- شعرة واحدة! إذا ما لمست شعرة واحدة من ابنتي، فستموت.

هناك سارع أعضاء الميليشيا إلى إزالة مفاتيح السلامة ببنادقهم، وأمر صوت قائلاً:

- تنحَّ جانباً! وبسرعة!

ودوى المدفع من جديد.

وفي لحظة خاطفة، تساءل آشود إذا لم يكن الروس على أعتاب إرزروم.

- إرمِ السكين!

- لا تقترب من ابنتي!

وفي هذه اللحظة بالذات، طغى صوت آسيم تيرزيوغلو على كل الجلبة إذ قال:

- توقفوا! توقفوا! لقد فقدتم عقولكم.

كان الضابطية قد دخل لتوه إلى المنزل مرفوقاً بثلاثة دركيين محملين بالبنادق في أيديهم.

كرر قائلاً:

- توقفوا! إنهم أصدقاء، ولم يقوموا بأي سوء.

استدار قائد أعضاء الميليشيا نحوه، ثم قال:

- ما اسمك؟

- لا يهم!

- ما اسمك؟

- آسيم تيرزيوغلو.

- بأي حق تسمح لنفسك بالتدخل؟

- لا حق لي. لا حق لي بتاتاً سوى العدالة والأخوة. أعيد لكم مرة أخرى، هؤلاء أصدقائي، وهم...

- اصمت! هذه مسألة لا تعني الدرك.

- على العكس من ذلك تماماً! نحن من أوكلت إلينا مهمة الحفاظ على النظام في هذه المدينة، بينما أنتم...

استل الرجل مسدسه، ووضعه على صدغ آسيم وهو يقول:

- كلمة، كلمة واحدة فقط، وسأفجر رأسك.

وبدوره، وفي حركة واحدة صوب رفاق آسيم الثلاثة بنادقهم إلى عضو الميليشيا. فهمس الدركي:

- أطلق النار. أطلق النار وسيطلقون النار أيضاً.

تأوهت آنا:

- هل تريدون إحداث مذبحة هنا؟

مغتنماً الاضطراب الحاصل، رفع آشود شوشان من الأرض، وضمها إلى صدره.

أمر القائد قائلاً:

- أتركها، وإلا...

- وإلا لا شيء!

وأمام الأنظار الذاهلة، تقدم الرجل المسن من التركي ثم أعلن:

- كريم دوردان؟

أخذ عضو الميليشيا يحملق فيه ذاهلاً، ثم قال:

- أعد ما قلته.

- كريم دوردان. أليس هذا هو اسمك؟

- ماذا...؟ كيف...؟

- كيف عرفتك؟ إذا ما قلت لك، هاغوب تيليريان؟ ألا يعني لك هذا الاسم شيئاً؟

ترنح عضو الميليشيا، وقام بحركة «لا» برأسه قبل أن يكمل فاهي جملته.

- مع أن الأمر حدث بالأمس فقط. سبع سنوات لا تعني الشيء الكثير بالنسبة لشاب مثلك. على أي حال، أملك ذاكرة قوية.

- طبعاً.

أصر فاهي بالقول:

- تيليريان! هاغوب تيليريان، صديقي. صديقنا. حدث هذا في إرزاندجان. طرقت بابه في عز الليل. وصودف تلك الليلة أني كنت أتناول العشاء في بيته. كان ذلك في فترة الثورة. الموت لعبدالحميد! وليحيَ «الاتحاد»! كان السلطان قد أرسل وحدات عسكرية في أعقابك ووراء رفاقك الثائرين مثلك. فمنذ...

- أنت تهذي!

- فتح لك هاغوب الباب واستضافك، وأنقذك من بين أيدي ملاحقيك، وخبأك شهراً في بيته بين أفراد أسرته، وأبنائه سوغومون نورة والأصغر لوفون. أنت لم تنس ذلك، أليس كذلك؟

- هل ستصمت؟

- شهرا قدموا لك الطعام والشراب.

ثم أكد على كلماته، مقطعاً إياها إلى أجزاء إذ قال:

- تي لي ريان! ونحن آل طو ما سيان!

وأشار إلى النافذة، ومن خلفها إلى المدينة، مضيفاً:

- وأبعد قليلاً، هناك آل بوايدجيان، وآل كالوستيان، وكل الآخرين. مليونان من إخوتنا. من أشباهنا. وأنت تريد قتلنا؟ أتقتل من أطعمك؟

- أعيد مرة أخرى أني لا أعلم عمّا تتحدث!

- لا تعلم.

وازدادت نبرة صوت فاهي ارتفاعاً:

- أنا أعلم إذاً! في تلك الليلة كنت تنزف دماً!

وبحركة سريعة، أزاح فاهي الطربوش الذي كان يغطي رأس التركي، وأشار إلى جرح أعلى أذنه اليسرى.

- أعلم يا كريم دوردان!

- تنح جانباً!

ابتسم فاهي ابتسامة حزينة، ثم قال:

- البارحة فقط، أنفر وجمال واليوم دورك. كلكم فقدتم ذاكراتكم.

مال الرجل، وأمر بصوت جاف ووجه محتقن قائلاً:

- هيا! أضعنا الكثير من الوقت هنا! اتبعوني! سنلتقي يا أفندي.

عند خروجه، تقوس ظهره قليلاً كما لو أن كل ثقل الماضي وُضع فجأة على كتفيه.

١٦

إرزروم، اليوم الموالي، ٢٨ نيسان ١٩١٥

أكد آسيم بالقول:

- أجل ، إنه العدد الصحيح. مئتا شخص موقوف. لقد أعددت قائمة بأسمائهم.

وأخرج من جيب سلفاره ورقة مزيتة، وأخذ يعد:

- لوفون بلازانيان، وهرانت كوزيان، وميهران. . .

رجاه آشود قائلاً:

- هذا غير مجد. من دون شك أني أعرف غالبيتهم، أين أخذوهم؟

- اقتيد حوالى ثلاثين منهم إلى السجن المركزي من أجل الاستنطاق، أما الباقون. . .

ورفع آسيم ذراعيه إلى السماء، علامة على الضعف، وأضاف:

- المؤكد أنهم لم يعودوا في إرزروم. قال البعض بأنهم رأوهم عند منتصف الليل على الطريق في مخرج المدينة، متكومين في العربات، ومصفدي الأيادي. على كل حال، فكل شيء يشير إلى أن هذه القضية ليست حالة معزولة، ذلك أنه وفي ماراش أيضاً، عمدت السلطات إلى اعتقال الأعيان الأرمن، وفي زيتون والمحافظات

المجاورة لها، حدثت أشياء غريبة. وفي ولاية سيفاس، اعتقل العديد من القصابيي تابوري (فيالق القصابين) والواضح أن إخوتكم في الدين يُطلقون هذا اللقب على أعضاء المليشيات، قساوسة ومدرسين الذين تم إعفاؤهم من التجنيد، حتى إن بعض المعتقلين أُعدموا عند سفوح سيف.

أمسك يدي فاهي وضغط عليهما مضيفاً:

- ثق بي يا صديقي. عليكم أن تتركوا إرزروم من دون تأخير.

- لا تُصر يا آسيم. سبق أن اقترح عليّ ابني الشيء ذاته، ولم يتغير ردّي، وهو لا! لن تستطيع قوة أن تطردني من بيتي.

- عُد إلى صوابك يا فاهي. أنت لا تتخيل ما يُعد له! أنت لا تتخيل. سيُطفئون الشمس، وسيلقون الليل عليكم...

- لايهمني!

- فاهي! ابذل مجهوداً، إذا لم يكن باسم ربك فليكن باسم الله! قبل أن أحضر إلى هنا، سمعت بالصدفة حديث الدكتور شكير، وأفراد شرطته. كل الأناضول ستسقط في الهاوية.

سأل آشود:

- ماذا تقصد؟

- تحدث شكير عن عملية تنبني، وأنا أستعمل مفرداته هنا، «على نقل العناصر المشبوهة من الأرمن بعيداً عن مناطق الحرب إلى مناطق أكثر أمناً بعيداً عن التأثير الأجنبي».

صاحت آنا:

- ماذا؟ هل سيطردوننا من أراضينا؟

- أخشى أن ذلك ما سيحدث، وسيقومون به من دون مشاعر. لقد كنت شاهداً على تصميمهم. البارحة، وعندما غادر أعضاء الميليشيا منزلكم، قصدوا الشيخ شيراز خفية، وأنتم تعلمون عمن أتحدث؟ وعند

تفتيش حديقة بيته، تصوروا أنهم اكتشفوا بئراً مخبأة تحت عشب بري. من الواضح أنها حفرت منذ سنين طويلة يعلمها الله وحده. وكان شيراز يجهل وجودها جهلاً تاماً، لأنه انتقل حديثاً إلى ذلك البيت. وأمل التشيتي أن يجدوا أسلحة مخبأة في تلك البئر، إلا أنهم لم يجدوا بها شيئاً. وهكذا وفي حماة يأسهم، أنزلوا غيظهم بالمسكين إذ اقتادوه إلى مقر الدرك، وأمام ناظري طفقوا يعذبونه. لا يمكنكم تخيل الأمر! بلغ بهم الأمر أن اقتلعوا أظافره مستعملين الملاقط. وما إن كان يفقد وعيه حتى يعيدوه إليه بصب الماء البارد عليه ثم يعيدون الكرة عليه مرة تلو أخرى تلو أخرى. وفي النهاية، قدم له شرطي من شرطة الدكتور شكير وثيقة حيث يعترف فيها بإخفاء قنابل وأسلحة في البئر. لم يستطع أن يوقع على الوثيقة، ذلك أنه توفي.

صدرت عن آنا صرخة.

- تسري شائعات بأنهم سيصدرون قانون تجنيد جديداً يخص هذه المرة الأرمن الذين تتراوح أعمارهم ما بين خمس وأربعين وستين سنة. وإذا ما صدقت هذه الشائعات، فإن آشود سيكون معنياً بالأمر.

- هذا غباء! لماذا يجيشوننا إذا ما منعونا من حمل السلاح؟

- يقولون من أجل القيام بأعمال ذات نفع عام، لكن لننسَ كل هذا، أعتقد فعلاً أن عليكم مغادرة المدينة من دون تأخير.

وافق آشود بالقول:

- معه حق. لا يمكننا البقاء. هذا خطير جداً. كان الأمر وشيكاً جداً البارحة.

وقف فاهي فجأة ثم قال:

- الرحيل! الرحيل! حسناً أخبروني إذاً أين سنذهب؟ هيا؟ أجيبوني! نرحل لنتيه في طرقات الأناضول؟ مثل الشحاذين؟ مثل الحقراء؟

اقترحت آنا بخجل:

- يمكننا أن نرحل إلى القسطنطينية عند هوفانيس.

- هوفانيس؟ آخر أخباره وصلتنا قبل شهرين. لم تعد تصلنا رسالة منه بفعل الرقابة.

ثم ختم صارخاً:

- نحن لا نعلم إن كان دوماً من أهل الدنيا! إن كان ابني دوماً من أهل الدنيا! ابني!

لان جسد الرجل المسن مثل قوس، ورفع ذراعيه إلى السماء قبل أن يتركهما تهويان على طول جسده كما لو أن ذلك حدث تحت تأثير فورة غضب.

دنا منه آشود قائلاً:

- اهدأ يا آيريغ. ستصيب نفسك بالأذى. هوفانيس حيّ يرزق. اطرد أفكار السوء هذه من رأسك، أرجوك.

- أنت لا تفهم. لا أحد يفهم. تريدوننا أن نرحل لننقذ أنفسنا، لا تعلمون إذاً أنه ما إن يتنازل المرء، وما إن يقبل بأن يتخلى عن حبة قمح من حقله، عن قطرة ماء من نهره، عن حجرة من جبله، فلن يجد في يوم عودته حقله أو نهره أو جبله. ومن أخذوا مكانه صادروا حياته. هذا ما سيحدث إن هجرنا منزلنا.

عمّ الصمت أرجاء الحجرة. كان صمتاً خانقاً. كان أشبه بغطاء غير مرئي غير أنه ثقيل بشكل غير معقول.

آنى لهم بكلمات قادرة على تكذيب الرجل المسن؟ كانوا يعلمون في أعماقهم بأنه مصيب تماماً، فإذا ما تركوا بيتهم ومدينتهم، فلن يتمكنوا أبداً من رؤيتهما.

وفجأة وعلى عكس ما توقعه الجميع، أعلن فاهي قائلاً:

- حسناً، سنرحل.

استدار آشود، ثم قال:
- لكن يا ميدز آيريغ، أنت . . .
- سنرحل من أجل الولدين. فقط من أجل الولدين.
ثم سأل آسيم:
- ماذا تقترح؟
فكر الضابطية قليلاً ثم قال:
- لا أرى إلا مكاناً وحيدا ممكناً. مدينة فان.
سألت آنا متعجبة:
- فان؟ لكنها تبعد عن هنا بأكثر من أربعمئة كيلومترا!
- أجل، لكنه المكان الوحيد الذي يمكنكم أن تحصلوا فيه على فرصة للنجاة. فالمدينة ثارت على سيفدي باي، نسيب أنفر، وهي تقاوم بشراسة، والقوات الروسية غير بعيدة عنها.
ردد آشود:
- أربعمئة كيلومتر. أيام من السفر. بأية وسيلة؟ فنحن لا نتوفر إلا على حصان واحد، وعربة قديمة لم يُستخدما إلى يومنا هذا إلا في نقل المواد الغذائية من السوق. آسيم يا صديقي، فكرتك غير قابلة للتطبيق.
هز الضابطية رأسه، ثم قال:
- أستطيع أن أدبر لكم عربة واسعة بما يكفي لاستيعاب ستة أفراد.
فتحت آنا عينيها دهشة قائلة:
- لست جاداً. أين ستجدها؟
- نسيبي.
- وهل سيوافق؟
- فلنقل بأني لن أترك له الخيار.
كانت آلاف الخواطر المتناقضة تتصارع في نفس آشود. ما العمل؟ فليست الطرقات غير آمنة وحسب، ولكن لا شيء يضمن لهم أن فان

لن تسقط بين يدي الأتراك عند وصولهم إليها. وكان هناك مشكل التذكرات. أنى لهم السفر من دون هذه الوثائق؟ وفي حال تعرضوا للتفتيش، فمن المؤكد أنهم سيسجنون.

أصر آسيم بالقول:

- لا وقت لدينا.

همس آشود:

- لم أعد أعلم شيئاً. لم أعد أعلم شيئاً. أحتاج لأن أفكر. امنحني بعض الوقت.

قام آسيم ثم قال:

- حسناً. لكن لا تنسَ أن أعداءكم هم من يتحكمون بالوقت.

في غرفة النوم، لم يفقد آرام وشوشان الملتصقة أذناهما بالحائط كلمة واحدة من هذا الحديث. تأمل أحدهما الآخر مضطربين.

في مكان ما من الأناضول، في الوقت نفسه

رائحة البول والعرق تخنق عربة القطار. كان الحراس قد أقفلوا النوافذ، وصار المكان خانقاً.

بطرف كم قميصه مسح هوفانيس جبينه.

وعلى الرغم من هدير القطار، فإن أغلب رفاقه المتراكمين مثل الدواب كانوا يغفون.

فمنذ ثلاثة أيام، والمناظر القاحلة تتعاقب وأمواج القمم البيضاء للجبال المتقطعة. لو لم تكن هذه المنازل القليلة المتجمعة في كفور، أو تلك الخطوط السوداء لآبار بأقران التوازن لاستحال الاعتقاد بأن أحداً عاش هناك أو سيعيش.

كيف أمكن هذا؟ هل فقد طلعت والآخرون عقولهم؟ هذا المقطع من الرسالة التي وجهها له صديقه القديم أنيوني سنة ١٩٠٨ عند عودته من المنفى يعود إلى ذاكرته إذ كتب «لا يمكنك أن تتخيل مقدار سعادتي وأنا أكتب من هذه المدينة حيث لا مراقبة ولا رقابة. فبعد اثنتين وثلاثين سنة من الصمت، هي ذي القسطنطينية تنشد «الحرية» والجمهور هائج. ما الذي أوصلهم لهذا؟» ثم طارت روحه إلى إرزروم حيث والده وأخوه والولدان. هل اتبعوا نصائحه أم بقوا في المدينة؟

رفع هوفانيس ركبتيه حتى أسفل ذقنه. كم تكون الساعة الآن؟ لقد صادروا ساعته. على أي هو يعلم كم مضى من يوم منذ رحيلهم، ويذكر جيداً كل الحلقات التي أعقبت اعتقالهم.

مضت الحافلة في الطريق حتى بداية الصباح، وبعد أن عبرت بهم بوابة السجن المركزي لميهرتاني المقام على أحد مرتفعات المدينة، ثم تم إنزالهم وأجبروا على الوقوف في صفين. كان حوالى خمسمئة معتقل آخر قد سبقوهم، وكلهم من الأرمن. قرأ أحدهم وهو من ذوي الرتب العالية أسماءهم من قائمة بيده، ببصمة تفخيم كبيرة. وما إن تم التأكد من أن لا أحد متخلف عن الجرد الأول، اقتيدوا، راجلين هذه المرة، إلى مقر الأمن الواقع على مبعدة أمتار من مكانهم الأول. وطوال هذا الوقت، استمر هدير المدافع الآتي من البحر. من الواضح أن الطرادات الإنجليزية والروسية استعادت هجومها، وأخذت تقصف حصون المدينة.

ثم وصلت لحظة التفتيش. أوراق ونقود وأقلام ومذكرات وساعات سلبت منهم جميعاً.

شرح أحد الجنود قائلاً:

- لا تقلقوا، سيعاد لكم كل شيء فيما بعد.

خاطر هوفانيس بأن سأل:

- بعد ماذا؟

ولم يكن هناك من رد على سؤاله.

ثم ومن غير سبب واضح، أُخذ بعض المعتقلين ومن بينهم هوفانيس إلى الاستنطاق.

مروا من خلال سلم قذر، وفي قمة الدرجات ممر آخر ثم باب في آخره أُفرج قليلاً. كانت غرفة مجردة من كل أثاث وباردة. كانت أرضيتها متسخة بأعقاب السجائر، وقد تقشر كلس الجدران. أما نافذتها الوحيدة فكسرت وأبقيت الآن بالورق المصمغ.

كان أحد الموظفين يجلس خلف مكتب يدوّن. وعلى طاولة على يمينه، تكدست الملفات، وخلفه علقت صورة لطلعت باشا.

سأل الرجل من دون أن يزيل عينيه عن الورقة:

- هوفانيس طوماسيان؟

- أجل.

- مولود في ١٨ شباط من سنة ١٨٧٤ بإرزروم؟

- صحيح.

- إحدى وأربعون سنة؟

أوشك هوفانيس أن يرد عليه بأنه يعرف العد، غير أنه اكتفى بترديد:

- إحدى وأربعون سنة.

قرر الرجل أخيراً أن يرفع رأسه.

كان بوجه شاحب، وشارب كث غطى شفته العليا، ورأسه مغطاة بالطربوش الأحمر الاعتيادي، غير أن أكثر ما كان يشد في وجهه من بين كل الأشياء الأخرى، عيناه. عينان بزرقة مصقولة، كما لو أن الرجل كان بصيراً.

- من الدشناك؟

- أجل.

- عضو بالبرلمان منذ سنة ١٩٠٩؟

- أجل.

ويهدوء كبير، وضع الموظف مقبض قلمه قرب دواة، والتزم الصمت قبل أن يعلن:

- تيديسي...

قطب هوفانيس حاجبيه سائلاً:

- عفواً؟

- تيديسي؟ إرهابي؟

- فهمت جيداً، عن أي إرهابي تتحدثون؟

رفع الرجل سبابته نحو هوفانيس ثم قال:

- ٢٦ آب ١٨٩٦، الهجوم على البنك الإمبراطوري العثماني.

ارتسم على وجه هوفانيس تعبير شك، وهو يقول:

- وبعد؟

- إرهابي!

- هل عليّ تذكيركم بأنه ومنذ ذلك التاريخ حدثت الثورة؟ وبأن الدود نخر عظام عبدالحميد، وأننا نحن معشر الأرمن قد أظهرنا تضامننا مع لجنة الاتحاد والتنمية...

قاطعه الرجل بجفاء:

- أين هو كاريكين باسترمادجيان؟

لكن في أي شيء يريد إقحامه؟

- تقصد آرمن غارو؟ أنّى لي أن أعرف؟

أخرج الرجل من جيبه علبة سجائر مدعوكة، وأشعل سيجارة، ثم قال:

- فر من الجندية، مثلك تماماً.

- فر من الجندية؟ هذه حماقة! لقد دفعت البدل[٧٧]، كما يسمح لي القانون بذلك. وقمت...

- لا يعني البدل العمال. يلزم المرسوم الأخير كل الأرمن القادرين على حمل السلاح، وعلى الذين أعفوا في السابق من الخدمة العسكرية بأن يتقدموا إلى أقرب مركز للدرك وإلا كان مصيرهم الموت.

تساءل هوفانيس إن كان لا يعيش مشهداً لكاراغوز، بطل مسرح الظلال الذي أسعد كثيراً أطفال القسطنطينية، كل الأرمن القادرين على حمل السلاح؟ لكن هذا يشمل كل الرجال من اثنتي عشرة سنة إلى سبعين سنة! كان ذلك سخيفاً!

- إذا ما أخبرتموني ماذا تريدون مني؟ وما سبب اعتقالي؟ ألن يكون ذلك أكثر بساطة؟

لم يرد الرجل فوراً، إذ سحق سيجارته ووجّه سبابته إلى هوفانيس متوعداً:

- احذر! ولا تكن مخادعاً! ما هي أسباب اعتقالك؟ أنت تعرفها جيداً.

- حسناً. هل تتفضلون بلطفكم البالغ بأن تذكّروني بها؟

- في أي يوم تم اعتقالك؟

- ليلة الرابع والعشرين.

- ومتى اعتلى سلطاننا المحبوب وظل الله على الأرض العرش؟

---

(٧٧) هكذا ورد في الأصل، ويقصد بها ضريبة. المترجم.

- سنة ١٩٠٩، أما عن التاريخ بالتحديد...

- في السابع والعشرين من نيسان! ٢٧ نيسان ١٩٠٩! وهو بالتحديد اليوم الذي عزمتم فيه على اقتراف أعمال ضد الباب العالي وباقي المنشآت العمومية. في يوم ٢٧ نيسان في ذكرى اعتلاء سلطاننا العرش.

أحس هوفانيس أن الأرض تفر من تحت قدميه. كان هذا مستحيلاً! هذا الرجل يهذي! اقتراف أعمال؟

- سخافة... كيف تستطيعون...

رفع الرجل الورقة الموضوعة أمامه، وقدمها إلى هوفانيس، قائلاً:

- وقّع!

- ما هذا؟

- تعترف هنا بأنك تتآمر ضد أمن الدولة، والإعداد مع رفاقك لأعمال ٢٧. أنت...

- أية أعمال؟ أي تآمر؟ أنت تقول أشياء لا معنى لها!

- وقّع!

- مستحيل!

وبغرابة، وعوض أن يثور الرجل، اكتفى فقط بحك رأسه مرات متواترة، ثم أخذ مقبض قلمه، وجمعه وأعلن بعد مدة قائلاً:

- حسناً! الله فالق الحب والنوى، مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي.

ثم أمر العسكري الذي ظل واقفاً على عتبة الباب منتظراً:

- خذه!

ثم اقتيد إلى السجن المركزي لميهرتاني.

قام العسكريون بعد ذلك بتقسيمهم إلى مجموعتين، وسرت شائعة

تفيد بأن المجموعة التي لم يكن هوفانيس ينتمي إليها سترحّل إلى سجن عياش قرب أنغورا[٧٨].

أما هو فقد أخذ مكانه في الموكب، ذلك أنه كانت هناك الآن حوالى ثلاثين عربة. وعبروا شارع حاجيا صوفيا في سحابة من الغبار على مرأى من المارين الفضوليين، ثم إلى منتزه غولان المائل على البوسفور في قمة سرايا توبكابي.

أعلن روبن زارتاريان رئيس تحرير الزامارات بصوت حزين:

- سيلقوننا إلى البحر، بعد أن يثقلوننا بالحجارة.

ارتفع صوت الشاعر فاروجان المرتعب:

- لا تتحدث عن السوء!

لم يلقوا بهم إلى البحر.

أُنزلوا من العربات.

وكما هي العادة في مثل هذه المناطق المكشوفة، أخذت الريح تصفع الوجوه، وتقذف رزماً من الزبد الغضوب إلى السماء.

إحتج المحامي أريستاكيس غاسباريان:

- أين يأخذوننا بحق الشيطان؟

وكردّ عليه، وجّه إليه أحد الضابطية ضربة بمؤخرة بندقيته على صدغه.

صاح بدري باي مصدراً أمراً، فتم تجميعهم ليقتادوا في صف إلى محطة القطار لسيركيدجي التي تبعد حوالى كيلومترين.

وما إن رأى حايك طيراقيان البناية حتى قال ساخراً:

- رائع! حلمت دوماً بأن أسافر على متن سريع الشرق. . . .

ولما كان سريع الشرق غير موجود فقد دُفعوا إلى قطار بخاري

---

(٧٨) الإسم القديم لأنقرة حتى سنة ١٩٣٠. الكاتب.

ربط إلى رصيف قرب المحطة. القطار البخاري رقم ٦٧ لشركة سيركيت، الكبير بما يكفي ليحمل كل المساجين إضافة إلى كل الضابطية والجنود.

لاحظ زارتاريان بالقول:

- لم أخطئ. سيغرقوننا.

طمأنه هوفانيس قائلاً:

- كلا، إنه النهار. لن تجرؤ السلطات أبداً على اقتراف جريمة مماثلة على مرأى وعلم الناس.

بسوداوية استنتج زارتاريان قائلاً:

- إذاً سيعدموننا فيما بعد، وبعيداً عن هنا.

وخلال عشرين دقيقة، وقف القطار البخاري جوار رصيف حيدر باشا. من هذه المحطة، عادة ما تنطلق القطارات في اتجاه الأناضول. سيؤخذون إلى هناك إذاً. والواقع أنه وبعد انتظار دام ساعتين، وصل موكب خاص إلى الرصيف. وأصعدوهم على متن القطار البخاري. كانت الأنوار مطفأة والأبواب والنوافذ مقفلة.

- لستُ أفهم يا هوفانيس. هل يمكنك أن تشرح لي لماذا يفعلون بنا هذا؟

اجتثّه صوت حايك طيراقيان المتعب من هواجسه، فقال:

- لست أعلم من قال «لا يوجد إلا شيئان خالدان: الكون والحماقة البشرية»، ولست أملك يقينا بشأن الكون.

١٧

إرزروم، ٢ أيار ١٩١٥

اقتحمت مديرة المدرسة ماريام بيدروزيان قاعة الدرس، وابتدرت آشود قائلة:

- بارون طوماسيان، تعال بسرعة! أرجوك! بسرعة!

كانت شاحبة جداً، وعصبية جداً إلى حد أنه رأى أنه من غير المجدي أن يسألها عن أسباب تدخّلها المفاجئ هذا.

أمر الأطفال قائلاً:

- أيها الأولاد، لا يخرجن أحد منكم. انتظروني هنا عاقلين. اتفقنا؟

رد الأطفال الخمسة عشر، ومن بينهم شوشان، بصوت واحد قوي

- أجل بارون!

في باحة الاستراحة فقط، تمكن آشود من سماع الأصوات الغريبة التي تصعد إلى السماء. هل كان ذلك دوي الرعد أم زلزال؟ أم إنه شيء يشبه صرير الجذوع، وأصوات أنين متواصل. لكن هل هذا ممكن؟

قالت مريام وهي تشير إلى الطريق:

- انظر.

كانت مجموعة من الرجال والنساء يُهرعون أمام إعلان، وكان يُرى تعبير عن عدم الفهم ينط من وجوههم.

احتجت امرأة قائلة:

- أبداً! أين يريدون إرسالنا؟ أنا متأكدة من أنهم يريدون قتلنا!

هدأها زوجها قائلاً:

- لا. لا تكوني حمقاء! إقرئي جيداً! لقد كُتب «حتى يصلوا معافين وسالمين إلى أماكن إبعادهم المؤقتة». معافين وسالمين!

إلى أهالي إرزروم

١ - يلزم كل الأرمن عدا المرضى على الرحيل في غضون خمسة أيام منذ إصدار هذا البيان بحسب القرى والأحياء بمرافقة رجال الدرك.

٢- مع أنه يُسمح لهم من أجل سفرهم هذا بأن يحملوا إذا ما أرادوا ذلك، أشياءهم القابلة للنقل، إلا أنه يُمنع عليهم أن يبيعوا بيوتهم أو باقي أشياءهم أو أن يعهدوا بها إلى أشخاص آخرين لأن هذا الإبعاد مؤقت فقط، وبيوتهم والأشياء التي لم يتمكنوا من حملها معهم، ستبقى تحت حراسة الحكومة التي ستتعهد بها، وتحفظها في مبان مقفلة ومحمية. وأي شخص سيبيع شيئاً، وأي شخص سيحاول تكليف نفسه لحماية الأثاث أو البيوت ضداً على هذا الأمر، سيعرض نفسه للمحاكمة العسكرية. يحق للأرمن أن يبيعوا للحكومة فقط ما هو ضروري للجيش.

٣ - وضعت مساكن لائقة على امتداد الطرقات من أجل ضمان راحتهم واتخذت كل التدابير من أجل حمايتهم من كل ما قد يهدد حياتهم أو أي اعتداء حتى يصلوا سالمين إلى أماكن إبعادهم.

٤ - سيحمل الحراس السلاح في وجه كل من تسول له نفسه أن

يهدد حياة أو ممتلكات أرمني أو مجموعة من الأرمن أو من يود أن ينال من شرفهم. وكل من يقترف هذا الخطأ، سيعتقل من فوره ويُرسل إلى المحكمة العسكرية ويحكم عليه بالإعدام. وهذا التدبير، الذي هو نتيجة حزينة للميل الفاسد للأرمن، لا يعني أي جزء آخر من السكان الذين لا ينبغي لهم التدخل أبداً في هذه القضية.

٥ - وبما أنه يتعين على الأرمن الامتثال لهذا القرار الحكومي، فإذا ما حاول أحدهم استخدام السلاح ضد الجنود أو رجال الدرك، سيستخدم السلاح ضده، وسيعتقل حياً أو ميتاً. إضافة إلى هذا، إذا تفادى الأرمن المعارضين لهذا القرار الحكومي الإبعاد أو حاولوا الاختباء يُجر الأشخاص الذين آووهم أو قدموا لهم معونة أو أطعموهم إلى المحكمة العسكرية.

٦ - ما دام ليس للأرمن الحق في حمل السلاح، فإنه يتعين عليهم تسليم كل أسلحتهم إلى الحكومة، من مسدسات وقنابل وسكاكين سواء أكانت مخبأة عندهم أو في مكان آخر. وتعلم الحكومة بوجود عدد كبير من هذه الأسلحة، وأولئك الذين سيحتفظون بها خفية عوض تسليمها للحكومة، ستنزل عليهم أشد أنواع العقاب إذا ما تم اكتشافها لديهم.

٧ - يُسمح بل يأمر جنود المرافقة ورجال الدرك باستخدام السلاح ضد كل من يحاول نهب الأرمن في الطرقات أو في القرى.

٨ - يمكن لكل المدينين للبنك الإمبريالي العثماني أن يودعوا ممتلكاتهم للبنك كضمانات على هذه الديون، لكن الحكومة تحتفظ بحق شراء هذه الممتلكات من البنك برفع الرهن إذا ما رأت في ذلك ضرورة عسكرية. وبتوافق مع هذا البند يمكن أن تترك كرهن ممتلكات تغطي ديون أشخاص آخرين غير أنه ينبغي أن توافق الحكومة على المبلغ الصحيح لهذه الديون، وحسابات التجار هي الأمثلة الجيدة التي تدعم الإعلانات المتعلقة بهذا الموضوع.

٩ - بما أنه لا يمكن اصطحاب الحيوانات الصغيرة أو الكبيرة فإنها ستُشترى باسم الجيش.

١٠ - على ضباط كل قرية ومدينة ومحافظة أن يساعدوا الأرمن بقدر ما يستطيعون.

أيُعقل هذا؟ أيعقل أن يقف بشر خلف هذا الإعلان؟

جثت عجوز على أقدام جندي وأخذت في الشكوى:

- أرجوكم. لا يمكننا الرحيل. فزوجي هرم جداً. الرحمة!

- إنها الأوامر يا هانم...

علقت ماريام بيدروزيان وقد امتلأت عيناها بالدمع قائلة:

- أليست هذه فظاعة؟

ثم أضافت:

- على الأطفال أن يعودوا في الحال إلى بيوتهم.

- طبعاً.

حدث آشود نفسه قائلاً بأن المرأة محقة إذ سألت: أين ينوون أخذنا؟ أكثر من عشرين ألف شخص؟ تحرك مثل هذا يتطلب مئات العربات، والكرّيطات والأحصنة ما دامت إرزروم لا تتوفر على محطة للقطار! هنا يكمن إذاً تفسير صرير الجذوع والأنين المتواصل.

- تعال يا بارون طوماسيان، تعال... سأعلم الأساتذة الآخرين.

ألا تعلمون إذاً أنه ما إن يتنازل المرء، وما إن يقبل بأن يتخلى عن حبة قمح من حقله، عن قطرة ماء من نهره، عن حجرة من جبله، فلن يجد في يوم عودته حقله أو نهره أو جبله.

وبينما كان يعود إلى بناية قاعات الدرس، هي ذي كلمات والده التي صدرت عنه قبل عدة أيام تعود إلى طرق صماخيه بقوة.

- إذاً يا بارون ماذا يحدث؟

- هل هناك نار؟

- هل هي الحرب؟

سارع آشود للرد بعد أن أعاده الطلاب إلى الحاضر قائلاً:

- كلا، أنتم محظوظون. انتهت الدراسة اليوم. سأصطحبكم إلى بيوتكم.

أضاءت ابتسامات متألقة كل الوجوه عدا وجه شوشان. كانت تعرف أباها جيداً كي تنخدع بنبرته المرحة، ولا تخمن بأنها تخفي وراءها شيئاً آخر.

سألته سراً:

- هل هناك مشكلة يا آيريغ؟

رد عليها هامساً:

- عودي وأخاك إلى البيت حالاً، وأخبري أمك وجدك بألا يفتحا الباب لأحد، وتحت أية ذريعة. هل سمعتني؟ تمترسوا إذا لزم الأمر! هل فهمتني؟

- لكن. . .

- لا تسألي يا شوشان! نفذي ما أقوله لك! هيا عودي إلى البيت.

ارتفع صوت طبل تبعه صوت نافذ لمناد يقول:

- يلزم كل الأرمن عدا المرضى على الرحيل في غضون خمسة أيام منذ إصدار هذا البيان بحسب القرى والأحياء بمرافقة رجال الدرك.

في مكان ما من الأناضول

ألصق هوفانيس أنفه بالزجاج الدبق. وعلى الرغم من الارتجاجات المتلاحقة، حاول أن يركز انتباهه على الهضاب التي تتوالى أمام الغسق

الذي أخذ يحين. قريباً سيحل الليل. لماذا فكر فجأة في منتزه سيفان وفي المنابع الحارة لآرزني وجيرموك، وغابات ديليجان؟ لماذا عاد ليرى يريفان التي لم يزرها إلا مرة واحدة؟ والقمم الثلجية لأرارات؟ وهذه الكلمات المسمارية المحفورة على آثار تعود لأكثر من ألف عام «بفضل حماية إله هالدي، شيد أوجيشي الأول ابن مونيا هذه القلعة المنيعة، وأُطلق عليها اسم إيربوني». إيربوني. يريفان. مصادفة غريبة، فمثل القسطنطينية تماماً، شيدت يريفان على سبع هضاب. سبع. الرقم المقدس. من أجل الأفضل والأسوأ.

أيلزم مد الذاكرة أيضاً. احفروا هذا. بلد تحت رماد لامتناهٍ من الحرائق، مثل الزمن. ما إن ولد. . .

كان هذا فاروجان الذي يناجي نفسه بحزن. ختم قائلاً:

- ستطفأ الشمس. وستربص كلاب الشر.

فكر هوفانيس قائلاً:

(بكل تأكيد يولد الشاعر ويموت شاعراً).

باستياء قال زارتاريان رئيس تحرير الزامارت:

- أربعة أيام ونحن على الطريق. متى سينتهي كل هذا؟

تدخّل أريستاكيس قائلاً:

- رأيت قبل قليل لافتة كتب عليها أنغورا.

- أنغورا؟ أليست الولاية التي قام بها الحميديون في عهد عبدالحميد بتقطيع إخواننا إرباً إرباً بضربات سواطير لمدة يومين وليلتين؟ كان هيجاناً كبيراً إلى حد أن بعض المنازل أريق الدم بها من سلالم الطبقات العلوية وحتى الطريق.

أكد المحامي قائلاً:

- أجل. أجل. هذا صحيح.

- إذاً، فلربما هذا ما ينتظرنا؟

احتج حايك قائلاً:

- سخافة! ما السبب الذي يجعلهم يرغبون في اغتيالنا؟ نحن. . .

توقف فجأة عن الكلام، ذلك أن القطار أخذ يخفض من سرعته.

مذهولاً سأل زارتاريان:

- ماذا يحدث؟

فحص هوفانيس المنظر. كانت السماء خبازية اللون، والأشجار تكاد تكون سوداء.

- غريب، نحن في قلب البادية. هل هناك عطل؟

- كأن القطار عاد ليتحرك.

- كلا، على العكس.

ثم خيم صمت خانق على المقصورة، في حين تشبثوا إثر آخر هزة للقطار البخاري.

صرخ صوت آمراً:

- اخرجوا! سابوك جيدن. إيزلي! بسرعة! بسرعة!

- هنا؟ ننزل هنا؟

- أطيعوا الأمر!

بدت الأرض في الضوء الكدر للمصابيح الغازية التي حملها الجنود، مع أنه كان بالإمكان الرؤية بوضوح.

أمر أحد النقباء قائلاً:

- تقدموا!

همس فاروجان:

- هذا غريب. ليس هناك سوانا.

كان محقاً. لم يكونوا إلا حوالى ثلاثين فرداً، فقط من كان في المقصورة رقم ٢٣. مقصورتهم. كان الآخرون ما يزالون في القطار البخاري، وقد أقفلت عليهم أبوابه.

- بالفعل هذا غريب.

لم يكن حولهم منزل أو كوخ أو بناية من أي نوع، فقط منظر يبعث على اليأس.

- تقدموا! تقدموا!

قطعوا حوالى خمسمئة متر على ضوء كاب حتى أمر أحد الضباط من ذوي الرتب العليا قائلاً:

- توقفوا! جميعكم في صف واحد!

اصطفت مفرزة مباشرة أمامهم، وحمل الجنود بنادقهم على أكتافهم في وضعية التصويب.

- هذا... غير ممكن.

- يا إلهي! سيجرؤون.

غمغم فاروجان:

- النهاية.

هنا إذاً تنتهي الطريق! في مكان بلا اسم، وفي وقت بين الليل والنهار.

وقف طاريقيان وقفته العسكرية، وصاح:

- نريد أن نعتقد أن تركيا وأبناءها الديمقراطيين سيخجلون في يوم من الأيام من ماضيهم!

رفعت نسمة خفيفة أوراق عشب مستنقعي.

تدفعني هذه الأرض إلى الدموع.. وإلى الزمجرة.. دون أن يستطيع دمي أن يدافع عن ثقته.. ويدفعني إلى جمع قبضتي.. وبهذه القبضة أمسك كل الروح.

هل كان فاروجان هو صاحب هذه الأبيات؟

لا يهم! سيطرح السؤال على الشاعر فيما بعد. هناك فوق، أما الآن، فمن الجيد تلاوتها. تلاوتها مرة وأخرى.

تدفعني هذه الأرض إلى الدموع.. وإلى الزمجرة.. دون أن يستطيع دمي أن يدافع عن ثقته.. ويدفعني إلى جمع قبضتي.. وبهذه القبضة أمسك كل الروح.

تدفعني هذه الأرض إلى الدموع.. وإلى الزمجرة.. دون أن يستطيع دمي أن...

تدفعني هذه الأرض إلى الدموع.. وإلى...

فرقعت البنادق، وملأت لعلعة الرصاص الأجواء.

فاهي! آيريغ!

كان آخر ما رآه هوفانيس صورة من كان في المقصورة التالية يُنزَلون بدورهم.

إرزروم، في الوقت نفسه

أبدى الدكتور بهاء الدين شكير تفاجؤاً كأنه صادق به ما دام مصطنعاً بشكل رائع. وردد على آشود والكاهن المرافق له:

- إيلكوكول أوريتماني! أستاذ! وأنتم أيضاً أيها الأب! لا أفهمكما. عوض أن تعبّرا عن رضاكما تبديان الغضب. ألا تريان أن في هذا ظلماً؟

رد بيدروس أغوبيان قائلاً:

- الظلم هو أنه يوجد شيوخ وحوامل ومواليد حديثو الولادة، لا يمكنكم أن تفرضوا عليهم الرحيل عن منازلهم.

هز الوالي تحسين باي رأسه علامة على عدم رضاه قائلاً:

- حاولوا أن تفهموا. لا يتعلق الأمر إلا بوضع السكان في مأمن، لا أقل ولا أكثر. زد على ذلك أنه وكما هو واضح في المرسوم، فهذا

مؤقت. هل تسمعون؟ مؤقت! يمكنكم وضع أشيائكم القيمة في حقائب مختومة ونعدكم بأنها ستوضع في المخازن في أقبية البنك الإمبريالي العثماني. وستستعيدونها حين تعودون.

لوّح آشود بورقة كتبت عليها أسماء بحسب الترتيب الأبجدي، وشرع في عدها:

- أبوفيان، أداليان، أغباليان، أنطونانيان...

- ماذا تقصدون؟

- فقط مواطنين أرمن! فقط أرمن! لمَ نحن المشمولون بالإحصاء فقط؟

لم يبد أن هذه الملاحظة أفقدت مسؤول التنظيم الخاص توازنه، إذ اكتفى بأخذ برقية كانت موضوعة فوق مكتبه، وأخذ في القراءة:

- «نحن معشر المواطنين الأرمن، الذين نشكل أحد أعراق الإمبراطورية العثمانية، تبنينا منذ سنين، وبتحريض من الخارج أفكار خيانة مثل تلك التي تزعزع الأمن العام، وتسببنا في مواجهة دامية، وحاولنا زعزعة السلم وأمن الإمبراطورية العثمانية، إضافة إلى سلامة ومصالح مواطنينا، مثل إخواننا، هذا دون الحديث عن الجرأة في الانضمام إلى العدو (روسيا)، وإلى الأعداء الذين هم في حالة الحرب الآن ضد إمبراطوريتنا. وتجد الحكومة نفسها مجبرة على اتخاذ تدابير غير عادية، وتقديم تضحيات، ليس فقط من أجل إبقاء النظام وأمن البلد، ولكن أيضاً من أجل خير ونماء المجتمع الأرمني». هذا واضح أليس كذلك؟

- هذه أكاذيب! أكاذيب سخيفة!

- على كل حال، أعيدها لكم للمرة المئة، هذا مؤقت. لا تقلقوا أبداً.

سأل الكاهن قائلاً:

- دكتور شكير، هل تنوون فعلاً نقل عشرين ألف أرمني الموجودين بالمدينة؟

- تماماً.

- كيف ستطعمون كل هؤلاء الناس؟ وكيف ستؤووهم؟

- الإعلان يوضح ذلك. ما إن يصلوا، سيحصل ال. . .

وأصر هنا على الكلمة.

- المهاجرون إذا ما أرادوا ذلك على أراض، ومتاع توزع بعدل بحسب الحاجة والوضعية المالية لكل أسرة ساعة رحيلها. وتتعهد الحكومة بتشييد المساكن، ومنح البذور والأدوات والمعدات الضرورية بالنسبة للحرفيين والفلاحين. هل هناك أفضل من هذا؟

- ستمنحوننا أراضي؟ أين ذلك إذاً؟

- جنوباً. بسورية وميزوبوطاميا.

ركز آشود نظره على محدثه فاغراً فاه.

- سورية؟ ميزوبوطاميا؟ لكن هناك أكثر من تسعمئة كيلومتر حتى الحدود! هي مناطق جافة وقاحلة. أنتم. . .

وفجأة، رفع الدكتور شكير يده. ولأول مرة منذ بداية الحديث تغضنت ملامح وجهه، وهو يقول:

- سيد طوماسيان. أيها الأب، تأخر الوقت وأحتاج للنوم.

وبحركة منه، تقدم رجلان من التشيتي خطوة إلى الأمام بعد أن ظلا واقفين طوال ذلك الوقت إلى الوراء قليلاً.

تبادل آشود نظرة مختلسة مع الكاهن الذي قال بعد أن مرر بخفة، يده وبحركة آلية على غطاء رأسه:

- تعال. لقد تأخر الوقت فعلاً.

لامس هواء الليل وجهيهما. بدا لطيفاً، وأقرب ما يكون حاراً بالنسبة لفصل الربيع.

غمغم آشود قائلاً:

- أشكركم على مرافقتي.

- بل عليَّ أنا أن أعرب لكم عن امتناني. هل سمعتم ما قاله؟ هذا جنون!

- ومع ذلك، فهذا ما قرروه.

أخفض دير أغوبيان رأسه، وهو يقول:

- غداً، ومنذ الساعات الأولى، سأرسل برقية إلى المونسينيور زافين بالقسطنطينية، وسأذهب لمقابلة قنصل بريطانيا العظمى.

- هذا غير مجد. لقد طُرد السيد موناهان منذ أسبوع، إضافة إلى كل الدبلوماسيين الآخرين. علمت هذا من آسيم، كما أنه تم اعتقال كل خدمهم من الأرمن ومترجميهم. لا أريد إحباطكم لكن يبدو لي أنه ومن الآن فصاعداً لا يستطيع المونسينيور زافين أو أي شخص آخر أن يقوم بشيء كبير من أجلنا. بالمقابل يمكنك أن تتوسط لدى شخص آخر...

- من يكون؟

وأشار آشود إلى القبة الزرقاء.

١٨

إرزروم، ٣ أيار

كانوا مجتمعين حول مائدة في غرفة المعيشة.

ألقت الشموع ضوءاً متراقصاً على الجدران وعلى الوجوه. بجرعة واحدة شرب فاهي كأساً من شراب «راقي»، قبل أن يقول:

- هل قال سورية وميزوبوطاميا فعلاً؟

أكد آشود قائلاً:

- أجل.

تدخّل آسيم تيرزيوغلو القابع في زاوية، وعيناه على السيجارة التي كان بصدد لفها، كأنه ينشد شعراً:

- يبدو أن طليعة مشكّلة من متطوعين أرمن وفرسان روس دخلوا مدينة فان، والجيش التركي يقاتل متراجعاً، حتى إنه يقال إن سيفدي باي نسيب أنفر باشا قد لجأ إلى بيتليس.

سألت آنا متعجبة:

- فان؟ محررة؟

- هذه هي الشائعة التي تسري. يبدو أن السكان قاوموا أكثر مما يمكن تصوره.

استدارت المرأة بهمة نحو زوجها:

- رأيت! كان علينا الرحيل عندما كان الوقت يسمح بذلك!

- أرجوك. لن نعود لهذا الموضوع الآن. كان السفر يحمل مخاطرة كبرى، وقررنا جميعنا عدم القيام به.

- جميعنا؟ بحسب علمي، لم يطلب أحد رأيي، و...

- آنا!

قامت وقد بدت مشدودة عكس ما هي عليه عادة من لطف، ثم قالت:

- إلامَ سيؤول أمرنا؟ هل يمكنك أن تجيبني؟ أخبرني يا آشود!

حاول فاهي تهدئتها قائلاً:

- إهدئي يا ابنتي. ستوقظين الولدين.

- أن أهدأ؟ لكن ألا تفهمونني؟ سيقتلوننا! هذا السفر مجرد ذريعة. أخبروني عن مصير المئتي شخص الذين اعتقلوهم قبل عشرة أيام؟ لوفون، وهرانت وميهران وكل الآخرين! أين هم؟

لطمت وجهها بقوة، وهي تقول:

- سيقتلوننا!

احتج آسيم قائلاً:

- كلا يا هانم! هذا غير صحيح. هي فقط مسألة أمن، وهي مؤقتة. بعد أيام...

ورشقته بنظرة مرعبة:

- كل هذا من خطئكم! أنتم! أنتم وأشباهكم! سنوات ونحن نزحف عند أقدامكم! ولم يكفكم هذا. المزيد! دوماً المزيد من الإهانة!

صرخ آشود:

- آنا! أنت تتمادين.

قام وحاول أن يحضنها، فاحتجت قائلة:

- لا! لا تقترب مني!

- آنا... أرجوك...

- لا! لا تقل شيئاً!

ولم يعد صوتها إلا نحيباً.

- لا شيء... لا تقولوا شيئاً بعد.

ببطء أخذ نظرها يدور في الغرفة كما لو أنها تبحث عن ملجأ بين الظلال. ترددت، ثم منحت الانطباع بأنها ترنحت، قبل أن تغادر.

وبدت غرفة الطعام فجأة أكثر ظلمة.

بعد صمت دام طويلاً غمغم فاهي قائلاً:

- أخبرني يا بني. هل سننتظر مستسلمين حتى يأتوا لاقتيادنا؟

فكر آشود قليلاً قبل أن يستدير جهة آسيم ليتوجه إليه بالقول:

- أخبرتنا قبل أيام بأنه يمكنك أن توجد لنا عربة. عربة نسيبك. هل الأمر ممكن الآن؟

- نعم. لكن هذا غير مجد الآن ما دامت السلطات قد أعلنت تخصيصها عربات لنقل السكان.

- هل سيكون الآوان قد فات غداً؟

عقد الضابطية حاجبيه، ثم قال:

- لا أفهم.

- هذه الليلة، سنرحل هذه الليلة.

- ماذا؟ لكن الجنود لن يدعوكم تمرون أبداً! سيتم اعتقالكم عند أول تفتيش!

- ليس إذا ساعدتنا.

- أنا؟ كيف؟

- تنتظرنا بالعربة عند مدخل إيليكا. القرية الصغيرة، إنها تبعد عنا خمسة عشر كيلومتراً. ليست بعيدة عن...

- أعلم جيداً أين تقع، لكن هذا جنون! كيف ستفعلون؟ ففي كل مكان يوجد الجنود عندما لا يكون هناك التشيتي!

- وهل نملك الخيار؟ أخبرني؟ هل نملك الخيار؟

وافق فاهي بالقول:

- أنا متفق معك. يستحيل أن ندع أنفسنا نساق إلى المذبح دون أن نقوم بفعل! ماذا سنخسر؟ في أسوأ الأحوال سيعتقلوننا ويعيدوننا إلى هنا.

- وإذا ما وصلتم إلى إيليكا، أين تنوون الذهاب؟

- هناك حيث ينبغي علينا الذهاب. إلى فان، بعون الرب وبقليل من الحظ سنكون تحت حماية جنود القيصر.

- أقول إن هذا انتحار. لن تنجحوا أبداً. إضافة إلى ذلك، ستسافرون من دون تذكراتكم! فكروا قليلاً في ولديكما!

صرخت آنا:

- من أجلهما تحديداً علينا أن نحاول!

كانت قد عادت. قصدت رجل الدرك مرددة بإصرار:

- أجل، من أجل شوشان وآرام.

ثم أضافت:

- اعذروني من أجل الكلام الذي تفوهت به. لم يكن موجهاً لكم.

- أعلم ذلك يا هانم. أعلم. زيدي على ذلك أني ما عدت أذكر منه شيئاً.

استدارت جهة زوجها. كانت تهم بفتح فمها عندما وضع سبابته على شفتيها، ثم قال:

- علينا ألا نضيع الوقت. اذهبي وأيقظي الولدين، وأنت يا آسيم، إذهب! وموعدنا في إيليكا.

امتثل الضابطية للأمر، لكن على مضض، ذلك أنه قال في شبه زفرة:

- كونوا حذرين، وليحفظكم الله.

القسطنطينية، مقر إقامة السفير هنري مورجونطو، في الوقت نفسه

كانت بيتي مورجونطو تتأمل زوجها بقلق، ثم قالت:

- هل هي رسالة دانيس التي أقلقتك إلى هذا الحد؟

لم يردّ الدبلوماسي ذلك أنه استمر في تركيز ناظريه على الفراغ مداعباً أسفل لحيته.

- هنري؟ هل أنت بخير؟

وكما لو أنه خارج لتوه من حلم، غمغم الأمريكي بصوت بهيم، قائلاً:

- هذا فظيع.

مد إلى زوجته الرسالة التي ظل طوال هذا الوقت ممسكاً بها بين يديه، قائلاً:

- خذي... اقرئي وستفهمين.

قنصلية الولايات المتحدة، خاربوت، ٢٩ نيسان ١٩١٥

إلى صاحب السعادة هنري مورجونطو،

سفير الولايات المتحدة بالقسطنطينية

سيدي السفير

سبق لنا أن وجّهنا عناية السفارة عن طريق مختلف البرقيات

الصادرة عن هذه القنصلية حول الوضع الدقيق جداً الذي يسود هنا.
تضمنت برقياتي (ملف عدد ٨٤٠) الظروف العامة ومخاوف السكان إزاء التحضير لمذبحة. هنا، اعتقل كل الأرمن الذكور تقريباً ومهما كانت درجتهم وأهميتهم وأودعوا السجن. وتعرض الكثير منهم للتعذيب الأكثر وحشية والذي أودى بحياة بعضهم.

وأُخذ المئات والمئات من الأرمن الأكثر شهرة تحت جنح الظلام. ويبدو جلياً أن أغلبهم إن لم يكونوا كلهم قد قتلوا. انتشرت شائعات الأسبوع الماضي تتحدث عن وقوع مذبحة، وبحسب رأيي، ليس هناك من شك في أن الأمر يتعلق بمذبحة فعلاً، ذلك أنهم وجدوا طريقة للقضاء على العرق الأرمني، وذلك بإبعاد كل السكان ليس فقط عن الولاية، ولكن بحسب معلوماتي، عن الولايات الست التي تشكل أرمينيا. ومن المرجح أنه عمل لم يعرف التاريخ عملاً مشابهاً له. لقد قُسمت مدينتنا مامورية أول عزيز وخربوت إلى مقاطعات، وأشير إلى كل منزل يتعين على سكانه الرحيل.

والمعنى الحقيقي لأمر مشابه، بالكاد يمكن تصوره، فبالنسبة لأولئك غير المعتادين على مثل هذه الظروف الخاصة التي تسود هذه المنطقة، لا أعتقد أنهم سيتمكنون من النجاة بنسبة واحد بالمئة، ولربما حتى بنسبة واحد في الألف.

أُخبر الذين رحلوا من هنا بأنهم يقصدون أورفة، ولكني أعلم تماماً أن هذا لا يعني مدينة أورفة، بل يقصدون به سهل ميزوبطاميا جنوباً، أو الصحراء السورية. وبالنسبة للمسافرين في مثل هذه الظروف التي أُجبر عليها الأرمن المبعدين، فإن الموت المؤكد هو ما ينتظر غالبيتهم العظمى.

لي الشرف سيدي السفير أن اكون خادمكم المطيع.

ليسلي أ. دافيس، القنصل.

وضعت بيتي مورجونطو ذاهلة الأوراق على المكتب، واسودّ وجهها الأنثوي الطفولي المنمش:

- ما الذي تنوي فعله؟

- عدا التدخل مرة أخرى لدى طلعت، لا أرى كيف يمكنني القيام بشيء. فمنذ ثمانٍ وأربعين ساعة، صرنا، قناصلتنا وأنا أيضاً، عاجزين أو نكاد نكون.

- تريد أن تقول...

- أريد أن أقول إن الباب العالي أرسل لي مذكرة مفصلة جداً، والتي جاء في جوهرها ما يلي «تتشرف وزارة الشؤون الخارجية بأن ترجو سفير الولايات المتحدة بأن يتفضل بإصدار التعليمات الضرورية إلى السادة القناصلة الأمريكيين بأن يمتنعوا عن السفر إلى مناطق حيث تقوم الجيوش الإمبراطورية العثمانية بعمليات من أجل هدف محدد».

قفزت بيتي مورجونطو من مكانها قائلة:

- «عمليات من أجل هدف محدد؟» ماذا يعني هذا؟

وكردّ عليها، أمسك مورجونطو قلمه، وورقة عليها شعار السفارة، ثم أعلن:

- سأكتب إلى صديقي وليام بريان. لكن للأسف ومع أنه من الجيد أن يكون كاتب دولة غير أني أخشى أن يتمكن من شدّ انتباه الناس في واشنطن إلى هذه المأساة التي يتم الإعداد لها هنا. فبالكاد يعرف أولئك السادة أين تقع القسطنطينية، فبالأحرى أرمينيا.

ارزروم

كانوا يسيرون بخطوات صامتة في الممر الضيق المضاء بضوء

القمر الخافت المتسلل عبر أوراق الأشجار. ولم تكن حولهم إلا أراض منحدرة، وغابات كثيفة مسيّجة وفروع مقطوعة من كل جانب.

كانت آنا التي تحمل حقيبة جلدية بحمالة تمسك بإحكام بيدي شوشان وآرام. وكان آشود قد تمنطق بحزام كبير وضع به كل ما أمكنه حمله من أشياء نفيسة وقطع نقدية، وما استطاعوا حمله طوال حياتهم، في حين كان فاهي يمشي خلفهم معتكزاً على عصاه.

همست آنا:

- كم الساعة الآن؟

- منتصف الليل وخمس دقائق. لا بد أننا قطعنا نصف الطريق.

قال آرام:

- ألا تجدون أنه من الغريب أننا لم نقابل أي جندي منذ أن غادرنا البيت؟

ردت شوشان:

- عليك ألا تشكو من هذا الأمر. هذا يدل بكل بساطة على أن القديس غريغوار قرر حمايتنا.

لزم آشود الصمت، غير أن صمته ذاك لم يكن يعني أنه لم يجد ملاحظة ابنه دقيقة. وكأن رجال الدرك والجنود اتفقوا على التنحي عن طريقهم. هل هي صدفة أم إنه أمر مدبر؟ أم هو فقط كرم الملاك الذي كُلف بحراستهم؟

همس فاهي قائلاً:

- أتمنى أن يكون دركينا في الموعد.

- سيكون هناك، ليس لديّ أدنى شك في ذلك.

أخذت الطريق تميل الآن اتجاه وادي كارا سو، وهكذا لم يعد جبل بالوندكن إضافة إلى جبل كارغابراري سوى ظلين بعيدين.

بألم قال آرام:

- أشعر بالبرد.

نزع آشود صدرته التي كانت تغطي الشركسة التي كان يرتديها، ومده إلى ابنه قائلاً:

- خذ. إلبسها.

كانوا يتقدمون في مسيرهم، ويتوقفون بين حين وآخر ليمكّنوا فاهي من أن يستريح قليلاً، ويستجمع قواه وأنفاسه.

ولم يلمحوا المنازل الطينية الأولى لإليكا إلا حوالى الساعة الثالثة صباحاً. كان الوقت قد حان ليتركوا الممرات ويدخلوا الطريق الرئيسية.

سأل فاهي بصوت خفيض:

- لا أرى أية عربة.

قال آرام:

- لعله تأخر.

تدخلت آنا مفترضة:

- أو إنه غرق كثيراً في تفاؤله، ذلك أنه عندما حدّثنا عن العربة شرح لنا أنه سيأخذها من نسيبه سواء قبل هذا أم رفض. فلربما حدثت مشلكة؟

رد آشود:

- اصبروا، اصبروا. سيصل.

ثم أشار إلى سور صغير إلى اليمين منهم مضيفاً:

- تعالوا. سنختبئ هناك.

جلسوا في الظلمة الحالكة. جلسوا متزاحمين وقلوبهم تدق بقوة. مرت الدقائق. وساعة، لكن من دون أن يصل آسيم.

غمغم فاهي بالقول:

- ألا تظن أن علينا أن ننظر إلى الحقيقة مباشرة. لن يأتي أبداً.

بحركة من رأسه أبدى آشود عدم موافقته على الأمر، ومع أن احتمال الخيانة مر بباله إلا أنه أزاحه بسرعة. مستحيل. ليس آسيم. ليس هو.

صاحت شوشان:

- اسمعوا! اسمعوا!

وأصاخوا السمع.

صوت حوافر.

وبسرعة ظهرت في الطريق عربة يجرّها حصان كميت. وكان آسيم الجالس إلى كرسي عال يمسك بالعنان بيده اليسرى والسوط بيمناه.

صرخت شوشان وآرام بصوت واحد:

- لقد أنقذنا! أُنقذنا!

وقبل أن يتمكن والداهما من رد الفعل، كانا قد همّا إلى ملاقاة الضابطية.

لماذا أحس آشود فجأة بانقباض في قلبه؟ لم يكن هناك من سبب، ذلك أن آسيم حضر فعلاً. وكل شيء بدا كما كان متوقعاً، إضافة إلى ذلك، فقد رفع الضابطية السوط وحركه في الهواء علامة على تحيتهم.

بعد أن اطمأن آشود، خرج من الظلمة بدوره إلى الطريق، وكان فاهي وآنا يهمان بالقيام بالشيء ذاته، عندما أثار انتباههما صوت فرقعة.

صار الولدان الآن قرب العربة إلى حد أنهما يستطيعان شم نفَس الحصان.

استدار فاهي إلى مصدر الصوت الذي أقلقه، وقد صعد قلبه إلى شفتيه.

وأمامه، وفي منطقة بين الظلمة والضوء، وبوجه غاضب، ظهر الرجل الذي اقتحم بيتهم قبل حوالى عشرة أيام مع مجموعة من التشيتي. كان كريم دوردان.

وضع العسكري يده على قلبه، وعلى فمه قبل أن يضعها على جبهته ليحيي منحنياً:

- مرحباً[٧٩] طوماسيان أفندي. السلام عليكم.

في الوقت نفسه، خرج من الظلمة حوالى عشرين عسكرياً، ثم قبضوا على الرجل المسن.

حاولت آنا وآشود العدو للوصول إلى الطفلين، غير أن البنادق المتشابكة منعت الطريق عنهما. وبحركات بسيطة، تمت السيطرة عليهم، وكبلت أياديهم خلف ظهورهم.

مستعطفاً قال فاهي:

- لا تصيبوا الولدين بأذى!

وحيث يوجد الولدان، أرغمت مجموعة من الخيالة ومن المشاة التشيتي آسيم على التوقف. امتدت الأيدي إليه، وانتزعته من كرسيه ملقية به أرضاً بينما قُبض على شوشان وآرام.

أمر كريم دوردان بالقول:

- أحضروهما إلى هنا إضافة إلى الخائن.

ثم سارع إلى الإضافة بنبرة مزيفة:

- في أوقات اللاأمن التي نعيشها في أيامنا هذه، هل يُعقل أن يسافر المرء في جوف الليل؟

بغضب قال فاهي:

- إذهب إلى الشيطان!

- كنت لأتمنى ذلك، لكن وللأسف ومنذ أن أخذنا نرسل الأرمن إليه أضحى المكان لا يطاق أبداً.

نظر إلى آسيم مطولاً ثم قال:

---

(٧٩) هكذا ورد في الأصل. المترجم.

- أما بالنسبة لك، فقد خذلتني. وخذلتني كثيراً يوم حاولت التدخل بين رجالي وهؤلاء الجياورز، الكفار.

- احذر! فقد ذكر القرآن بأن الله يعلم المؤمن من المنافق.

- كيف تجرؤ على الاستشهاد بالقرآن الكريم؟

- أجرؤ! الأكثر دناءة بيننا نحن الاثنان...

وبقيت الجملة بلا تتمة.

ذلك أن رجل الميليشيا أخرج مسدسه الذي كان متمنطقاً به، وأطلق النار مباشرة. اخترقت الرصاصة جبهة آسيم، تحت ناظري الطفلين المرتعبين، وتطايرت شظايا عظم في السماء لتستقر عند قدميهما، وسقط الضابطية. وبين وصلتي تشنج قال شيئاً غير أنه لم يكن يخرج من شفتيه إلا صوت أشبه بأنين كأنه خوار.

زعق فاهي وهو يقاوم بكل قواه قائلاً:

- أيها القذر! أيها القذر!

اقترب العسكري منه ببطء، ثم قال:

- احذر أيها المسن، وراقب كلماتك جيداً إذا لم ترد أن تلحق بصديقك إلى الجحيم.

رشقه فاهي بنظرة كانت كلها احتقار، ثم قال:

- قذر، وجبان.

أصدرت الصفعة صوتاً، وتراجع رأس فاهي بقوة إلى الخلف.

قال آشود راجياً:

- لا! لا تفعلوا هذا!

أرادت آنا أن تأخذ شوشان وآرام بين ذراعيها غير أن الجنود أمسكوا بها بقوة.

قالت متأوهة:

- اغفروا له، لقد فقد عقله.

وافق كريم دوردان قائلاً:

- طبعاً.

مسح وجهه بطرف كمّه، ذلك أنه ومع رطوبة الصباح كان ينز عرقاً.

وعاد الصمت مجدداً كسرته خطوات شوشان وآرام المختنقة والمتفرقة. سأل العسكري قائلاً:

- كيف جرؤتم؟

- جرؤنا؟

- خرقتم القانون ورحلتم! أنتم تخالفون التعليمات. من حسن الحظ أننا نتوفر على مخبرينا في كل مكان! ألن تتغيروا أبداً؟ دوماً تريدون فرض الأمور، وإظهار تفوقكم، كما لو كنتم أفضل منا. نحن الذين سامحناكم وأطعمناكم منذ قرون! متى ستفهمون أنكم لاشيء، وأن لكم في هذا البلد وضعاً واحداً ووحيداً وهو، غير مرغوب فيه؟

وبصق العسكري أرضاً، ثم أضاف:

- لا شيء.

زاد الرجل فجأة وبنبرة غير مؤذية قائلاً:

- تعلمون طبعاً بأن كل شيء قد انتهى.

- ماذا تقصد؟

- انتهى. هذا كل شيء. توكنميش!

ثم انحنى على شوشان قائلاً:

- كيف نقول «انتهى» بلغتكم؟

غمغمت الفتاة قائلة:

- لمنتزاز...

- تماماً! لمنتزاز!

ثم أطلق قهقهة، وقام الجنود المرافقون له بالشيء ذاته، وهم يرددون:

- لمتزاز! لمتزاز!

تبادل آشود وآنا نظرات مضطربة.

زعق دوردان بالقول:

- أمسكوا الطفلين جيداً!

ارتجفت ركبتا آنا وهي تصرخ:

- لا... الرحمة! ميرحامت، ميرحامت!

وعلى عكس المنتظر، لم يتوجه الجندي إلى شوشان أو إلى آرام بل قصد جدهما.

وبعنف غير مسبوق، ارتمى على الرجل المسن ودفعه إلى شجرة حيث ضرب رأسه بجذعها. مرة، ومرتين. وثالثة. وسُمع بوضوح طقطقة العظم في اصطدامه بالشجرة. انقلبت عينا فاهي. وعندما ترك دوردان الرجل السبعيني، انزلق الجسد ببطء من دون تناسق، وهوى أرضاً.

أطلقت آنا التي أرعبها المشهد الوحشي صرخة ترددت في كل أرجاء السهل.

سأل العسكري آشود وهو يعود إليه قائلاً:

- هل فهمت الآن لماذا قلتُ بأن كل شيء انتهى؟

أشار إلى آنا قائلاً:

- اطمئن. سنأخذ وقتنا معها.

بدا الغثيان الذي أصاب آشود غير محتمل إلى حد أنه رجا الرب أن يعجل الموت إليه حتى يتوقف هذا الكابوس.

- إذا مسستم امرأتي...

أمر دوردان الجندي الأقرب قائلاً:

- إبتمك!

اقترب الجندي، وصوب فوهة سلاحه على صدغ آشود.

لم تسمع آنا أو الطفلان الطلقة. كانوا كما لو أن الرعب أصمهم فجأة، وكما لو أنهم لم يعودوا ينتمون إلى هذا العالم. أما بقية الأحداث، فقد مرت بطيئة. في النهاية، كانت جثة آشود التي وطئتها الأقدام جرت إلى طرف الطريق، ثم هذه الأذرع والأجساد التي مرت فوق جسد آنا، وصوت تمزق قميصها. ثدياها المكشوفان. قطع ثوبها الصغيرة. إهانات. كلمات بذيئة وماجنة. فخذاها المرفوعتان والموسعتان، ونداءات استرحام، والمزيد المزيد من الاسترحام، وحدقتا آرام وشوشان الموسعتان. رجل يتبع آخر في تناول لحم المرأة التي تقاوم لحماية جسدها.

رائحة العرق والرعب والتقزز.

وعندما أمسكت أصابع أحد الجنود بالعنق، واستمر بالضغط عليها إلى حد خنقها، أخذت نوبة قيء آرام.

١٩

إرزروم، ٣ أيار ١٩١٥

كانت الجلبة تصل إلى حد الفوضى. فالمدينة لم تعد مدينة ولكنها غرفة للمأساة. ولم يعد بها البشر بشراً بل فرائس. غبار العجلات والحوافر والأحذية الطويلة ذات الخطوات المنظمة، وزوبعة تُعد حيث ترتعد أشعة الصباح الأولى. صباح بلون مبيض كما لو أنه إفريز تحمله الأشباح. كان هذا على كل حال، ما رأته شوشان وأخوها في هذا اليوم الجديد.

تم اقتيادهما ليلاً، ووُضعا في خيمة نُصبت في الساحة المركزية لإرزروم. ألفيا بها عجوزاً ورجلاً في حوالى الثلاثين من عمره بشعر أبيض كالثلج. وكانا معاً مستسلمين للإبعاد.

كان آرام مستلقياً جانبهما من دون كلمة، ككلب صيد من دون تذمر، بعينين مشرعتين سوداوين متقدتين بمحجرين غائصين في لا شيء. لمحت شوشان في يده المقبوضة الحجرة السوداء الصغيرة. الأولتي تازي التي أهداه إياها العم هوفانيس قبل أشهر من ذلك.

سألت شوشان نفسها. هل تذكرين؟ بعد فترة قصيرة من تسلم رسالة سوغومون، تساءلت. أنى للمرء أن يكبر في الوقت نفسه الذي

يظل فيه دوماً مرتبطاً بجذوره، بأبيه وبأمه وبميدز بابا. هل يمكن تجاوز المراهقة دون مفارقة المراهقة؟

أن يشيخ المرء دون أن يصير راشداً؟ أنت تعلمين الآن.

ومع بداية اليوم، أخذت الفتاة رجفة يشق التحكم بها أو إيقافها كمثل تلك التي يعاني منها المرضى الذين يمسك بخناقهم «الشر الكبير»، غير أنه لم يكن هناك «الشر الكبير»، فقط كان قلبها يحاول أن ينط من صدرها. ثم عاد الهدوء إليها. وبطريقة آلية، عادت للتفكير بسوغومون، وباليوم الذي التقيا فيه على الطريق، حيث انهار بعينين دامعتين.

وضع أحد الجنود يده على مؤخرتها ما جعلها تصرخ مرتعبة.

ضحك الجندي ساخراً:

- اهدئي! اهدئي! وددت فقط معرفة إن كان للأرمنيات مؤخرات صلبة.

استدار إلى رفاقه الذين كانوا يراقبون من خلال فتحة الخيمة وأكد:

- هي كذلك فعلاً.

انطلقت ضحكات بذيئة. تمنت شوشان الموت خجلاً. تجرأت العجوز المنزوية خلفها على الغمغمة قائلة:

- يُزكرازي! عار عليكم...

كانت غمغمتها حزينة وأليمة كالأنين. زاد الجندي من سخريته ضاحكاً، إذ قال:

- العار؟ علينا نحن؟ طبعاً. انظري كيف احمر وجهي.

ومرر يده مرة ثانية على ثديي شوشان قبل أن يتوارى مقهقهاً.

ومثل الزوج الذي راقب المشهد، بقي آرام من دون ردة فعل، فقد بدا بعيداً.

أخذت شوشان يده، وسألته:

- هل أنت بخير؟

رد بحركة مراوغة من رأسه. أنّى لهم بنسيان هذه الطريق، وصوت الرأس الذي هُشِّم، وصرخات أمه المخنوقة؟ كل هذه الأشياء حاضرة هنا، منقوشة، ومحفورة في رأسه، وهو يعلم جيداً بأن هذه الذكرى لن تنمحي أبداً إلى يوم موته.

سألت العجوز:

- هل هو أخوك؟

- أجل.

- يبدو تعيساً جداً. اسمي غاريني، وأنت؟

- شوشان. شوشان طوماسيان.

- هل أنتما من إرزروم؟

- أجل.

- أين أبواكما؟

- ميتان.

حركت رأسها برفق. لم يثرها هذا البوح أكثر من اللازم. هي أيضاً بشعور قريب جداً من ذاك الذي سكن آرام، وهو الخضوع والتجرد. والحقيقة أنه لا هذا ولا ذاك. فالمرأة وطفل قصدا مكاناً بلا اسم حيث يرقد الكثير من الألم.

كشفت المرأة بنبرة صوت لا تتغير:

- أما أنا، فقد اغتالوا ابني الوحيد ثم زوجي. أنا من غولوكوا. قبل أسبوع من الآن، أعلن لنا الحميديون والجنود بأن لدينا أربعة أيام لنترك القرية، وأوضحوا بالقول «بسبب الحرب». ما العمل؟ قمنا بالاستعداد، ووضعنا في عربة كل ما استطعنا وضعه بها، بعض الأثاث، وسجاجيد، وأغطية وتركنا مفاتيح بيتنا لجيراننا الأتراك الذين

طمأنوننا ووعدونا بأنهم سيعيدونها إلينا حال عودتنا. كان علينا أن نفهم أن الأمر يتعلق بوعود كاذبة. كان يكفينا النظر إلى هؤلاء الناس بعيونهم العطشى. تتعقب الجنود نسور ونسور. ما إن تُترك المنازل حتى ينقض الدركيون عليها سالبين كل الأشياء القيّمة، ثم يأخذ الآخرون الباقي. وتحت ذريعة البحث عن السلاح، يأخذون كل ما يحلو لهم.

رسمت الصليب على صدرها، وهي تهمس:

- هل تريدين أن أخبرك؟ صار الرب مجنوناً...

لربما كانت العجوز محقة.

- وبعد؟ ماذا حدث؟

- لا شيء. لا شيء.

- زوجك؟ ابنك؟

غيّرت تكشيرة ألم سحنة وجهها المجعد، وأشارت بيدها إلى مكان الجيد علامة على الذبح وهي تقول:

- ما إن خرجنا من غولوكوا، حتى أنزلوا الرجال من العربات واقتادوهم إلى الغابة. عندما عادت فرق الموت، كانت الخناجر التي في أيديهم مغطاة بالدم.

ثم صمتت. علق الرجل ذو الشعر الأبيض بصوت أبح وكئيب:

- كان الأمر مشابهاً أيضاً ببايبورت. لم يعد أحد هناك من بني جلدتنا. أخذ الجنود الجميع. الشباب والشيوخ. الجميع. انطلق البعض بلباس عملهم تاركين ورشاتهم مفتوحة، والمحارث بحقولهم، وماشيتهم بالجبل.

- إلى أين؟ إلى أين ذهبوا بهم؟

- أنى لي أن أعلم؟ الأكيد أنهم قيدوا الرجال إلى النساء مثل الدواب، ومن دون طعام طبعاً. خلال هذا الوقت، كنت في عينتاب.

وعندما عدت إلى البيت، كان كل شيء قد انتهى. في هذا الوقت اعتقلني الجنود.

- وأسرتك؟

- رحلت. اختفت... زوجتي، وأبنائي الثلاثة. لم يعد لي أحد. كان الأفضل لو تركوني أموت.

كان صخب رهيب يأتي من الخارج.

زحفت شوشان حتى فرجة الخيمة، وأزاحت خفية جزءاً من الخيمة. كان المشهد أمامها يصيب بالدوار.

خلف ستار من الرمال، كان رجال ونساء وأطفال متشابكين بحزم على ظهورهم، ومنهم من يمسك دابة عند طرف حبل، وآخر عنزة أو بقرة أو خروفاً. وكان هناك جنود يراقبونهم بخناجر ألصقت قرب فوهات بنادقهم. أمر أحد الضباط الناس بأن يشكلوا مجموعات، وكان المقاومون منهم يدفعون بضربات عصي. والغريب في الأمر أن بعض الفتيات كن قد غطين وجوههن بشراشف وهو الغطاء الذي تضعه المسلمات عادة.

استنتجت شوشان أن مردّ ذلك حتى لا يثرن الرجال الأفظاظ الذين كانوا يقودون العربات. أزاحت نظرها فرأت أكراداً ينهبون المتاجر، ويحملون ما ينهبون على ظهور مطياتهم. كانت تسمع أسماء محبوبة تمر من صف إلى آخر، ومن مجموعة إلى أخرى، لكن من دون أن تلقى أي صدى.

تأوه صوت طالباً:

- صلوا من أجلنا! لن نتقابل أبداً في هذه الدنيا، لكننا سنتقابل في يوم من الأيام!

رددت العجوز التي جثت قرب شوشان قائلة:

- ألم أخبرك بأن الرب قد جن؟

- أين أمي؟

استدارت الفتاة إلى أخيها. كانت المرة الأولى التي قال فيها شيئاً منذ مأساة الليلة الماضية. كرر سؤاله:

- أين أمي؟

مهتاجة، أخذته شوشان في حضنها.

أنى للمرء أن يجد كلمات في هذا الفجر حيث لم يعد لأية كلمة من معنى؟

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً عندما أزاح جندي مدخل الخيمة وأمرهم قائلاً:

- تعالوا!

سأل الرجل ذو الشعر الأبيض:

- أين تأخذوننا؟

- سيكون لديك الوقت لتعرف. هيا! اتبعوني!

كان عسكريون يستعرضون أعداداً وأرقاماً. «الموكب رقم ٥. الموكب رقم٢، مئة وخمسون!» وكان الأسرى لا يفهمون شيئاً من كل هذا.

في إحدى اللحظات، وبخ أحدهم شوشان التي كانت تحاول النظر إلى التجمع. كان يلزمها بعض الثواني لتتعرف إلى القس دير أغوبيان الذي يقوده جنديان، ووجهه مكسو بالدماء. كان يشير لها بحركات يائسة.

وصرخت:

- دير آيغ! دير آيغ! أبتاه!

كانت شفتا القس تحاولان قول شيء لم تتبينه، ثم اختفى إذ ابتعلته الزوبعة.

زمجر الجندي قائلاً:

- تحركوا!

وصلت شوشان والآخرون إلى صف طويل حيث وجوه النساء البئيسة تلامسها الريح. أما الرجال، فقد كانوا يجمعون بمعزل عنهن.

أمر الجندي شوشان وآرام والعجوز بأن يأخذوا مكانهم بإحدى العربات، ثم أضاف موجهاً كلامه إلى الرجل ذي الشعر الأبيض.

- وأنت التحق بالآخرين في الجانب!

وعوض أن يطيع الأمر، هز الرجل رأسه عدة مرات، قبل أن يصرخ ألماً، ويجثو على ركبتيه قائلاً:

- الرحمة!

بدت ملامحه فجأة كحيوان مطارد:

- ميرحامت!

أضاف وهو يغرز أصابع يديه في خديه:

- محمد رسول الله! لا إله إلا الله![٨٠]

رشقه الجنود بنظرات مهانة، ثم قال أحد الجنود برتبة يوزباشي:

- هكذا إذاً؟ منذ متى اعتنقت الدين الصحيح؟

- كلا، أنا ما أزال كافراً قذراً، لكني مستعد للتخلي عن الدين المسيحي. أنا مستعد يا أفندي.

واستمر في ندب وجهه، لكن بحدة أكبر هذه المرة.

رد النقيب قائلاً:

- ماذا تعتقد؟ ليست الأمور بهذه البساطة. عليك أن تتقدم إلى

---

(٨٠) هكذا ورد ذكرها في الأصل مع ترجمتها إلى الفرنسية. المترجم.

المُلاّ[81] وتؤدي اليمين، ثم توقع على وثيقة تشهد من خلالها بأنك تريد اعتناق دين النبي صلى الله عليه وسلم بمحض اختيارك.

- سأقوم بكل ما تطلبونه مني يا أفندي. سأوقع.

وانطلقت ضحكات هازئة.

استعطف الرجل بظهر مقوس وركبتين خائرتين قائلاً:

- أريد أن أبدل ديني. أرجوكم. بحق الله القوي والرحيم.

قالت العجوز:

- مقزز.

ثم زمت شفتيها كي لا تقول شيئاً بذيئاً. أضافت بعد لحظة قائلة:

- كيف تتخلى عن ديننا الذي عمّر أكثر من ألف سنة؟ دين شهدائنا؟

طرحت السؤال، وكانت تعرف الجواب.

كان الحديث الوسيلة الوحيدة للفرار من الموت أو من الإبعاد. تردد أنه وفي سيليسيا قبل ست سنوات بعد مذبحة أضنة، اعتنق المئات من الأرمن دين النبي. لم يكونوا أحراراً في اختيارهم بما أن السلطات التركية منحتهم هذا المنفذ الوحيد، خصوصاً للنساء والفتيات. ولأكثر من عشر سنوات، كان لهؤلاء البئيسات كل الحظوظ بأن تقفل عليهن أبواب الحريم بإحكام، أو أن يبَعن. وكانت المحاولة أكثر قوة للفرار من الموت أو من فقدان الشرف. لكن بالنسبة لرجل؟ وشاب أيضاً؟ ذلك أنه وعلى الرغم من شعر رأسه الأبيض، لم يكن قد تجاوز الثلاثين من العمر.

كررت العجوز:

- كيف تتخلى عن ديننا؟

---

(81) هكذا وردت في الأصل. المترجم.

غير أن الآخر لم يكن يسمع.

كان قد ارتمى ويداه تتمسحان بحذاء النقيب العالي، مردداً:

- محمد رسول الله! لا إله إلا الله!

غضِباً، أمسك الجنديُّ الأرمنيَّ من كتفه وأجبره على الوقوف على رجليه. وصار الآن أحدهما قريباً من الآخر.

- هيا! إذهب والحق بأشباهك! لا شرف لك لتنتمي إلى أبناء الله إذهب!

ودفعه بقوة.

في الوقت نفسه الذي كان الرجل يتراجع إلى الخلف، تمكن من أخذ مسدس العسكري الذي كان في حزامه، وفاجأ الجميع بأن صوّب المسدس إلى رأس الجندي وأطلق النار. ثم وفي حركة موالية، وبالسرعة نفسها، أدخل فوهة المسدس في فمه وضغط الزناد مرة ثانية. وبصوت مكتوم، اخترقت الرصاصة حنكه وخرجت من رقبته.

القسطنطينية، في الوقت نفسه، وزارة الحربية

- هل تحبون أخذ مشروب كركادي رطب جداً سيد مورجونطو؟

رفض الدبلوماسي العرض.

تنهد طلعت باشا قائلاً:

- خسارة. هل تعلمون أنه شراب مدرّ للبول بشكل جيد؟

أخذ جرعة أخرى، بعينين مغلقتين حتى يستمرئ لذة المشروب بشكل أفضل، ثم أعاد وضع الكأس على المكتب قبل أن يواصل:

- كما أخبرتك. هي مسألة تهمني جداً. وإذا ما دعوتكم فلأني متيقن من أنكم تستطيعون مساعدتي. هل تعرفون «النيويورك لايف

إينشورنس كومباني» و«الإيكويطبل لايف أوف نيويورك»؟ هما شركتا تأمين أمريكيتين؟

- أجل.

أمسك طلعت بمسندي مقعده وهو يقول:

- تصوروا أنه وبحسب معلوماتنا، فإن أغنياء الأرمن قد وقّعوا عقود تأمين حياة لدى هاتين الشركتين. والمبالغ المعنية هامة جداً.

رد الأمريكي الذي لم يدرك جيداً ما يقصده محدثه:

- هذا ممكن.

- صديقي العزيز. سأقصد الهدف مباشرة. أريد أن تمكنوني من لائحة من تشملهم هذه العملية.

- لا تخبرني بأنك جاد! وعلى فرض أني أملك السلطة لذلك، ما السبب الذي يدفعني للقيام بذلك!؟

- ما السبب!؟ فقط باسم التوافق الجيد الذي عليه أن يستمر بين دولتينا. خذ بعين الاعتبار بأن هناك حظوظاً قوية بأن يموت هؤلاء الزبناء الأرمن في أجل قريب، ومن دون ترك ورثة خلفهم. وبالتالي سيكون من المؤسف أن تختفي الأموال التي دفعوها لصالح هاتين الشركتين.

سيكون من العدل أن تعود هذه الأموال إلى الحكومة التركية.

أخذ مورجونطو يتنفس بصعوبة. هل كان الرجل المقابل له في كامل قواه العقلية؟

- لكن من يسمح لكم بأن تفترضوا بأن هؤلاء المنخرطين سيموتون «في أجل قريب». وكيف تؤكدون أنهم لن يتوفروا على ورثة؟

لم يرد طلعت فوراً، بل أدخل يده في جيب سترته، وتناول سبحته، وبعد أن أخذ ينقر حباتها للحظات شرح بالقول:

- لاحظوا أن الغالبية العظمى من هؤلاء الناس قد بلغوا من العمر

عتياً، والرحلة التي تنتظرهم قد تجعلهم، وأنا آسف لهذا، أكثر هشاشة. أما بخصوص ورثتهم، فمن المرجح جداً عند نهاية هذه الحركة العامة أن نعثر لهم على أثر. إذن أنتم تفهمون... كل هذا المال المفقود! يا للخسارة!

فتح مورجونطو فمه ليعبّر عن كل التقزز الذي يثيره لديه اقتراح مشابه، غير أنه لم يجد القوة لفعل ذلك. أعاد مقعده إلى الخلف، وقام. وتحت أنظار مضيفه الذاهلة، انصرف.

٢٠

الأناضول، منطقة إرزاندجان، ٧ أيار

بلغ اليوم منتصفه. وكان نوره مشعاً. كانت أشعة الحرارة المتقدة التي تصدرها الشمس تعطي الانطباع بأن كل الأناضول تحترق.

بعينين كئيبتين، كان آرام الجالس في عربة لا تكف عن الاهتزاز، وقد ضم ركبتيه أسفل ذقنه ليتأمل المنظر المرتعش أمام ناظريه. وإلى جواره، كانت شوشان نائمة. أما بقية الركاب، وكانوا حوالى عشرة، فقد كانوا يركزون أنظارهم ببله على الطريق المنعرجة. في البداية، كانت الدموع والشكوى. أما الآن، فليس هناك إلا خفقان القلوب والصمت. صمت لا يكسره إلا هسيس الريح أو الخرير البعيد للفرات الذي يجري إلى تيغرا.

كم كانوا؟ عندما انطلقوا من إرزروم حوالى عشرة آلاف. لكن وفي مدينة تيردجان حيث توقفوا البارحة أضيف إليهم ألفان أو أكثر. والآن، أخذوا يميلون محروسين بأربعمئة رجل درك. إثنا عشر ألف إنسان يتبعون ثلاثمئة وسيلة نقل محملة بالسلع ثم الدواب من أبقار وماعز وخراف، ممتلكاتهم الوحيدة.

هي رؤيا قيامية. وهناك آخرون أيضاً، يلقون المصير عينه من زيتون إلى بيتليس، ومن مالاطيا إلى ديار بكر، ومن فان إلى أورفة ومن

تريبيزون إلى سيفاس. شعب بأكلمه يتقدم على بساط جنائزي بشعار الهلال والنجوم. موكب غريب يستدعي منذ مروره استغراب الأشجار والسماء، ذلك أنه لم يكن مشكلاً في الأساس إلا من النساء والأطفال. فغالبية الرجال سيقوا إلى مكان غير معلن. وما من شك نظراً للصراخ والدموع التي رافقت لحظة الفراق، في أن وجهتهم كانت من دون شك، الموت.

فتحت شوشان عينيها.

كانت سلسلة جبال تمتد إلى الشرق. وبعيداً، كانت تُرى قرية يتيمة وضعت على حافة هضبة. كانت مثل تكتل للحصى.

سأل أحدهم بصوت ضعيف:

- أليست هذه مونزور داغ؟

ردت غاريني المرأة التي اقتسمت الخيمة مع آرام وشوشان قبل رحيلهم:

- لا أعتقد ذلك. فالقمة تقع بعيداً إلى الجنوب.

شرحت شابة تدعى نازلي:

- نحن نتوجه إلى إرزاندجان.

عندما عرفت نفسها خاطبت شوشان نفسها بأنها استحقت اسمها الذي يعني «اللطيفة». كان سنها ما بين الثامنة عشرة والعشرين، لكن ملامحها طفولية. وكانت من الناجين من بايبورت المنضمّين إلى الموكب. توفيت والدتها سنوات قبل ذلك، أما والدها فقد أُخذ مع الرجال الآخرين.

سألتها شوشان قائلة:

- كيف عرفت بأننا نتجه صوب إرزاندجان؟

- لأني مررت عبر هذه الطريق أكثر من مرة رفقة والدي.

إرزاندجان، مدينة سوغومون. أين هو الشاب في هذه اللحظة؟

هل قاده عدم حذره إلى العودة من برلين؟ كتب في رسالته «أمضي وقتي في عد الأيام قبل عودتي إلى الأناضول». لعل والده هدأ من قلة صبره. على كل حال، هذا ما يجب أن تأمله.

وعاد الصمت مجدداً.

مررت شوشان يدها على شعر أخيها الذي ترك تنهيدة تصدر عن صدره.

- أنا عطش.

- عليك أن تنتظر.

وأشارت إلى الدركي الذي كان يدور جوارهم، وهي تضيف:

- إنه وأشباهه سادة الماء.

علقت غاريني بالقول:

- وهم يمنحوننا قطرات محسوبة منه. مع أن النقيب نصرت يبدو إنسانياً إلى حد ما. أمس وعندما نصبنا مخيمنا سمح لنا بنصيب إضافي من الفاكهة.

أكدت امرأة تجلس جوارها:

- هذا صحيح. يبدو أنه خيّر. فعلى الرغم من أنه لا يبدي ذلك، إلا أننا نشعر بأنه ليس راضياً عما يُفعل بنا.

فكت امرأة عقدة حزام كانت تعقده إلى صدرها وأخرجت برتقالة قدمتها إلى آرام قائلة:

- خذ يا صغيري.

هز الطفل رأسه قائلاً:

- لا. لا. إحتفظي بها. يمكنني أن أصبر.

أصرت المرأة قائلة:

- لدي المزيد. خذها.

- شكراً ديغين.

وابتسمت له ابتسامة ودودة.

- مضى وقت طويل لم يناديني أحد خلاله «سيدتي». أدعى يشتر.

وكما الأخريات، كانت يتيمة أيضاً. فوالدها وإخوتها وزوجها وابناها الكبيران أخذهم منها الأكراد. أخذوا كل شيء إلا أيقونة تمثل القديس غريغوار المنير، وهو يمنح بركة إلى الملك تيريدات، وقد كانت تحتفظ بها داخل كيس من جلد الماعز. ومن وقت لآخر، كانت تخرجها وتتلو شفتاها صلاة صامتة قبل أن تعيدها إلى كيسها.

وكان الحوذي وهو رجل قصير خدّدت الهموم وجهه، قد لحظ ذلك من مداره، ذلك أنه مال نحو المرأة برأفة قائلاً:

- ألا تعتقدين يا هانم بأنه يلزمك أكثر من صورة لتساعدك؟

- تعلمون من دون شك أنه عندما نفقد كل شيء يبقى لنا إيماننا بالرب فقط.

وافق بفتور قائلاً:

- أتمنى إذاً أن يكون هذا الإيمان رسخ في قلوب عشرات مواطنيك من مراش حيث حولوا إلى أحصنة.

- حولوا إلى أحصنة؟ ماذا تقصد؟

- لما رفضوا الرحيل عن المدينة، دق الأكراد في باطن أقدامهم حوافر أحصنة حديدية. في اعتقادي لم تكن تلك أفضل وسيلة لجعلهم يتحركون.

أمسكت شوشان شهقة، وضمت قبضتها.

ولساعات إضافية، استمر السهل في تمرير بساطه الأخضر حيناً، واليابس حيناً آخر. ولم يتوقف الموكب إلا حين أوشكت الشمس على الانطفاء.

- ليترجل الجميع! ليترجل الجميع!

كانوا في مدخل إرزاندجان. وكانت أنقاض الجزء الأعلى

المحصن من المدينة الإغريقية المهداة إلى أناهيت تعزل في الغسق، وهي تشهد على ألفية أرمينيا الوثنية. ترجلت الأمواج البشرية من العربات كأمواج القعر على جسر عائم. ثم وفي طقس أضحى مألوفاً، نصب المبعَدون ورجال الدرك الخيم، وأخذ الناس يتجمعون في مجموعات صغيرة ثم أُشعلت النار. وفي البعيد، كان يُسمع خرير نهر الفرات الذي كان يجري بكل هدوء في بداية الليل. وكان كل ركاب العربة رقم ٢٧ حيث توجد شوشان وآرام والآخرون، قد ترجلوا وشكلوا حلقة صغيرة. وشيئاً فشيئاً لحق بهم مبعدون آخرون، وأخذت الحلقة تتسع. كان هناك انطباع بأنه ومع ضوء النار، كانت ملامح الأطفال الرمادية متوحدة مع مرمح الشيوخ والعجزة. وما إن جلسوا حتى أخذت الأصوات تنسل ككل ليلة الأسئلة ذاتها «أين يقودوننا؟ لماذا؟ هل تعتقدون أننا سنلتقي أهلنا؟ أين يقودوننا؟ لماذا؟ هل تعتقدون أننا سنلتقي أهلنا؟»

- مرحباً![٨٢]

رفع الشجعان منهم رؤوسهم إلى النقيب الذي حياهم. كان نصرت. رجل قصير القامة في الأربعين من عمره تقريباً بشارب، ووجه مضيء وحدقتين كئيبتين. بالكاد رفع قبعته وأعاد وضعها على رأسه.

- كيف حالكم؟ كان اليوم حاراً.

ولما لم يكن هناك من جواب، مرر نظره بطريقة دائرية على التجمع الصغير قبل أن يعلن بحزن:

- لديّ أخبار سيئة. أُعلمت بأن هناك عصابة كردية تدور منذ هذا الصباح حول الموكب. هذا مقلق. إنهم مجرمون، وقد يهاجموننا في أية لحظة.

---

(٨٢) هكذا وردت في الأصل. المترجم.

سأل أحدهم:

- كيف سيجرؤون؟ أنتم أكثر من أربعمئة ضابطية، ومسلحون بشكل جيد. إذن...

غطى الحزن ملامح اليوزباشي، وهو يقول:

- صحيح أننا أربعمئة، لكن وأمام هؤلاء الأوغاد، لا نستطيع للأسف الشديد الوقوف أنداداً لهم. إنهم مقاتلون أشاوس.

صرخت شوشان:

- ماذا يريدون منا؟ ليس لدينا شيء! أنتم تعلمون جيداً بأن كل هؤلاء الناس تركوا كل شيء خلف ظهورهم.

زاد حزن النقيب، وهو يشير إلى الدواب المحملة بالسلع، والمجمعة في إحدى زوايا المعسكر وهو يقول:

- وهذه؟ هي غنيمة لا يستهان بها.

ووجمت كل الوجوه. كان محقاً، فإذا ما حضروا لسلبهم هذه البقايا البئيسة من فورهم هذا، فإنهم سيلفون أنفسهم منهوبين بالكامل.

أضاف الدركي قائلاً:

- لكن وعلى الرغم من كل هذا اطمئنوا. فلربما هناك طريقة لتفادي مذبحة.

ومسّد بإبهامه وسبابته أحد طرفي شاربه، قبل أن يقول:

- تعلمون بأن كل شيء يُباع ويُشترى في هذه الحياة. فالقليل من المال سيهدئهم. يكفي بأن يتخلى كل واحد منكم عن مبلغ صغير... فلنقل حوالى عشرة جنيهات. هي شيء قليل، وسأبذل قصارى جهدي لإقناعهم بتركنا سالمين.

وضع يديه على خاصرتيه، وختم بالقول:

- إذن؟ ما قولكم؟

ارتفع صوت غمغمات غير مفهومة.

قال نصرت باستياء:

- لديكم طبعاً عشرة جنيهات!

بعد لحظات من الأخذ والرد، تقدم أحد الرجال القلائل الحاضرين من الدركي، ومنحه بخضوع كبير بعض القروش[٨٣] قائلاً:

- تفضل هذا كل ما أملك.

- هذا جيد يا أخي. هذا جيد. أنت تقدم مثالاً على الحكمة. أخبرني ما اسمك؟

- غاريبس.

- غاريبس. سأتذكر هذا.

أخفى النقيب المبلغ في جيب سلفاره وأخذ ينتظر.

لم ينتظر طويلاً، ذلك أنهم تقدموا منه واحداً في إثر الآخر، تقريباً كل أعضاء التجمع الصغير شكلوا صفاً واحداً طويلاً، ومنحوه ما يملكون. وفي أقل من عشر دقائق، جمع الضابطية نصرت مبلغاً محترماً وصل إلى ستمئة جنيه.

- تمام! تمام يا أصدقائي! سأذهب الآن للتفاوض مع أولئك الكفرة.

وقصد مجموعة أخرى.

سأل الرجل الذي كان أول من أذعن للأمر، وكان يدعى شافارش قائلاً:

- هل تعتقدون أنه صادق؟

ردت يشتر، امرأة الأيقونة قائلة:

- أنى لنا أن نعرف؟ على كل حال، إذا ما توجه إلى الجميع فسيحصل على مبلغ كبير في نهاية المساء!

---

(٨٣) كان الجنيه التركي يعادل مئة قرش. الكاتب.

اقترحت غاريني بالقول:

- لربما يوجد فعلاً هؤلاء الفرسان الأكراد.

انطلق صوت آرام قائلاً:

- رأيت سحب الغبار التي ترفعها حوافر أحصنتهم. هم يتعقبوننا منذ البارحة.

تحولت كل الوجوه إلى الطفل.

- هل أنت متأكد؟

- هل رأيتهم فعلاً؟

- هل هم كثُر؟

أكد آرام قائلاً:

- أجل، هم كثُر.

كان يهم بالمواصلة حين أثارت انتباههم جلبة مصدرها أحد أطراف المعسكر. ظلال لحوالى ألفين أو ثلاثة آلاف ربما، ظهروا فجأة من مخرج إرزاندجان. مجموعة من أطفال يترنحون نعاساً، ونساء أصاب الهزال أجسادهن حتى شق أن يتم تثبيتهن على متون بغالهن. نساء حوامل أيضاً، وحفنة من الرجال تجاوز جلهم الستين من العمر.

قامت شوشان والآخرون ذاهلين ليشاهدوهم.

غمغمت يشتر بالقول:

- وكأنهم أموات أحياء. هم جميعاً من أرمن إرزاندجان.

رد أحدهم قائلاً:

- من دون شك.

وبخلاف رجال درك إرزروم وبايبورت الذين كُلفوا بالأمر لحد الآن، كان المرافقون للناس من إرزاندجان لا يراعون شيئاً، إذ إنهم ما كانوا ليعدموا وسيلة لدفع المتخلفين، وحثهم على التقدم، سواء بالشتم أو الضرب أو التهديد. وسواء تعلق الأمر بالرجال أو بالنساء أو

بالأطفال أو بالمسنين، لم يكن للجنس أو للسن من أهمية تذكر.

تقسم الوافدون الجدد وفق نظامٍ أُعِدَّ سلفاً بكل تأكيد، وعاد الهدوء بشكل لا يصدق كأنه بفعل مخدر.

جلست فتاة شعثاء بملابس ممزقة وبوجه ملاك، غير أنها كانت كما لو كانت بقناع إسبيداجي، قرب آرام ويشتر. لم تلق تحية، بل جمعت ركبتيها إلى صدرها، وضمتهما بذراعيها وظلت من دون حراك مستسلمة للصمت.

اقترحت عليها غاريني سيميت وهو قرص خبز محمص رش بالجلجان.

ورفضت.

كان هناك مزيج من اليأس والغضب في رفضها إلى حد أن أحداً لم يجرؤ على سؤالها.

- شوشان؟ آرام؟

متفاجئين استدار الأخ والأخت.

في البداية، فكرت شوشان أنها ضحية للوهم. لكن عندما صرخ آرام «سوغومون!» هنا فقط لم يعد لديها شك. أجل. كان سوغومون بلحمه وشحمه وعظمه. سوغومون تيليريان.

وقفت شوشان على قدميها، وناسية أي مراعاة للسلوك، ارتمت في أحضان الشاب.

تركها لحظة في حضنه.

- مساء الخير أيها الأصدقاء.

تعجب آرام الذي ولأول مرة منذ رحيلهم أعطى الانطباع بأن الحياة قد عادت إليه:

- يا لها من مفاجأة!

بصمت فحص سوغومون المجموعة الصغيرة المجتمعة حول

النار، ودوماً بتلك النظرات النافذة، لكن بشيء جديد عصيّ على الوصف. بوميض قريب من ذاك الذي يصدر عن عيني الفتاة التي سبقته، زد على أنه اختار الجلوس إلى جوارها.

همس قائلاً:

- لقد انتهى الأمر يا إيفا. انتهى...

مالت الفتاة برأسها بينما تألقت الدموع بعينيها دون أن تحاول منعها.

دنت شوشان من سوغومون، ثم سألته بمسحة خوف جلية في صوتها قائلة:

- وأبواك؟

صر على أسنانه.

عادت لتسأل:

- وأبواك؟

- بالساطور... قطعوا أبي وأمي بالساطور. وذبحوا أخي، ونورة أختي...

صمت وركز نظره على الفتاة:

- أذاقوها الويل نفسه...

صدر صوت إيفا. كان أبحَّ وبطيئاً:

- أنا من تريبيزون. أجبرونا على المشي حتى شعاب كيمالش في المكان الذي يشكلون فيه فرضة في الجبل، على بعد خمسين كيلومتراً من إرزاندجان. وفي أسفل المنحدر، ينحصر ماء النهر ويتحول إلى ماء سريع الجريان. وهكذا، صفّوا النساء والأطفال والأمهات والبنات في صف واحد، وتحت أنظارنا أرغموا الرجال على القفز في الفراغ. وكل من قام، قُتل من فوره بطلقات بندقية رشاشة. وإذا ما حاولت زوجة أو أم أن تتدخل أو تتوسط كانت تلقى المصير عينه. كذاك رأيت والدي

يغوص في الهاوية وأمي تغرق في دمها وتنزف حتى الموت. لم أستطع التحمل. أصابني الجنون. أجل. الجنون. الجنون. أنتم تفهمون، أليس كذلك؟ هجمت على الجنود. نشبت أظافري في أذرعهم، وخدشت خدودهم. كانت حولي مخلوقات مسكينة تجر عند أقدام حرسنا تتوسل إليهم بأن يقتلونا بسرعة، في حين كان يلقي آخرون بأنفسهم بمحض إرادتهم في الفراغ. بعد ذلك، لم أشعر إلا بأيد تمتد لي، وتنزع عني ثيابي، وزعيق وأسفل بطني يُخدد مرة في إثر أخرى، وأخرى. كم من رجل؟ كلا. لم يكونوا رجالاً، بل حيوانات متوحشة. لم أعد أعلم.

صمتت كأنها بلغت آخر أنفاسها، وعادت لتضم ركبتيها إلى صدرها هذه المرة بقوة أكبر.

- أشعرني قذرة. قذرة جداً. جبال من الجثث ألقيت في الهاوية مصحوبة بشتائم الجنود. وكان بإمكاننا رؤية الأجساد الفاقدة للحياة تتكدس عند نتوءات الضفة مشكلة حواجز. وكانت تسمع قرقعة الأجساد المهشمة عند اصطدامها بالحواجز الصخرية، وخلال كل هذا الوقت، لم تغب الشمس، ولو للحظة واحدة.

صمتت. كانت عيناها جافتين. وكان من المرعب النظر إليها، ذلك أن وجهها تصلب.

وبعد لحظة صمت، تقدم منها آرام، ولامس خدها بلطف، وخاطبها بنبرة لم تعهدها منه شوشان أبداً، قائلاً:

- تألمي. تألمي. سنتألم أيضاً. لكن مهما عظُم المنا، صار انتقامنا أشد رعباً، وأنت أيضاً يا سوغومون، تألم... تألموا جميعاً...

وبينما كان يتحدث، لاحظت شوشان أنه ما زال ممسكاً بالحجرة السوداء الصغيرة أولتي تازي، ذكرى هوفانيس.

٢١

قرية سام ـ سات على نهر الفرات، ١٥ أيار

بعد مرحلة كانغال، توجهوا نحو مالاطيا حيث التحقت بهم مجموعة من الأشباح الجديدة لتزيد في تضخيم صفوفهم. شعور شعثاء، وأجساد هزيلة، وخطوات مترددة. كانوا متشابهين جداً إلى حد أنه يمكن الحكم على أغلبهم إن لم يكونوا فعلاً، كإخوة. صار عددهم كبيراً إلى حد أنه يستحيل عدهم. هل كانوا خمسة عشر ألفاً؟ سبعة عشر ألفاً؟ كانوا من دون شك، أكثر من عشرين ألفاً. عدد يمكن مضاعفته مئة مرة، ما دامت هناك العديد من القوافل المشابهة التي تنسج خط سيرها الأسود عبر كل الأناضول، وسيليسيا. لكن العد يصيب بالملل. وهنا الملل أيضاً من سماع الحكايا نفسها على لسان الناجين المتنافسين على رواية الفظاعات إلى حد أن القلب يعجز عن سماعها ويرفض العقل تصديقها.

ومع استمرارهم في التقدم، أضحى المنظر قاحلاً أكثر معلناً الاتساع الصحراوي.

وخلال الأيام الأخيرة، قلص الحرس بشكل كبير نصيبهم من الماء والطعام. وسرعان ما أخذت الأجساد الأقل تحملاً تؤدي فاتورة هذا النقص، وتناثرت الجثث على امتداد الطريق مهجورة من دون دفن.

خمسة عشر يوماً.

تفاجأ رجال الدرك من رؤيتهم ما زالوا واقفين على أقدامهم. بأسمال بالية وثياب رثة «هناك شعوب لها حياة صعبة». هكذا كانوا يحدثون بعضهم بعضاً عند مغرب شمس كل يوم حين يحصون الموتى «ليس هناك سوى عشرين اليوم. إنه يوم سيّئ. علينا رفع وتيرة كل هذا!»

والآن، لم تعد المجموعات بعيدة جداً عن قرية سام ـ سات على نهر الفرات.

وفوق رؤوسهم، كانت الشمس تسارع إلى تخوم الأفق. كانت تفر ممتطية السحاب، كأنها تحاول الفرار من رؤية شعب يموت.

إلى البارون هانس فون فانجنهايم سفير ألمانيا

قنصل إرزروم (شوبنر ريشتر)

سفارة ألمانيا بالقسطنطينية.

١٣ أيار ١٩١٥

اتخذت تدابير الطرد في حق مجموع السكان الأرمن في المنطقة بناء على أمر من القائد الأعلى للجيش، وبررت بالنظر إلى اعتبارات عسكرية، وبما أن الرجال الأرمن ملحقون بالخدمة في ألوية العمل، فإن النساء والأطفال هم من تم طردهم في الأساس من بيوتهم، مجبرين على التخلي عن كل ممتلكاتهم. ولأنه ليس هناك ما يدفعهم إلى الاعتقاد بأن هناك ثورة في صفوف الأرمن، فإن هذا العمل الوحشي القاضي بالنفي والإبعاد، لا يستند إلى أي أساس ويستدعي

الغضب. إن الإدارة المدنية غير معنية، وتخلي مسؤوليتها عن كل النتائج التي قد تنجم عن هذا الأمر.

توقيع ماكسيم فون شوبنر

نسخة إلى وزارة الدولة.
قنصلية الولايات المتحدة بمأمورية أول عزيز (خربوت)
إلى صاحب السعادة السيد هنري مورجونطو
سفير الولايات المتحدة بالقسطنطينية.

١٢ أيار ١٩١٥

سيدي السفير
أتشرف بأن أوجّه لكم في طيه بوصل يحمل ختم السفارة، المراسلات الموجهة من قبل هذه القنصلية إلى السفارة عن طريق البريد المضمون الموضوعة في مركز البريد التابع لمأمورية أول عزيز في الثاني من شهر أيار، تحت العدد المضمون ٩١٢. هناك بعض الغموض يلف هذه البرقية، ذلك أنها وُجدت في مظروف أقل حجماً موجه إلى القنصلية العامة. المظروف الذي وضعت فيه هذه المراسلة الموجهة إلى السفارة والتي تتضمن برقية مرافقة ترجو القنصلية العامة بإرسالها إلى السفارة. أعلمتني السفارة والقنصلية العامة بأنهما لم تتوصلا أبداً بهذه البرقية، غير أنه من المؤكد أن المظروف الذي تضمنها وصل إلى شخص لديه ختم السفارة. سأكون ممتناً إذا ما أجرت السفارة تحقيقاً في الموضوع، وأعلمتني بنتيجته.

لي الشرف يا سيدي السفير بأن أكون خادمكم المطيع جداً.

توقيع ليسلي أ. دافيس. القنصل

- كلا!

دوت الصرخة في العنان، وتردد صداها حتى النهر. كانت جماعة من الفرسان الأكراد تهاجم العربات وركابها في عاصفة من الرمال. رفع غاربيس الرجل الذي كان أول من قدم للنقيب الضريبة التي طُلبت من قبل هؤلاء الأكراد أنفسهم ليبتعدوا عنهم، أسبوعين قبل ذلك. رفع ذراعيه إلى السماء، وهو يقول متأوهاً:

- كذب نصرت! لقد كذب!

كان آلاف المبعدين يراقبون أيضاً عاصفة الرمال، مثل شوشان وآرام وسوغومون وإيفا.

عاد غاربيس ليقول وكأن مساً أصابه:

- لكن ماذا يفعل رجال الدرك؟ وكأنهم يفرون!

عارضته يشتر مبدية شكها في الأمر:

- مستحيل! لا شك أنكم مخطئون.

لم يكن غاربيس مخطئاً، ذلك أن رجال الدرك وقادتهم كانوا يبتعدون إلى الهضاب، غير أنهم لم يكونوا يفرون، بل كانوا يفسحون الطريق بكل بساطة.

شهقت غاريني قائلة:

- هذا غير ممكن! إنهم يتخلون عنا، ويتركون لهم حرية التصرف فينا!

صرخ سوغومون موجهاً حديثه إلى شوشان وإيفا:

- تعاليا! إتبعاني!

وجر آرام من يده قاصداً الكثبان التي تبدو من جهة الشرق.

وبغريزة البقاء، بحث الرجال عن حجارة، عن عصا، عن سلاح كيفما اتفق، في حين عمد الآخرون، وفي حركات عبثية، إلى جمع قبضاتهم مستعدين للقتال أو واضعين أجسادهم كحصون لحماية زوجة أو أخت أو طفل.

صرخ أحدهم قائلاً:

- إنهم يسلخون، ويفقأون العيون، ويقتلعون الألسنة بالملاقط، ويقتلون، لكن أنتم يا من ستحيون، سواء كنتم رجالاً أو نساءً، انتقموا لنا!

كان الفرسان المسلحين بمسدسات وبنادق ويطاقين، ينقضّون على الجموع البشرية غير المسلحة. لم تتأخر رائحة البارود الممزوجة برائحة الدماء في زكم الأنوف. كانت مكثفة وخانقة. كانت جلبة وبائية.

وكان النقيب نصرت ورفاقه يراقبون من الجانب العرض. كان الضابط يسحب أنفاساً من سيجارته لينتهي بتحويل نظره، فمنظر هذه الرؤوس التي تتمرغ في الرمال بدأ يصيب بالضيق.

وكان سوغومون وشوشان وآرام وإيفا منبطحين أرضاً خلف منحدر، كاتمين أنفاسهم.

خاطبت شوشان أخاها، وهي تجره إلى حضنها قائلة:

- اقترب، أرجوك، لا تنظر.

غير أن آرام حرك رأسه علامة الرفض. كان كما لو أنه لا يريد أن يفقد أي مشهد من المشاهد المأتمية التي تدور أمام ناظريه. كان يرتوي منها.

وفي البعيد، كان الأكراد يواصلون مهمتهم بشكل ممنهج.

على امتداد كيلومترات، تكومت الجثث على الرمال والدغل.

- أيتها الجراء!

وفي انعكاس ضوء النهار، بدت قامة عضو الميليشيا الكردي كأنها ظل من حجارة. كان سكين مضمخ بالدماء يلمع في طرف بندقيته.

- قفوا!

اخترق تيار بارد جسد إيفا.

اقترب حوالى عشرة من أعضاء الميليشيا إضافة إلى رجال الدرك، ومع رؤيتهم للفتاتين قهقهوا قائلين:

- غنيمة جيدة يا أخي! كم تعتقدهما تساويان؟

- جوهرتان مثل هاتين، وجميلتان مثل البدر؟ ليس أقل من ألف جنيه للواحدة.

- كل شيء رهين بمزاجهما. هذه على سبيل المثال.

اقترب أحد الأكراد من شوشان، وأراد أن يضع يده على خاصرتها.

تفادته صارخة في وجهه:

- لا تلمسني!

- جيد. . . أيتها الجامحة، المتمردة. هذا ليس سيئاً.

أمره رفيقه بالقول:

- لا تتلفها.

ثم توجه إلى إيفا بخطوة واحدة قائلاً:

- وأنت، لا تبدين لي عنيفة. ما اسمك؟

صرخ سوغومون:

- ابتعدوا عنها! سبق أن لوّثها أصدقاؤكم بإرزاندجان.

قطب الكردي حاجبيه سائلاً:

- ماذا تقصد؟

- ما سمعته. اعتدى عليها التشيتي. وهي مريضة.

وابتسم مضيفاً:

- لن تظفروا منها بشيء، ولا حتى قرش واحد.

- حسناً، حسناً. في هذه الحالة إذن...

استدار جهة الآخرين قائلاً:

- جردوها من ثيابها! ومددوها أرضاً!

توسلت شوشان قائلة:

- لا!

أصر سوغومون قائلاً:

- أخبرتكم بأنها مريضة!

أمر الكردي قائلاً:

- احكموا قبضتهم!

أطاعه الرجال.

ومُددت إيفا أرضاً، ونزعت ثيابها الداخلية، وأُمسكت بإحكام على هيئة الصليب.

جثا الكردي جوارها.

- إذن. هل يقول صديقك الحقيقة؟ ألست تصلحين لشيء؟

أخذت إيفا تتفحص وجه المرتزق بعينين جاحظتين، وجعل الرجل أصدقاءه كشهود قائلاً:

- لنتأكد من ذلك... أوسعوا فخذيها!

رابطاً القول بالفعل، وضع بندقيته أرضاً، ونزع سرواله ثم ألقى بنفسه على جسد الفتاة. فتحت فمها لتصرخ غير أنها لم تصدر إلا حشرجة شخص يُحتضر. في الوقت الذي أدخل فيه الكردي عضوه في فرجة جسدها، أخذتها رجفة عنيفة جداً إلى حد أنها ذكرت سوغومون برجفات الشر الكبير.

أرادت شوشان أن تغطي عيني أخيها غير أن أحد المرتزقة منعها من فعل ذلك.

أنى لإيفا القوة لردة الفعل؟ من أية عين لليأس غير المكتشفة بعد؟ وفجأة، أصدر مغتصبها صرخة ألم وتراجع عنها مرتمياً إلى الخلف، كما لو أنه طُعن. وضع يده على أذنه اليمنى. كان الدم ينبجس مقذوفاً. ولم تعد هناك من روم[(٨٤)].

- كالتاك! قحبة!

انتصب على قدميه، وأخذ بندقيته وبنظرة مجنونة، أدخل فوهة بندقيته في مهبل إيفا مردداً:

- كالتاك! كلبة!

تأوهت شوشان:

- أتوسل إليكم! اتركوها!

وأطلق الكردي النار.

تناثرت أشلاء الجسد في المكان.

أصاب الدوار رأس شوشان. ولو لم يكن أحد أعضاء الميليشيا ممسكاً بها فمن المؤكد أنها كانت ستهوي أرضاً.

- ما الذي تود قوله يا أبي؟

- ما يلي: في اليوم الذي تشعرين فيه بأن الخوف تملكك، عندما تكونين أمام العنكبوت ذات أنياب إبن آوى، تذكري بأنه عليك أن تغرفي من دمي ومن دم جدك القوة لمواجهة أعدائك. لا تنسي يا شوشان دجان. عندها لن تهزمي...

أشرقت وصايا والدها في ذاكرتها. كأن الأمر حدث بالأمس فقط. وبغرابة، أخذت تسأل نفسها منذ مدة إن كان والدها توجه إليها بكلامه أم إن كان يقصد آرام به؟

أخذ سوغومون يبكي. هل كان يبكي هذه المسكينة أم جثة أخته

---

(٨٤) الروم شحمة الأذن. المترجم.

نورة وجثة والده وجثة أمه؟ أما آرام، فقد ظل عصياً على الألم. ماذا حل بروحه؟ لحد الآن، سار في طريق تبدو للمرء صبياً بلانهاية حيث السنوات تتدفق كالعسل، خفيفة لا يعي مساربها، ثم وفي أحد الصباحات، يستدير ليكتشف بوابة لمفاجأته الكبيرة تمنعه عن طريق العودة. هي البوابة التي من دون شك وصل إليها آرام في وقت سبق أوانه.

أما الآن، فهناك الصمت.

رحل الأكراد، تحمل أياديهم ما تمكنوا من سلبه. السلع ودواب النقل والحلي النادرة التي حاولت النسوة إنقاذها كآخر كنوز لحياة تنمحي. لكنهم حملوا معهم أيضاً أولاداً صغاراً وبناتاً، حيث سيصير الأولاد عبيداً جيدين في حين ستباع البنات إلى بعض أعيان القسطنطينية وأغورا.

يقترب الناجون ببطء من النهر دون أن يتمكنوا فعلاً من إدراك ما الذي يدفعهم إلى الحركة. وعلى بعد أمتار من النهر، أصدرت امرأة صرخة رعب مدوية قائلة:

- كل جذوع الأشجار هذه! من أين أتت كلها؟

أجل، فعلى صفحة المياه كانت بعض الأشياء تطفو. انحنى سوغومون، وعلق بحزن:

- كلا، ليست جذوع أشجار، إنها الجثث.

تفحصت شوشان المنظر حولها.

ففي البعيد، وإلى الجنوب الغربي كانت تنتظرهم صحراء سورية. وإلى الجنوب الشرقي كانت صحراء ميزوبوطاميا. بقي عليها أن تعرف في أية صحراء سيموتون.

٢٢

سورية، حلب، ٢٠ أيار ١٩١٥

مليكتي الناعمة

أحببت الآن أجمتها الكثيفة. ومع جلوسي قربها، استمررت في التركيز على قمتها البيضاء، بياض الثلج، والكتلة السوداء المتوهجة على ضوء مصابيح الغاز المنثورة في الحديقة مع انعكاساتها الغزيرة مع أنها مستترة حيث ظل نظري معلقاً عليها.

تحكي لي أجمتها، حتى الآن في هذا التل، الكثير من الأشياء بمزاياها مع تواضعها إلا أنها مكدرة! تتبع نظراتي عن بعد مداراتها العطيفة، والأمواج اللبابية....

- من أين لك الشجاعة لتكتب يا صديقي؟ من أين لك بالإلهام لتفعل؟

أتى صوت فارتكيس ليوقف إلهام كريكور زوراب، فوضع عضو البرلمان السابق ريشته وابتسم في وجه رفيقه.

- كم مضى من وقت، ونحن مسجونان بغرفة هذا الفندق؟ هل عددت الأيام؟

- خمسة أيام، وساعتين.

- خمسة أيام ونحن مسجونان خلف هذه الجدران الأربعة.

أشار إلى النافذة وأضاف:

- في الخارج، هناك الحياة. حلب مدهشة بالفعل. رائحة البهارات والحرية. ماذا تريد إذاً؟ أفضل أن ألقي أحلامي على الورق ما دام يمنعني الأتراك من الآن فصاعداً من الحياة. إضافة إلى ذلك، ما عاد قلبي يخفق مثل سنوات شبابي الأولى. إنذاران في شهرين. هذا كثير. أدفع من دون شك ثمن حياة مرتجفة جداً. إضافة إلى أني لا أريد أن أجلب المشاكل لنفسي. سيقع ما يقع. مكتوب! كما يقول أصدقاؤنا المسلمون.

توقف آرتكيس الذي لم يكف عن الذهاب والمجيء داخل الغرفة ليلقي بجسده على كرسي بتعب باد، ثم قال:

- لست سعيداً باعتقالنا وإيداعنا هنا بسورية. وهم الآن يريدون تقديمنا لمحكمة عسكرية بديار بكر! محكمة عسكرية! نحن من كنا داعميهم الخلص! نحن من اقتسمنا الخبز والعسل مع آل طلعت وآل أنفر، وكل المجموعة! يا للجبن!

- الجبن كلمة بسيطة. في الحقيقة، أشد ما يقلقني هو خوفي من عدم الوصول حياً إلى ديار بكر. أجد صعوبة في المشي، وكما أخبرتك يوجد هذا الطبل...

وأشار إلى قلبه ليضيف:

- لن يستطيع تحمّل هذه الرحلة. أحس ذلك.

أخذ تمرة من الوعاء الموضوع قربه، وأضاف قائلاً:

- لكني وعلى الرغم من كل هذا، أحتفظ بالأمل. فلن يبقى الالتماس الذي وجهناه إلى جمال باشا من دون رد. فلنصبر إذاً.

- هذا لأنك تعتقد أن جمال يمكنه إنقاذنا؟

- أليس هو المسؤول عن سورية الآن ومنذ وقت قريب؟ ألا يملك

كل السلط المدنية والعسكرية؟ ولا بد لكل المراسيم المتعلقة بهذه المنطقة بأن تحظى بموافقته. إذا أراد إنقاذنا يمكنه ذلك.

- فليسمعك الرب! أما أنا فقد كنت دوماً إنساناً فظاً ومغروراً، وفاسداً ولم أبذل جهداً يوماً على خلاف أنفر لأخفي سلوكي السيّئ خلف بشاشة وجه.

- نسيت الأهم يا عزيزي، فالعدو بالنسبة لجمال ليسوا الأرمن، وإنما العرب! إنه يكره العرب! وهو يحلم بأن يحقق هنا بسورية العملية التي حاول عبد الحميد القيام بها في المحافظات الشرقية، وذلك بزرع الشراكسة بها حتى يقوم بتحليل المجتمع الأرمني وجعلهم أقلية. هو يحاول استخدامنا مثل الأكراد والشراكسة لوقف تنامي الوطنية (القومية) العربية. وسيقوم بكل ما يستطيعه لتسهيل استقرار شعبنا في المنطقة.

- إذاً فنحن ذوو فائدة بالنسبة له!

- أجل. هذه قناعتي. وكدليل على هذا، ألم يسرّ لنا كاتبه بأن لجمال النية في نشر مرسوم يقضي بموجبه بتقديم كل عربي يتعرض لأرمني إلى محكمة عسكرية؟

همّ فارتكيس بالرد، غير أنه توقف لما أخذ أحدهم يطرق الباب.

سأل كريكور بقلق:

- من تراه يكون؟

- سنرى من يكون.

قصد فارتكيس الباب ليفتح.

وخلف الباب، كان هناك جنود ورجل بلباس مدني، رفع طربوشه وقدم نفسه قائلاً بلطف:

- سيركز أحمد. في خدمتكم.

- ماذا تريدون منا؟

- تلقينا أمراً بأخذكم إلى أورفة.

- أورفة؟ لكن هذا سخيف!

سأل كريكور:

هل يعلم صاحب السعادة جمال باشا بالأمر؟ لقد أرسلنا له رسالة و...

قاطعه سيركز أحمد قائلاً:

- أتلقى أوامري من رئيس الشرطة ومن الوالي رشيد باشا.

- لن نتحرك من هنا! ليس قبل أن توفدونا إلى جمال باشا.

- لا أتلقى أوامري من سعادته يا أفندي. ولكن من الحاكم.

صاح فارتكيس:

- وما الذي سنذهب لفعله في أورفة؟

- يدعوكم النائب محمود نظيم للإقامة في بيته. لا أعلم أكثر من هذا. هيا أرجوكم. لا تجبرونا على استخدام القوة.

تبادل الأرمنيان نظرات حائرة، ذلك أنهما يعرفان نظيم جيداً، فقد كان رجلاً نزيهاً ومستقيماً.

بعد تفكير، أعلن كريكور قائلاً:

- حسناً. امنحوني دقيقة.

استدار إلى الطاولة، وأخذ مظروفاً أخرج منه ورقتين، كانت إحداهما قد خطت عليها كتابة عاجلة، وقد كتب في أعلاها «رغباتي الأخيرة»، أما الأخرى، فقد كانت فارغة.

كتب عليها ما يلي:

حلب، الخميس ٢٠ أيار ١٩١٥

روحي المحبوبة، أخبرونا بأنه يتعين علينا السفر السبت إلى ديار بكر وأعددت رسالتين لك. أخبرتنا الشرطة الآن بأننا سنتوجه اليوم

إلى أورفة. ماذا نستطيع أن نفعل؟ كذاك سيكون الأمر.

بعد أن تري الرسالة المرفقة إلى خليل باي[(٨٥)]، وأخذ رأيه، خذي بناتك واقصدن جميعاً طلعت في بيته أو في مكتبه، قدمي له الرسالة وتوسلي إليه. وإذا ما أعطاك وعده القاطع بإنقاذ حياة زوجك، أرسلي لي البرقية التالية إلى عنوان نائب أورفة في البرلمان محمود نظيم «جميعنا بصحة جيدة، كن هادئاً».

كتبت رسالة إلى جمال باشا منذ أربع وعشرين ساعة، وأرسلتها له عبر الوالي بكير سامي باي. لست أعلم إن كان قد تسلمها أم لا.

أقبلكن مرة أخرى. صلين من أجلي. أرفق وصيتي بهذه الرسالة. لا تتأثري.

كريكور

بهدوء وضع الورقتين في المظروف حيث كتب عليه فوراً «السيدة كلارا زوراب، شارع آياز باشا ٧٧ القسطنطينية».

استدار إلى الباب، وسلّم المظروف للرجل ذي الزي المدني قائلاً:

- أعهد لكم بهذه الرسالة، وهي تتضمن رغباتي الأخيرة. هل تمنحونني كلمتكم بأن تسلموها لزوجتي؟

انحنى سيركز أحمد قائلاً:

- لكم كلمتي.

- في هذه الحالة، هيا بنا!

(٨٥) كان قد عين حديثاً وزيراً للشؤون الخارجية. وخلال ثورة سنة ١٩٠٨ لجأ إلى بيت كريكور وهو يدين له بحياته. الأصل.

لم يكن كريكور أو فاتكيس يعلمان بأن سيركز أحمد ينتمي إلى تشكيلة محسوسة «المنظمة الخاصة».

أورفة، في الوقت نفسه

حل الفجر على المعسكر المقام على أطراف المدينة في منتصف الطريق المؤدية من ديار بكر إلى حلب، المرحلة الأخيرة قبل الهضاب الصحراوية السورية الكبيرة.

وعلى بعد أمتار منه، يمكن رؤية جمرك هاني خِان الجمارك حيث جلس شيوخ وقد لفوا رؤوسهم بعصابات خبازية اللون، يلعبون الدومينو. وبين الفينة والأخرى، كانوا يختلسون النظر إلى المعسكر حيث يتكدس يوماً بعد آخر هؤلاء الأفراد الذين كانوا يشبهون البشر في وقت من الأوقات. كان هذا كل شيء. فهذا المشهد لم يعد يفاجئ أحداً. فمنذ وقت بعيد، وعلى الهضبة الكبيرة تتوقف قوافل من مختلف الأشكال بها، كما لو أن جنة أشراراً قرروا أن يميلوا عليها بما بقي من مرضى إمبراطورية تُحتضر. وإذن، موكب إضافي أو موكب ناقص. لا يهم.

غير أن هذه اللامبالاة لم يكن يقتسمها معهم فرانسيس ليسلي نائب القنصل الأمريكي، وكارين جيب المبشرة الدنماركية التي أمضت آخر اثنتي عشرة سنة من عمرها في التخفيف من مأساة الأقليات المسيحية.

أطفأت سيجارتها بحركة غاضبة، وسألت الدبلوماسي قائلة:

- هل تقدمون لي سيجارة أخرى؟

هز فرنسيس ليسلي رأسه علامة الرفض قائلاً:

- ألا ترين آنسة جيب أنك تبالغين قليلاً؟

- وإذا ما أخبرتك الآن بأني أجد في السيجارة راحة أكبر من قراءة إنجيلي؟

- هذا غريب. . .

بحث في جارور مكتبه وأخرج منه علبة معدنية قائمة الزوايا، نقش عليها بالألوان «فينكس. نيستور جياناكليس. ليميتد».

- تفضلي. أنا أهديك إياها. نجحت بمعجزة في جلبها من مصر.

- هذا رائع. سأدخنها كلها. أتصور أنك تعلم. . . أن موكباً جديداً وصل الليلة الماضية. ليس به إلا ناجون! من يعرف كم كان عددهم عند بداية الرحلة! قبل أسبوع، أُعدم ألف وخمسمئة عامل على بعد كيلومترات من هنا. وكلهم من الأرمن بطبيعة الحال. كان هؤلاء المساكين ضمن مجموعة من عامل تبوري أحد تلك الألوية المزعومة. حاصر الأتراك معسكر كراكوبرو، فقيدهم التشيتي، ثم أطلقوا النار عليهم قرب حفر حفرت لهذا الغرض.

- كيف علمت بذلك؟

- عن طريق ناجيَين، الأخوين سركيس ودراغدجيان اللذين نجحا بمعجزة في الفرار، وقدما إلى أورفة. أنا شخصياً استضفتهما بمنزلي.

صاحت بيأس:

- علينا فعل شيء يا فرنسيس!

هز الدبلوماسي رأسه بتعب.

أحب أن يرد على الدانماركية بأن العالم سيتحرك، وبأن المسؤولين الأتراك سيعودون إلى رشدهم، فقط من أجل تقديم بعض العزاء لقلب هذه المرأة الرائعة التي وفي سن التاسعة والأربعين، ملكت الشجاعة بين عشية وضحاها لترك مدينتها جيلانغ وعائلتها وكل أقاربها فقط، لتحضر هنا إلى هذه المنطقة المهجورة من الأناضول لخدمة قضية المحرومين.

لم يملك إلا أن يرد بالقول:

- يقاتل السيد مورجونطو مثل أسد في القسطنطينية. لكنه يصطدم للأسف بالجدران.

- لكن بلدكم، أمريكا...

- لا تستطيع أمريكا وحدها أن تنهي هذه المجزرة. على العالم بأسره أن يقف إلى جوار أرمينيا. وكلما طالت الحرب زاد إحساس السلطات التركية بأنها في مأمن، فبعد أن مُني الجيش التركي بهزائم في عدة جبهات، استطاع وخلافاً لكل التوقعات، أن يحقق انتصارات مدهشة، في الدردنيل، والمضايق محمية، وميزوبطاميا، مجبراً الإنجليز على التراجع، وفي القوقاز تم احتواء الجيش الروسي حتى إنه غادر فان.

- هل تقصد أن قوات الحلف الثلاثي ستخسر الحرب؟

- كلا! لا بكل تأكيد، لا. لكن يمكن للمواجهة أن تدوم أطول مما كان متوقعاً.

- وخلال هذا الوقت، يُذبح شعب بأكلمه أمام لامبالاة عامة. في طريقي إلى هنا هذا الصباح، لن تصدق أني وقعت على سوق للعبيد! يبيع الأتراك به أطفالاً أخذوا من المواكب. صرخت غضباً، وشتمت أصحاب هذا السوق العشوائي، وحاولت التدخل. أوشكوا على قتلي. هل تتصورون؟ أطفال! وضعوا في المزاد مثل الدواب! ألا يمكننا التدخل لدى الباب العالي؟

- آنسة جيب. ليس للباب العالي من علو إلا اسمه. وبالنسبة للحكومة، لا مجال للنقاش فالأشياء واضحة جداً مثل ماء الصخر. يوماً بعد آخر، يكررون علينا الموال نفسه «الأرمن جاحدون وخونة. وفي زمن الحرب، يجب أن يُصفى الخونة».

أخذت كارين نفساً من سيجارتها، ثم قالت:

- حتى لو تصورنا أن هذا حقيقي! لا شيء في العالم يبرر أن تلحق لعنة مماثلة بشعب بأكمله! لا شيء! هل سبق أن اعتبر الأطفال والمواليد الجدد والنساء الحوامل، ومسنين بالكاد يستطيعون الوقوف على أرجلهم، أنهم يشكلون خطراً على أية أمة؟ سيحكم التاريخ!

ابتسم ليسلي وهو يقول:

- أنت متفائلة جداً أيتها الصديقة. لا يحكم التاريخ إلا تحت تأثير الضغط. إذا لم يتحكم الأطفال ضحايا اليوم في الدواليب التي يجب أن يتحكموا بها في الوقت المناسب تماماً، سيظل التاريخ أخرس، أو أنه سيكتفي بالهمس فقط.

- مثلنا. لاحول لنا ولا قوة. وغير مجديين!

احتج نائب القنصل بالقول:

- كلا. ليس بالنسبة لك أنت يا آنسة جيب! خلال اثنتي عشرة سنة قمت بعمل كبير! كبير!

واصل بالنَفَس عينه قائلاً:

- في أعماقي، لم أستطع أبداً معرفة ما الذي دفعك إلى ترك الدنمارك لتقصدي تركيا. هل هي ضربة جنون؟

- رجل.

- رجل؟

- كلا. ليس الأمر كما تعتقد. يدعى الرجل بيندكتسن. هو رجل مثقف، وإنسان استثنائي. حصلت على فرصة حضور محاضرة ألقاها بكوبنهاغن. كانت المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة «أرمينيا». وصف الوضع المأساوي الذي يغوص فيه هذا الشعب، والإهانات التي يتعرض لها منذ عشرات السنين. وختم بيندكتسن خطابه موجهاً نداء نجدة. لم أتردد. ففي ربيع سنة ١٩٠٣، علمت أن قساً ألمانياً ويدعى

الدكتور ليبسيوس يبحث عن مدرس بإحدى المدارس التي هي تحت مسؤوليته فاقترحت ترشيحي، وهي ذي أنا.

توقفت للحظة فتوهج وجهها وهي تضيف:

- أعلم أنك ستبتسم، لكني أحب هذه المنطقة من العالم. أحب هؤلاء الناس بعمق. في الشرق أشعر بأنني في بيتي. أنت تفهمني، أليس كذلك؟

- طبعاً، وإلا فكيف تفسرين سرعة تعلمك في شهور ليس الأرمنية فحسب، بل التركية والعربية أيضاً! إذا أردت رأيي يا آنسة جيب، لأنك كنت شرقية في حياة أخرى.

تنهدت قائلة:

- هذا يحتاج إلى بحث...

واصلت وهي تقوم من مكانها:

- سأذهب لتفتيش الموكب الجديد. أتمنى أن يسمح لي السجانون بالمرور.

- لا ترددي في اللجوء إليّ إذا اعترضتك أية مقاومة منهم. فمن المؤكد أنه لا قوة لنا، لكننا لسنا خرساء.

تحركت خلال الأيام الخمسة، ريح حارة حاملة إلى البعيد صوت هذه المرأة التي فقدت عقلها. «نشبت النار في بيتي! أطفئوها! نشبت النار في بيتي!» عينا المجنونة لا تريان سوى اللهب، أو لعله التعب الذي يجعلها تخلط بين الشمس والحريق. وكانت هناك هذه الفتاة التي تتألم آلام الوضع على الطاولة، وتتوسل إلى جود وتاحي وبارتيلمي وكل فرق السماء حتى يكون الوليد الذي سيتقيأه بطنها ميتاً. وهكذا اقترب الجنود منها، بقروا بطنها، واستخرجوا وليدها من أحشائها،

وبضربة يطقان شطروا الوليد نصفين ليعلن أحدهم قائلاً «ها أنت ذي قد حصلت على توأم!»

وكان هناك أيضاً هذا الشيخ الذي طلب القليل من الطعام فخنقوه بأن ملأوا فمه بحشائش الأرض.

وكما لو أن شوشان ما تزال ترى كل هذه المشاهد، اجتثت من نومها صارخة:

- أتوسل إليكم. أسكتوهم! أرجوكم!

برفق احتضنها سوغومون، ثم قال:

- هيا يا شوشان. إهدئي سيصير كل شيء بخير. إهدئي.

عندما مرر يده على جبينها، اكتشف أن وجهها محموم وأنها تغلي. طلب من آرام قائلاً:

- أعطها لتشرب. أعتقد أنها مريضة.

قدم الفتى لأخته علبة صفيحية كان قد وجدها عند دخوله إلى المعسكر والتي لم يمانع أحد الجنود أن يملأها بماء متسخ.

كان الآلاف من المبعدين يشكلون حول الثلاثي تكتلاً شديد الازدحام، ومتنافراً داخل الخيمات والإفريزات العشوائية.

وفجأة انبعث صوت بالقرب منهم. كان صوت امرأة شقراء في حوالى الأربعين من عمرها. وما كان يشد إلى وجهها أكثر، أنفها البارز جداً، ومع ذلك، فهذا العيب لم يكن ليقف حاجزاً بينها وبين ما يصدر عن المرأة من طيبة ورقة.

سألت وهي تجثو بركبتيها قرب شوشان:

- هل هي أختكما؟

رد آرام:

- إنها أختي.

- أدعى كارين جيب، وأعمل في البعثة التبشيرية الدنماركية.

كانت تجس نبضها في الوقت نفسه الذي تتحدث فيه.

- هل تتألمين في مكان ما؟

- أجل. أتألم كثيراً، خاصة في رأسي.

بدأت شوشان تنزف من أنفها.

وبسرعة بحثت المبشرة في حقيبتها، وأخرجت كيساً صغيراً مملوءاً بكويرات قطنية. أخذت إحداها وجعلت تمسح الخيط النازف.

- هل تقيأت؟

- أجل، البارحة ليلاً. ولمرات عديدة كان سائلاً شديد السواد.

- أخرجي لسانك من فضلك.

رضخت شوشان للأمر. كان لسانها أكثر حمرة من خديها وأكثر جفافاً.

عادت الدنماركية لتبحث داخل حقيبتها لتخرج كيساً آخر ملئ نصفه بمسحوق أبيض. أخذت القليل منه، ووضعته في الماء المتبقي. قالت وهي تدني يدها من ذقن الفتاة:

- خذي. اشربي هذا.

سأل سوغومون:

- ما هذا؟

- مسكّن. هذا اللودانم[٨٦] سيهدئها ويمنع الإسهال عنها. على كل حال، لا يمكنها البقاء هنا، علينا نقلها إلى مقر البعثة، ليس فقط من أجل سلامتها، بل أيضاً من أجل سلامة الآخرين، فهي معدية.

سأل آرام:

---

(٨٦) عقار ممزوج بروح الأفيون يستعمل للتسكين. المترجم.

- ممَّ تعاني؟

- التيفوس. كان عليكم التكهن بذلك بالنظر إلى الظروف التي تتواجدون فيها.

- التيفوس؟

- هو مرض يظهر عندما تكون الشروط الصحية سيئة، وشدة تزاحم الناس، وهو ينتقل بواسطة البراغيث أو القمل.

- وهل هو مرض قاتل؟

- للأسف نعم. على أختكم أن تشرب الكثير من الماء النقي. وعلينا على الخصوص وضعها في مكان نقي. سأذهب لأكلم المسؤول عن المعسكر، وسأعود. أعدكم بهذا.

كان اليارباي الملازم ينصت إلى المبشرة، وهو يصقل قادح مسدّسه من نوع «موزير»، وعندما انتهت أخذ وقته ليضع مسدسه في غمده قبل أن يسأل قائلاً:

- هل قلت «وباء»؟

- تماماً. زد على ذلك أنه إذا لم توضع هذه الفتاة في العزل الطبي، هناك احتمال كبير لإصابة المئات من الناس.

هز الضابط رأسه عدة مرات، مبدياً قلقاً مفتعلاً:

- الواقع أن هذا محرج. وتطلقين على هذا اسم التيفوس؟

أكدت الأمر ليضيف:

- حسناً. سأرفع الأمر لمن يملك حق القرار، وسنعلمك بقرارنا.

- أعتقد يا أفندي بأنكم لم تحيطوا جيداً علماً بالوضع. إذا لم نعزل الحالة الأولى، سيتنشر الوباء في المعسكر كله!

- من تحسبينني يا بابان[٨٧]؟ فهمت الأمر جيداً غير أني لا أستطيع أن أقرر شيئاً. عليّ رفع الأمر. . .

- رفع الأمر! رفع الأمر! ليس لديكم سوى هذه الكلمة على لسانكم! ألستم أنتم المسؤول عن هذا المعسكر؟

- الحاكم هو المسؤول.

- محمود باي؟ ومنذ متى يقرر الحاكم في مصير المواطنين الذين لا ينتمون إلى محافظته؟

- هكذا هو الأمر. إنه القانون.

حاولت الدنماركية أن تتحكم في أعصابها، ثم قالت:

- حسناً. هيا بنا إذاً!

فتح الياربای عينيه قائلاً:

- إلى أين؟

- إلى الحاكم طبعاً.

- حالاً؟ الآن؟

أصدرت كارين صرخة غيظ، ثم دارت على عقبيها قائلة:

- يا لخيبة الأمل! لست أرى لماذا سأكون محتاجة لكم!

خرجت من الخيمة غاضبة مثل جنية. امتطت فرساً كانت هدية قدمها لها أرمني من أورفة ثم أسرعت إلى مقر الحاكم.

عندما دخلت مكتب محمود باي، كان هناك ثلاثة زوار. أزاحتهم بلطف لكن بحزم، ثم قالت:

- عليّ أن أتحدث إليكم. إنه أمر عاجل.

- لكن يا آنسة جيب، أنت ترين أني مشغول! ألم يتعلم الدنماركيون أساليب الحياة؟

---

(٨٧) سيدتي. الأصل.

- سننتظركم. هل الذنب ذنبنا إذا ما توقفتم عند فيينا؟

- هه! أقدر روح الدعابة لديك سيدتي!

- هناك أشياء خطيرة تحدث يا محمود باي. لدينا حالة تيفوس في المعسكر.

- التيفوس؟

- تماماً. وأنتم تعلمون علماً أكيداً بأنه مرض معد. وبالنظر إلى الوضع الصحي الذي يعيش به هؤلاء الناس، يمكن للمرض أن ينتشر مثل النار في الهشيم، وسيصير الأمر أشبه بمذبحة.

- أفترض بأن المريض أرمني؟

- يتعلق الأمر بمراهقة.

- حسناً، وماذا تقترحين؟

- أن تعزل الفتاة في أسرع وقت.

- مستحيل.

كان الجواب كالطلقة، واضحاً ومن دون تردد، فسألت غير مصدقة:

- عفواً؟

- مستحيل يا آنسة جيب. لا أريد وتحت أي ظرف أن أمنح هؤلاء الناس تدابير تفضيلية. هكذا هو الأمر. والآن لو تتفضلي بتركي رجاء، فأنا مشغول.

اعتقدت كارين بأنها توشك أن تختنق، فعادت لتقول:

- تدابير تفضيلية؟ تفضيلية؟

- سيدتي...

- ستموت طفلة!

- مكتوب![88] لانستطيع فعل شيء.

- هذا فظيع! كيف يمكنكم قولِ شيء مماثل؟ هل رأيت هؤلاء المساكين؟ جموع نزعت عنهم إنسانيتهم، وحوّلوا إلى دواب!

ثم أضافت بحزم:

- أريد ان تنقل هذه الفتاة إلى المستشفى! أنا ألح في هذا الطلب!

- وأنا يا آنسة جيب، أخبرك بأنه إذا ظللت تصرين، فسأطردك تماماً مثلما طردت الممثلين البريطانيين والفرنسيين وكل الآخرين! هل أنا واضح؟

وبسرعة، صاح أحد الأشخاص الثلاثة الحاضرين قائلاً:

- لكن أية دماء تجري في عروقكم؟ هل هو دم أم حماة؟ حماة أم سم؟ أريد أن يتم أخذي حالاً إلى جوار صديقي النائب محمود نظيم! حالاً! أليس من أجل هذا تم إحضارنا من حلب أنا وصديقي فارتكيس؟ انتظروا ردة فعل من قبل نظيم. ستتذكرون ذلك طوال حياتكم!

زم الحاكم شفتيه غضباً، ثم قال:

- طبعاً، طبعاً يا زوراب أفندي.

نظر إلى الشخص الثالث قائلاً:

- هلا تصحبون هذين السيدين إلى النائب؟ أعتقد أنهما يضيعان الكثير من الوقت هنا.

امتثل الرجل للأمر بابتسامة واسعة. ودعا الأرمنيين ليتبعاه.

عندما وصل كريكور إلى مستوى الآنسة جيب، توقّف ثم قال:

- سيدتي. لا تقلقي سأحدّث محمود في الأمر. فهو صديق وسيقوم باللازم. اعذري فضولي يا سيدتي لكني محتاج أن أمده باسم. باسمك؟

---

(٨٨) هكذا ورد ذكرها في الأصل. المترجم.

- آنسة جيب. كارين. وأنا مبشرة ومعلمة. كلهم يعرفونني هنا.
هل أعتمد عليكم؟ أليس كذلك يا سيد...؟

- كريكور زوراب.

وقدم مرافقه قائلاً:

- وهذا السيد سيرانغيليان.

أكد فارتكيس بالقول:

- لا تقلقي يا سيدتي. سنقوم باللازم.

- أشكركما من أعماق قلبي.

رد كريكور:

- لا تشكرينا. نحن في الجحيم والأكيد أنك ملاك.

٢٣

أورفة، ٢٢ أيار

ما إن بدا قرص الشمس على المعسكر حتى همّ الجنود حول الخيم والملاجئ العشوائية صائحين:

- آياكتا! قوموا! سنرحل! لقد حل الوقت! آياكتا!

قال آرام موجهاً حديثه إلى الجنود الذين اقتحموا خيمتهم:

- مستحيل! أختي مريضة وهي ضعيفة جداً.

وكان ردهم الوحيد:

- آياكتا! قوموا!

مغتاظاً تدخّل سوغومون قائلاً:

- أخبركم بأنها مريضة، ويمكنها أن تموت!

لاحظ آرام بالقول:

- إضافة إلى ذلك، نحن ننتظر سيدة، الآنسة جيب التي وعدت بأن تعود هذا الصباح مع إذن من الحاكم. ستكون هنا بين دقيقة وأخرى.

والواقع أنه وبعد لقائها بالبلدي باكاني[٨٩]، عادت الدنماركية إلى

---

(٨٩) هكذا ذكر في الأصل ويقصد بها الحاكم. المترجم.

حيث ترقد شوشان وأحضرت لها قربة مملوءة بالماء، وصحن أرز. وحلقت للفتاة شعرها غير مبالية بدموع واحتجاج الفتاة، شارحة لها بأنها الوسيلة الوحيدة لإزالة أعشاش القمل التي كانت تشكل أماكن قذرة. وقبل أن ترحل، طمأنتهم بأن شخصاً يدعى كريكور زوراب سيتوسط لدى نائب أورفة للسماح بنقل المريضة إلى المستشفى.

تعجّب سوغومون غير مصدق قائلاً:

- كريكور زوراب هنا؟

وشرح أن الرجل لم يكن فقط شخصية سياسية وثقافية كبيرة، ولكنه أحد أصدقاء والده أيضاً.

غمغمت شوشان قائلة:

- لكن إذا كان السيد زوراب في أورفة، سنُنقَذ. هل أخبرته من أكون؟ حفيدة فاهي طوماسيان؟ لقد كان وثيق الصلة بجدي أيضاً.

ردت الآنسة جيب بأنها كانت تجهل كل الروابط التي تجمعهم، وبأن الأمر لم يكن بأهمية كبيرة، ذلك أن كريكور تعهّد بأن يتدخل، وأنها تنتظر أخباراً منه بين لحظة وأخرى.

وبقيت تنتظر طوال فترة بعد الزوال، والليل كله.

وفي هذا الوقت أيضاً، كانت ما تزال تأمل.

صرخ أحد الجنود قائلاً:

- بسرعة!

ولما لم تند عن آرام أو سوغومون أية حركة، أمر الجندي بأن يُقبض عليهما، وبأن يوضعا في إحدى تلك العربات المستعدة للانطلاق.

كانت تحضر المشهد حوالى عشر نساء، وبعض المسنين. ومن بين الحضور يشتر التي لم تفارقها أبداً أيقونة القديس غريغوار، وغاريني الأرملة المتحدرة من غولوكوا. ومع ذلك، لم يعرب أحد عن أي

احتجاج. لم يكن مرد ذلك اللامبالاة. لم يكونوا أحياء حتى وإن كانوا ما يزالون يتنفسون.

بألم قالت شوشان:

- انتظروني! سأذهب أيضاً. انتظروا...

كانت تقاوم وتبذل مجهوداً خارقاً. كانت تسحب نفسها أكثر مما كانت تمشي، مقتفية آثار آرام وسوغومون.

وبعد لحظة، كان الشعب المنفي يتحرك.

همست غاريني:

- أين يأخذوننا هذه المرة؟

أعلن سائق العربة بالقول:

- دير الزور(٩٠).

متفاجئاً قال أحد الرجال، وكان في حوالى الخمسين من العمر ويدعى بارسيغ.

- دير الزور؟

- في الصحراء. ليس بعيداً عن الفرات، ويبعد عن دمشق بأربعمئة وخمسين كيلومتراً. هناك معسكر قرب حلب. عليّ أن أقودكم إلى هناك.

- لمَ إلى هناك؟

- كيف لي أن أعرف؟ سمعت فقط بأنها الوجهة النهائية، على كل حال بالنسبة إلى جزء منكم.

مستغربة سألته يشتر:

- جزء؟

- على البعض أن يواصلوا الطريق حتى الموصل.

---

(٩٠) دير الزور مدينة سورية تقع في شرق البلاد على نهر الفرات. المترجم.

خفض صوته ليكمل قائلاً:

- إذا أردتم رأيي، هذا جزء من المخطط. سيظلون يقذفونكم من معسكر إلى معسكر آخر، ومن مدينة إلى مدينة أخرى حتى يتقلص عددكم من الآلاف إلى بضع مئات، ومن مئات إلى حوالى عشرة، وسيتقل أولئك العشرة أكثر وأكثر حتى تبتلعهم الرمال.

- أبداً! لن ينجحوا أبداً في جعلنا نختفي! أبداً!

عقد سائق العربة حاجبيه، واختلس النظر ليقول محدثاً آرام:

- هل أنت من تحدث أيها الصغير؟

بحركة من رأسه أكد آرام ذلك فعاد سائق العربة ليقول:

- إذاً إما أنك شجاع جداً أو أحمق جداً. والأمر سيان.

وفي هذه اللحظة بالضبط، اهتز جسد شوشان واجتاحتها أزمة قيء جديدة، ودارت عيناها في محجريهما. وحدث آرام نفسه قائلاً بأنها ستموت.

أعلن فرانسيس ليسلي قائلاً:

- لقد رحلوا. رحل الموكب قبل ساعتين من الآن.

صرخت كارين مهتاجة:

- القذرون! القذرون!

ثم أخذت تتحرك في مكتب الدبلوماسي جيئة وذهاباً غاضبة وهي تقول:

- ومع ذلك، ذاك الرجل السيد زوراب بدا صادقاً فعلاً.

- من المحتمل أنه كان كذلك. لا شك أن شيئاً ما حدث. أنت تعلمين أن كل الأمور المنطقية قد قلبت.

- وتلك الفتاة... هل تتخيلون العواقب؟ يمكنها أن تعدي كل

الموكب، هذا إذا لم يكن الأمر قد حدث فعلاً. هل قلتم إنهم رحلوا قبل حوالى ساعتين؟

- تماماً.

- في هذه الحالة، هناك إمكانية للحاق بهم!

ثم قصدت الباب.

- آنسة جيب! انتظري! ما فائدة هذا؟ حتى لو نجحت في إيجادهم، لن يتركك رجال الدرك أبداً أن تأخذي الفتاة. كوني منطقية!

كان على وشك أن يضيف:

- لربما تكون قد ماتت!

غير أن الآنسة جيب قالت بتحد:

- عليّ أن أحاول!

وبينما كانت تنزل السلم مسرعة، التقت بجندي الحراسة الذي كان يصعد مسرعاً فقال لها:

- أين تذهبين يا بايان؟

ولما لم ترد أضاف:

- إنهم يحاصرون المبنى!

استدارت لتسأله:

- عمَّ تتحدث؟

- التشيتي، إنهم يمنعون كل شخص من الدخول أو الخروج. لن يتمكن حتى فأر من أن يعبر الحاجز.

قالت بوجوم:

- هذا مستحيل...

وواصلت عدوها باتجاه المدخل.

كان جندي الحراسة محقاً.

فحتى فأر...

القسطنطينية، وزارة الداخلية، ٢٥ أيار

بضجر مد الموظف إلى طلعت باشا، الإعلان الذي بعثه مورجونطو قائلاً:

- خذوا يا صاحب السعادة. وصل قبل بضع دقائق.

وزارة الدولة

واشنطن، ٢٣ أيار ١٩١٥

السفارة الأمريكية بالقسطنطينية

تطلب وزارة الشؤون الخارجية بأن تسلم هذه المذكرة إلى الحكومة التركية.

منذ حوالى شهر، يقترف أتراك وأكراد أرمينيا بتسامح وغالباً بدعم من السلطات العثمانية مذابح في حق الأرمن، وهي مذابح مشابهة لتلك التي عرفتها إرزروم، وتيردجان وإيغين وبيتليس وموش وساسون وزيتون وكل سيليسيا أواسط شهر نيسان.

قتل كل سكان حوالى مئة قرية من ضواحي مدينة فان، وحاصر الأكراد منطقة الأرمن بفان. وفي الوقت نفسه، عاقبت الحكومة العثمانية السكان الأرمن غير المسلحين بالقسطنطينية.

وأمام هذه الجريمة الجديدة لتركيا ضد الإنسانية(٩١) وضد الحضارة، تعلن حكومات التحالف للعلن، وإلى الباب العالي أنها

(٩١) مع أن تعبير «جريمة ضد الإنسانية» ذكر أول مرة في ١١ كانون الأول لسنة ١٨٦٨ بسان بيترسبورغ إثر الإعلان الذي أدى إلى منع استخدام بعض القذائف في الحرب، إلا أنها المرة الأولى التي يُستعمل فيها هذا التعبير بشكل واضح. الكاتب.

تحمّل المسؤولية إلى كل أعضاء الحكومة التركية إضافة إلى الموظفين الذين ساهموا في هذه المذابح.

كاتب الدولة ويليام جينانكس بريان

نزع طلعت نظارته، ثم ركز ناظريه على سفير ألمانيا البارون فون فانجنهايم قائلاً:

- هذا بلا معنى! هل سمعتم؟ أليس هذا مشين؟ فيمَ يتدخلون؟

رد البارون بأن رفع كتفيه.

أمر طلعت الموظف قائلاً:

- اكتب «السيد كاتب الدولة إلخ... اعلموا بأنه من الخطأ تماماً الحديث عن مذابح حدثت للأرمن داخل الإمبراطورية. وإذا ما تم نقل بعض الأرمن فلأنهم يقطنون بأماكن واقعة داخل مناطق حرب حيث يوحي وجودهم هنالك للحكومة الإمبراطورية بقلق مشروع من وجهة نظر الدفاع الوطني.

ويعتبر الباب العالي أنه من واجبه اتخاذ التدابير التي يجدها ضرورية من أجل ضمان أمن حدوده البرية، وبأنه غير ملزم بوضع تقرير لأية حكومة أجنبية. تقبّلوا من فضلكم إلخ...»

صرف الموظف وردد قائلاً:

- هذا بلا معنى! لا تعلم روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وأمريكا بأنهم لا يقدمون أية خدمة عندما يتعاطفون مع الأرمن، ويشجعونهم، لأني أعلم تأثير موقف مماثل على شعب ميال إلى الثورة. عندما هاجم حزبنا «الاتحاد والتنمية» عبدالحميد أتانا كل الدعم المعنوي من الخارج. والحقيقة أنه شكل أحد الأسباب الكبرى لنجاحنا. وهذا ما يمكن أن يقع في الحالة الأرمنية. لو لم يكونوا مدعومين من قبل الدول

الأجنبية، لتخلوا سريعاً عن معارضتهم للحكومة الحالية، ولصاروا مواطنين خاضعين وأوفياء.

وافق البارون لكن من دون حماس. فمنذ بعض الوقت، لم يعد الرجل الذي كان عليه من قبل. كان يمنح الانطباع بأنه مهزوم، وبدا أن طلعت لاحظ ذلك إذ سأل:

- تبدو لي في حالة غير طيبة. هل هذا صحيح؟

- أنت دقيق الملاحظة يا صاحب السعادة. أجل هذا صحيح. أنا مريض، وأشعر بوَهْن كبير. طلبت أن أعود إلى ألمانيا. عُين الأمير هوينلو لونجنبورغ خلفاً لي. مسألة أسابيع فقط.

- أفهم. الآن يمكنني تفسير سلوكك في الأيام الأخيرة بشكل أفضل.

- سلوكي؟

- ألم ترسلوا رسالة إلى الوزير الأول. رسالة احتجاج تنتقدون فيها بوضوح طريقتنا في العمل إزاء الأرمن؟

رُسمت ابتسامة ضجر على شفتي السفير، ثم قال:

- آه! هكذا إذاً. مع أني فكرت أنك نفذت إلى المعنى المخفي لحركتي هذه. لقد كتبت هذه الرسالة فعلاً. وكان الهدف الحقيقي هو منح المراسلات الألمانية طابعاً رسمياً. يعني من أجل الظهور بمظهر جيد أمام أوروبا. اعلموا أنني، وفي اليوم نفسه، أعلنت إلى السيد مورجونطو أنه من المؤكد أن الشعبين الأرمني والتركي لا يستطيعان العيش في بلد واحد، حتى إني اقترحت عليه أن يأخذ الأمريكيون البعض منهم إلى بلدهم، بينما نرسل بعضهم إلى بولونيا ونعوضهم بيهود بولونيا بشرط أن يتخلى هؤلاء طبعاً عن مخططاتهم الصهيونية.

- أرحتموني أيها الصديق.

فكر طلعت لبرهة ثم ختم قائلاً:

- على كل حال، تأكد أنه وعندما تضع الحرب أوزارها لن تُطرح أبداً قضية الأرمن.

الصحراء السورية، سبخة، ٢٧ أيار

كانوا يسيرون بوجوه منحنية إلى الرمال. كانوا يسيرون وشفاههم تهتاج بصمت. كانوا كما لو كانوا يصلّون.

كان التعب والجوع يمشيان جوارهم. إلى متى؟

كانت الشمس تصب نيرانها على الجثث التي تنحدر إلى الفرات إلى حد أنها تعرقل عمل طواحين الماء. أما الجثث التي سقطت على الجرف فقد التهمتها الضباع وأكلة الجيف، في حين كانت الجثث التي ثبتت بالرمل وسط المياه فرائس للنسور.

سكب آرام بين شفتي أخته آخر قطرات الماء التي كانت بالقربة التي جلبتها الدنماركية.

كانت قد أوصته قائلة «عليها أن تشرب كثيراً، وماءً جيداً».

وبخ آرام سائق العربة قائلاً:

- أليس ربك رحيماً؟

- يا له من سؤال! طبعاً هو كذلك. لكن ليس مع **الجياورز**! فالله لا يحب الكفار.

- لسنا كفاراً. هل يمكنك منحي ماءً؟ أرجوك. من أجل أختي وإلا ستموت.

ألقى سائق العربة نظرة قلقة حوله:

- سأموت معها أنا أيضاً. فإذا فاجأني الضابطية أقوم بشيء مماثل فسيقتلونني!

توسل إليه بارسيغ الرجل الخمسيني قائلاً:

- فلتتحل بالشفقة. أنت ترى جيداً أن حالة الفتاة سيئة جداً.

- لا أستطيع.

أصر آرام قائلاً:

- أتوسل إليك.

أضاف سوغومون إلى قولهما:

- سيخلف الله لك ذلك.

تردد سائق العربة. كان كأن هناك حرباً داخله. وأخيراً مرر قنينة مكسوة بالسوحر.

ناشدهم قائلاً:

- أسرعوا! بسرعة...

عندما انتهت شوشان من الشرب، بدت منازل سبخة الأولى. كانت على شكل مكعبات ورقية، اصطفت أسفل كثبان في منطقة مستنقعات جهة الجنوب، مشكلة بقعاً مقرفة. وفي البعيد، كان الفرات يجري.

غمغم سائق العربة متضايقاً:

- يا للرائحة النتنة.

رد بارسيغ:

- إنها المستنقعات.

نفى سائق العربة بحركة من رأسه وهو يقول:

- كلا... بل ذلك.

وأشار إلى نقطة على بعد أمتار. كانت هناك جثتان ملقيتان على

قارعة الطريق، وقد انكشفت أحشاؤهما. تفاداهما غير أنه مر قريباً منها بما يكفي للتعرف على وجهيهما.

أدار الركاب وجوههم إلا سوغومون الذي مال لينظر إليهما عن كثب. وبغرابة، وإذا ما شوه الجسدان تشويهاً كبيراً فإن الوجهين ظلا على حاليهما.

وفي الوقت الذي كانوا يتجاوزونهما، تراجع الشاب إلى الخلف، حتى إنه أوشك أن يسقط على يشتر.

سألته المرأة:

- ماذا حدث لك؟

بحث سوغومون عن كلماته بخبل.

أصاب القلق آرام بدوره فسأل:

- هل هناك شيء؟

- إحدى الجثتين لزوراب.

- زوراب! كريكور؟

- أجل، والجثة الأخرى لفارتكيس.

- هل أنت متأكد؟

- تعرفت عليهما. لا شك أنهما قُتلا قبل وقت قصير.

- مع أن المبشرة الدنماركية أكدت لنا أن كريكور سيقصد النائب البرلماني للدفاع عن قضيتنا.

- من الواضح أنهم خدعوا جميعاً. هي وزوراب، وفارتكيس.

- السيد زوراب ميت. . .

علقت يشتر التي سمعت كل شيء بالقول:

- وقريباً سيحل الدور علينا.

احتجّ آرام:

- لا تتفوهي بحماقات! سنعيش. كلنا! سنعيش. هل تسمعين؟ وإلا، أخبريني من سيشهد؟ لا يجب...

توقفت العربة مع صوت فرقعة رهيب:

- ماذا حدث؟

أشار سائق العربة إلى فارسين يقومان بإشارات واضحة.

أخرجت يشتر أيقونتها التي تمثل القديس غريغوار، وضمتها إلى قلبها. متأوهة قالت:

- سيبدأ كل شيء من جديد... سيأتي التشيتي...

قصدهم أحد الفرسان، وقال مشيراً إلى سوغومون وبارسيغ على التوالي:

- أنت وأنت. انزلا! واتبعاني!

- لكن... لكن لماذا؟ ماذا فعلنا؟

- هذا أمر من اليوزباشي! على الرجال والنساء أن يفترقوا.

قام سوغومون وقال:

- لكن أخبرونا على الأقل ما السبب؟

- أخبرتك لتوي! هذا أمر النقيب! هيا حتى لا نفقد الوقت!

قام آرام بدوره قائلاً:

- عليّ... عليّ البقاء إلى جوار أختي، إنها مريضة جداً.

- هل أنت مغفل؟ تحدثت عن الرجال وليس عن الأطفال! هايدي! هيا، تحركا!

مالت شوشان قليلاً، ثم قالت:

- كلا... كلا... لا ينبغي... سوغومون!

- لا تخافي سيريلِيس. سنلتقي.

وبسرعة طبع قبلة على جبين الفتاة، وقفز أرضاً.

ردد قائلاً لكن هذه المرة موجهاً كلامه إلى آرام:

- سنلتقي.

صدرت عن شوشان شهقة، وفي الوقت نفسه، اجتاح قلبها شعور غير معروف غير أنه أشبه بالسعادة الغامرة. ألم يناديها سيريليس أي حبيبتي؟ كانت المرة الأولى التي يناديها فيها رجل كذلك. كان الأمر باعثاً على الهيجان والذعر في آن واحد، لأن هذا الرجل كان سيموت.

٢٤

٢٨ أيار ١٩١٥، دير الزور

تتصاعد رائحة عفنة هي مزيج من رائحة القيء والبراز والجثث المتحللة في محيط المدينة إلى الجنوب من المعسكر. وعلى بعد حوالى مئة متر، كان خان مهجور بممره المغطى وبقايا عمارته.

كان يقف على تل، نيشاد باي المفوض الجهوي للاتحاد، وأيوب صبري مسؤول الإدارة العامة للمبعدين. كانا يراقبان بعيون كئيبة الآلاف المجتمعة فوق رمال حارقة، وموجات الناجين مع وقف التنفيذ المرميين على الرمال.

لاحظ صبري بالقول:

- صار الوضع عصياً على التحكم فيه. ففي الصباح ننقل خمسة آلاف إلى ميزوبوطاميا، وفي المساء تصلنا عشرة آلاف.

علق نيشاد:

- بحسب حساباتي، وإذا ما أضفنا الموكب القادم إلينا من إرزروم، يكون العدد وصل إلى ثلاثمئة ألف.

- ثلاثمئة ألف هنا في دير الزور! نسيت المئة والثلاثين ألفاً المتواجدة بدمشق وحماة وحمص، وعشرين ألفاً برأس العين، وسبعة آلاف بحلب. وأورد أحدهم البارحة رقماً يزيد عن ثمانمئة وخمسين

ألفاً يقتربون من سورية. وما يشكل مشكلة حقيقية هو أن الباب العالي يفرض بألا يتجاوز عدد المبعدين في المعسكر عشرة في المئة من سكان مدينة دير الزور ما يعني أنه يتعين علينا إقصاء مئتين وسبعة وتسعين ألف شخص من بين الثلاثمئة ألف.

خلص نيشاد إلى القول ببرود كبير:

- حسناً، سنقوم بذلك. يكفي تسريع عملية النقل إلى الموصل وكركوك. وما إن يصيروا خارج سورية لن تكون مشكلتنا. وهذا لن يمنعنا من التخلص من المجموعات الصغيرة باتباع الطريقة المعهودة.

- ومع ذلك، علينا التحدث في الأمر مع جمال باشا، فهو قبل كل شيء، وكما تعلم، صاحب القيادة المطلقة في سورية ولبنان وفلسطين.

- طبعاً، مع أني أتصور شكواه من حرمانه من عمال كانوا سيكونون بفائدة كبرى من أجل بناء خط السكة الحديد بين القسطنطينية وبغداد.

أشار إلى زميله ليتبعه، وهو يقول:

- تعال! فالطريق طويلة حتى حلب.

عادت بعض الحياة إلى وجه شوشان، وبعض الألق إلى حدقتيها.

سألت أخاها قائلة:

- في أي يوم نحن؟

- لا فكرة لديّ.

قالت يشتر:

- ٢٧ من شهر أيار.

صححت غاريني بالقول:

- كلا. الثامن والعشرون.

- هل أنت متأكدة؟

- متأكدة. أعد كل ساعة. اليوم بالتمام والكمال هو الثامن والعشرون وست ساعات بالضبط.

أعلنت شوشان راسمة ابتسامة خفيفة على محياها:

- إذاً فقد شاخ أخي سنة إضافية.

أمسكت يد آرام، وطبعت قبلة على باطن كفه قائلة:

- عيد ميلاد سعيد.

- اليوم؟

- سمعت غاريني. نحن في الثامن والعشرين من شهر أيار.

سألت يشتر:

- كم يبلغ من العمر؟

- ثلاثة عشر عاماً! إنه رجل صغير.

هز الفتى رأسه. هل كان يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة فعلاً؟ أعاد التفكير في الأيام الأخيرة، وفي الرؤى المتشابكة في ذاكرته. على طول الطريق التي قادتهم إلى هنا، كان بإمكانهم رؤية المعسكرات الأخرى الموزعة على امتداد الفرات الممدد مثل رقعة أرض من الصلصال المصفر. لم تكن هناك اشجار ولا ماء أيضاً. فقط هذه الأجساد الهزيلة وقبور البؤس.

وكان البدو الذين يراقبون هذا المشهد منذ عدة أسابيع يتساءلون إن لم تكن قد أُعلنت نهاية العالم. ومن وقت لآخر، تدفعهم الشفقة إلى الاقتراب من المعسكر ليقدموا للأطفال بعض التمر أو الماء، في حين يعمد الأقل نبلاً منهم إلى اقتراح أنفسهم لشراء الفتيات الصغيرات.

وكان رجال الدرك يبيعون لمن يدفع أكثر.

وعند وصولهم إلى دير الزور قال سائق العربة بصوت حزين:

- والآن صلّوا. صلّوا لربّكم، اذكروا له أين أنتم لأنه يبدو لي أنه لا يعرف.

تفحّص آرام المنظر وأخذته رعشة.

كان هنا، كل هؤلاء الناس الذين أحضروا من هضاب سيليسيا والأناضول بأسمالهم. كانوا جوعى، يبسوا عطشاً. كانوا هنا مزرّبين مثل حيوانات، خائري القوى، متسائلين من دون شك عن الساعة الوشيكة لموتهم.

سألت شوشان قائلة:

- هل تعتقد أن سوغومون ما يزال حياً؟

- أجل.

- كيف أمكنك أن تكون متيقناً إلى هذا الحد؟

- لأني أعلم ذلك. أحس ذلك.

ومرة أخرى، صدمت الفتاة للتحول الذي أصاب روح أخيها. كان كما لو أن شخصاً آخر كان ينمو، في شرنقة الألم والحداد.

حلب، ٢٨ أيار، الساعة ٧ مساءً

أخذ جمال باشا نفساً عميقاً من النرجيلة جعلت لساناً من النار يتراقص على الجمرات المتأججة. استمر بلذة تدخينه، فعمد إلى غلق حدقتيه قبل أن يقول:

- إذا أردتم رأيي، فإن هذا سيكون مؤسفاً. أن نقضي بطريقة ممنهجة على هؤلاء الناس غافلين عن الخدمات التي يمكنهم أن يقدموها لنا؟ يا للخسارة! لمَ لا نستغل قوة العمل التي يتوفر عليها

الناجون قبل القضاء عليهم؟ لم تنته بعد أشغال خط السكة الحديد القسطنطينية بغداد.

تبادل أيوب صبري ونيشاد باشا نظرات خفية، ذلك أنهما توقعا ملاحظته تلك، وكان الأمر كما شعرا به من قبل إذ شرع الوزير يتردد. لم تكن تلك المرة الأولى، فقبل مدة لم يتم القضاء كما كان مطلوباً على مئة وثلاثين ألف أرمني المنتمين إلى محور حماة وحمص ودمشق والقدس. وأنشأ جمال حديثاً لجنة خاصة مكلفة بتنظيم نقل ما بين عشرين ألفاً وثلاثين ألف أرمني مبعد كانوا يقضون عطشاً وجوعاً ووضعهم بحوران وبيروت ويافا. ما كان الهدف؟ ذلك حتى يطوروا نشاطاً حرفياً، ويتمكنوا من العيش! كان الأمر بمثابة تمرد فعلي.

حاول نيشاد السيطرة على انزعاجه، فقال:

- وإذن؟ ماذا تقترحون يا صاحب السعادة؟ أنتم تعرفون أوامر القسطنطينية.

أعاد ما قاله لزميله قبل ساعة.

- يفرض الباب العالي بألا يتجاوز عدد المبعدين في المعسكر عشرة في المئة من مجموع سكان مدينة دير الزور. لكننا وصلنا إلى ثلاثمئة ألف شخص.

أخذ جمال يفكر للحظات.

- هذا سيّئ. ما دمنا لا نملك خياراً. انقلوهم. اجعلوهم يمشون في اتجاه نيزوبوطاميا لكن ليس كلهم. اتركوا لي الأقوى منهم. أنا محتاج كثيراً إلى اليد العاملة لإتمام أشغال المنطقة ما بين حلب والموصل. بالمناسبة! أُخبرت بأن بعض الأجانب يلتقطون الصور. اعملوا على أخذ آلات التصوير والأفلام. هل هذا مفهوم؟

وافق نيشاد صبري.

ما إن غادر الرجلان، حتى أخذ الوزير نفساً آخر من النرجيلة،

وركز ناظريه على الجدار المقابل له تماماً مفكراً.

كيف ستنتهي هذه القضية؟ هل سيصل مشروعه السري إلى ما يأمله؟ فهي ذي خمسة أشهر وهو ينتظر قراراً من قوى التحالف. فمنذ شهر كانون الأول من سنة ١٩١٥، ومن دون علم أحد، انخرط في مخطط يجمع الإنجليز والفرنسيين والروس، والذي سيتمكن من زعزعة الإمبراطورية من الداخل.

ومن بين النقاط المعروضة، كان هناك مشروع حملة عسكرية تهدف إلى إسقاط نظام الأتراك الشباب، مقابل الحفاظ على وحدة تركيا الآسيوية الترابية. وأحد بنود الاتفاق يهم مصير المبعدين الذين يقترح إنقاذهم وذلك بتلبية حاجاتهم حتى نهاية الحرب.

وبطبيعة الحال، لم يكن الوزير مدفوعاً بالإحساس بالعدل أو بهاجس السلام. ذلك أن ما كان يأمله كان أكثر ابتذالاً، إذ كان يطمع في الحصول على ضمانة بأن يرى نفسه يُعلن سلطاناً مع حق التوريث لعائلته. هي أشياء قليلة فقط. وإلى حدود هذه الساعة، وللأسف كان حلم جمال باشا معرضاً للخطر. لكن ذلك لا يهم! أما بخصوص حماية المبعدين المزعومة، فسيواصل تنفيذ الجزء الخاص به من الاتفاق. وفيما بعد، وإذا سارت الأمور بشكل سيّئ، سيكون بمقدوره دوماً التأكيد على أنه قام بأفضل ما يستطيعه.

دير الزور، اليوم الموالي، ٢٩ أيار ١٩١٥

نامت شوشان بشكل عميق جداً. وعندما فتحت عينيها، كان أخوها أول ما وقعت عيناها عليه. كان جالساً قربها يتأملها.

- ما الذي تفعله هنا؟

- كما ترين، أحرسك.

- تحرسني؟ هل تريد أن تقول إنك لم تنم طوال الليل؟

هز رأسه نفياً.

- أنت مجنون! أشعر بأني أفضل كثيراً، وأنت تعلم هذا.

- أجل... أعلم هذا.

تفحصت ملامح وجهه برقة:

- من يصدق أني أردت في يوم من الأيام أن أكون ملكاً... ! واليوم أنت هو تيغران.

شدت نفسها إليه، وهي تقول:

- أنا خائفة يا آرام.

- ليس عليك أن تكوني كذلك.

- تعلم. قال لي أبي يوماً هذه الكلمات «في اليوم الذي تشعرين فيه بأن الخوف تملكك، عندما تكونين أمام العنكبوت ذات أنياب إبن آوى، تذكري بأنه عليك أن تغرفي من دمي ومن دم جدك القوة لمواجهة أعدائك. لا تنسي يا شوشان دجان. عندها لن تهزمي». واليوم أنقل لك هذه الكلمات لعلمي بأنها كانت موجهة لك.

هز آرام رأسه، وأخرج من جيبه حجرة هوفانيس السوداء، ووضعها على شعاع الشمس التي تخترق قماش الخيمة، ثم قال:

- انظري كيف تلمع، وكم هي سوداء. إنها على صورة شعبنا. ضوء وظلمة، ملساء وخشنة. لا تخافي. مثل هذا النوع من الحجارة لا يحطم.

ثم ظهر ظل شخص في مدخل الخيمة، ليسمعا:

- جميعكم إلى الخارج! حان الوقت!

غمغمت يشتر:

- وقت ماذا؟

- إلى الخارج!

ساعد آرام أخته لتنهض، وخرجا معاً من الخيمة.

همس الفتى:

- تذكرين ما قاله سائق العربة؟ لقد قال سيستمرون في قذفكم من معسكر إلى معسكر آخر، ومن مدينة إلى مدينة أخرى.

قهقه أحد الضابطية الذي سمع قوله ساخراً، ثم قال:

- لا تقلق أيها الصغير. لن تذهبوا بعيداً هذه المرة.

بسخرية قال أحد رجال الدرك:

- هذا بحسب...

وأطلقوا جميعاً ضحكاتهم الساخرة.

كانت غاريني ويشتر قد خرجتا بدورهما.

لاحظوا جميعاً أن المعسكر في حالة هيجان، ذلك أن الدواب أسرجت، وقصدت مجموعات مشكلة من حوالى مئة شخص لكل منها العربات بخطوات مخدرة.

وكان هناك عشرات البدو يراقبونهم بصمت ذاهل.

ذكرتهم غاريني قائلة:

- مع أن سائق العربة أكد لنا أن دير الزور ستكون آخر الرحلة.

رد أحد الدركيين قائلاً:

- وهو محقّ تماماً سيدتي.

كان الرجل قد تحدث بنبرة غامضة لم تخفَ على آرام. التحقت بهم مجموعات أخرى محاطة بالحرس، وبشكل تدريجي صاروا حوالى ألف شخص.

- تقدموا!! تقدموا!!

وعلى بعد كيلومتر منهم، ظهر لهم خان القوافل المهجور الذي رأوه حين قدموا.

خمنت يشتر قائلة:

- وكأنهم يأخذوننا إلى هناك.

أكد أحد الضابطية بالقول:

- تماماً، أنت محقة سيدتي.

- لكن لماذا؟

- لأنكم ستكونون أكثر راحة هناك من الخيم. وهناك أيضا بئر ستمكنكم من الاغتسال.

وحولهم، كان البدو يتبعونهم عن بعد.

فتح المصراعان المشكلان للباب الأثري من خشب البلوط. وببطء، تجاوز المبعدون العتبة ليلفوا أنفسهم في الساحة المركزية المحاطة بممرات ارتفعت إلى طابقين.

علق صوت قائلاً:

- بالفعل، سنصير أفضل هنا.

قالت غاريني:

- لكن هذا غريب. لمَ هذا الكرم المفاجئ؟

صاحت يشتر:

- انظروا!

أخذ فرسان من التشيتي كانوا غير مرئيين حتى هذه اللحظة، مواقعهم عند مدخل باب الخان.

- لكن... ماذا يفعل رجال الدرك؟ لمَ يقفلون الباب؟

أصدر المصراعان صريراً قوياً وهما يعادا إلى محوريهما.

وبحركة غريزية، أمسك آرام يد شوشان وجرها إليه.

ولما اكتشفت الشحوب غير العادي الذي اعترى وجهه سألته قائلة:

- ماذا بك؟

لم يردّ، وظل نظره معلقاً إلى البوابة الكبرى المقفلة.

قال لها بهدوء وهو يتراجع إلى الخلف:

- تعالي. لنبتعد...

- أين تريد أن تذهب؟

أشار إلى الطابق الثاني والغرف التي كانت معدة للتجار قائلاً:

- فوق... اتبعيني.

بالكاد تحركا، حتى سمعا أحدهم يطلق صرخة رعب قائلاً:

- لا!

ذلك أن التشيتي ظهروا من الطابق الذي أشار إليه آرام، على طول الممرات التي تميل إلى الساحة.

وانطلقت الطلقات الأولى.

أخذت السماء تمطر بغزارة نارها على حوالى ألف رجل وطفل وامرأة.

عصر الخوف أحشاء آرام وشوشان، وجمد الدم في عروقهما، وقطع أنفاسهما.

صراخ، وعدو مضطرب وغير ذي جدوى. كانوا يسقطون الواحد في أثر الآخر. كانوا يهوون مثل الدمى المتحركة التي كسرت. فجأة اشتعلت النار في العالم. هل كان كذلك فعلاً؟ كانت أشعة الشمس تغوص عميقاً في الفتحات. حمراء أضحت الجدران. حمراء صارت الإصطبلات. حمراء غدت السماء. كانت اللهب تقذف كما لو أنها ترسل من قبل مرايا ضخمة معلقة في قلب الجحيم.

لكن لم تكن هناك نار.

والمساكين الذين حاولوا الفرار من طلقات التشيتي ماتوا مداسين، ومن داسهم مات مداساً أيضاً.

كانت الرصاصة التي أصابت شوشان مثل وردة أرجوانية وسط صدرها.

تخاذلت الفتاة الصغيرة في ذراعي أخيها.

آخر صورة عبرت عينيها كانت لوالدها المنحني عليها قائلاً:

- ش و ش ا ن! ! !

ارتفعت صرخة آرام حتى أبواب السماء.

لكن هناك فوق، لا أحد انتبه له.

صار الرب مجنوناً.

الجزء الثالث

بعد أربع سنوات

٢٥

القسطنطينية، البرلمان التركي، ٥ تموز ١٩١٩

توقف رئيس المحكمة العسكرية الجنرال محمود حيرت عن قراءة صك الاتهام، ورفع عينيه إلى المروحة المعلقة في السقف، متسائلاً عن دورها ما دامت لا تصدر إلا هواء فاتراً.

ختم قراءته تحت الأنظار القلقة للمحامي العام، ومعاونيه قائلاً:

- بالنظر إلى الجرائم المشار إليها على امتداد هذه المحاكمة، فقد اقترفت وبطريقة منظمة جداً، إضافة إلى الهجوم وتدمير مواكب المبعدين سواء بالعاصمة أو بالضواحي، وهكذا فقد كانت هناك رغبة في القضاء على شعب بأكمله، وهو الذي يشكل مجتمعاً متميزاً. وبما أن الوقائع التي نحن بصددها ليست حوادث معزولة أو تخص بعض المناطق، وبما أن الإبعاد لم يكن حاجة عسكرية أو تدبيراً تأديبياً، وبما أنه صور وتقرر من قبل لجنة الاتحاد والتنمية، وبما أن النتائج المأساوية لها قد أدركت تقريباً في كل منطقة بالامبراطورية العثمانية، وأخيراً، بما أن المحكمة استندت إلى وثائق موثوقة، فإننا نعلن ما يلي:

يحكم على المتهمين التالية أسماؤهم غيابياً بأنهم مذنبون:

● يحكم على طلعت، وزير الداخلية في سنة ١٩١٥ والوزير الأول من ١٩١٧ إلى ١٩١٨، بالإعدام غيابياً.

● يحكم على أنفر، وزير الحربية، بالإعدام غيابياً.

● يحكم على جمال باشا، وزير البحرية بالإعدام غيابياً.

● يحكم على الدكتور بهاء الدين شكير، عضو اللجنة المركزية للحزب، ورئيس المنظمة الخاصة، بالإعدام غيابياً.

● يحكم على كافيد باي، وزير المالية بالنفي لخمس عشرة سنة.

● يحكم على موسى كاظم، شيخ الإسلام بخمس عشرة سنة مع الأشغال الشاقة.

● يحكم على هاشم باي، وزير البريد من ١٩١٧ إلى ١٩١٨ بالبراءة.

● يحكم على رفعت باي رئيس مجلس الشيوخ بالبراءة.

استمر لعدة دقائق يعدد الاتهامات، وعندما انتهى، سلم صك الاتهام إلى كاتب المحكمة، ودفع كرسيه قائلاً.

- أيها السادة، رفعت الجلسة.

قام الكولونيل والجنرالات الثلاثة الذين كانوا جالسين بدورهم.

فكر حيرت بأن الوقت قد حان، فلو بقي هنا عشر دقائق أخرى لكان مات متيبساً.

من جانبه، جمع المحامي العام محمد عزمي ملفاته، وشكر معاونيه بحرارة، ثم توجه إلى شخصين كانا في آخر القاعة. كان الأول آييغ سارافيان الأرمني عضو البرلمان السابق، أحد الناجين من الموت بمعجزة، في حين كان الثاني يدعى يورغوس إيفاكاليديس عضو البرلمان السابق أيضاً، لكن الأمر يتعلق هنا بالبرلمان اليوناني.

- إذن؟ هل أنتما راضيين؟

أومأ الرجلان بحركتين من رأسيهما موافقين، لكن من دون حماسة كبيرة. لاحظ المحامي عاقداً حاجبيه بالقول:

- يبدو لي أنكما لستما كذلك.

ابتدر إيفكاليديس بالقول:

- هل تعلمون يا أستاذ ما نظنه بهذه المحاكمة؟ هي...

قاطعه المحامي قائلاً:

- لنتحدث عن ذلك، لكن ليس هنا. أكاد أموت عطشاً. هيا بنا...

وتبعه النائبان.

وبصورة متناقضة جداً، كانت درجة الحرارة أكثر رحمة في الخارج. وكالعادة، كان مقهى سبنيت الواقع جوار البرلمان يعج بالناس، حيث اللعب بالطاولة، والدومينو وتدخين النرجيلة، والندل الذين تنشر ملابسهم رائحة البن... ولولا الوجود المهدد لحوالى خمسين سفينة حربية إنجليزية وفرنسية وروسية التي تحرس مياه البوسفور، ووجود جنود التحالف الذين يتجولون من دون حسيب أو رقيب في شوارع العاصمة، لما شك أحد بأن شيئاً زعزع الوجود التركي منذ دخولها الحرب (تركيا) قبل حوالى خمس سنوات.

ومع ذلك... فإذا ما كانت تركيا ما تزال تتنفس فإن الإمبراطورية كانت قد أسلمت الروح. فعلى الجهة الشرقية بفلسطين والعراق والبلقان، كانت المعركة قد خسرت بشكل واضح وصريح. وحتى في العقبة، المدينة الصغيرة التي تعتبر بوابة البحر الأحمر، سقطت أمام الهجوم المفاجئ للقبائل العربية التي توحدت بالمناسبة وقادها ضابط إنجليزي شاب يدعى طوماس لورانس[٩٢].

---

(٩٢) سيعرف فيما بعد بلورانس العرب. المترجم.

وفي الثلاثين من شهر تشرين الأول لسنة ١٩١٨، أُجبر ممثلو الباب العالي الجدد المجتمعون على متن بارجة بريطانيا في مرسى مودروس على توقيع اتفاقية ببنود قاسية حيث تقتسم فرنسا والمملكة المتحدة ولايات الشرق الأوسط، سورية والعراق ولبنان وفلسطين والأردن وسواحل العربية السعودية الحالية، واليمن، وعادت مناطق شمال اليونان وسواحل بحر إيجة إلى اليونان. أما بقية الإمبراطورية، فقد صارت من الآن فصاعداً مقسمة إلى «مناطق تأثير» إيطالية وفرنسية وإنجليزية. وانتهت بذلك أحلام الاتحاديين بالتركنة.

أمر المحامي العام النادل قائلاً:

- ثلاثة أكواب ليمون، ولتكن باردة جداً.

وجّه كلامه إلى النائب اليوناني قائلاً:

- إذاً هل تشرحون لي سبب عدم رضاكم؟ أم هل عليّ أن أخمن ذلك؟

هم يورغوس إيفكاليديس بأن يرد، غير أن الأرمني سبقه إذ قال:

- اسمعوا يا محمود. لن نخفي وجوهنا. كانت هناك محاكمة واتهام. لكن أين هم المسؤولون الرئيسيون؟ لم يكن هناك أحد في قفص الاتهام. لا طلعت، ولا أنفر، ولا جمال ولا الدكتور شكير. لا أحد! أين يختبئون؟

وافق النائب البرلماني اليوناني قائلاً:

- آييغ محق تماماً. ونحن نعرف جيداً من يسّر لهم سبل الفرار! حتى إنهم منحوهم الوقت الكافي ليدمروا الأرشيفات. وليس بخاف على أحد أن الدكتور نظيم ورئيس الأمن حسين عزمي أخفيا أثر كل الوثائق التي كانت مخبأة بالمقر المركزي للاتحاد. وبعد ذلك اهتما بأرشيفات وزارتي الحربية والداخلية وأحرقا كل الوثائق التي يمكن أن تدينهما. البرقيات والرسائل المرسومات. كل شيء! أما طلعت وجمال

وأنفر فقبل أن يفروا على متن سفينة ألمانية، أخذوا كل الوقت لوضع وثائقهم الشخصية لدى أصدقاء يثقون بهم طبعاً، والذين سارعوا طبعاً إلى إخفائها. أترون الآن... فرار مطلق من العقاب! ولست أخترع شيئاً، ما دامت الصحافة التركية علقت على الأمر.

شرب المحامي جرعة كبيرة من شراب الليمون، ثم تنهد قائلاً:

- أعلم ذلك. حتى إن سخط الرأي العام أجبر حكومة عزت باشا الذي تستر على فرارهم على الاستقالة. ومع ذلك، حاولوا أن تتحلوا بالقليل من الموضوعية. إذا كان فرار هؤلاء المجرمين واقعاً، فإن الأمر لم يخلو من رفع دعاوى قضائية، وأقيمت محاكمات عسكرية، وأنشئت لجان تقصٍّ قضائية، والحكم إزاء مجازر الأرمن ومن أجل المنفى الذي فرض على اليونانيين ومن أجل تحديد مسؤوليات دخول تركيا في الحرب. عرف البلد وجود الرعب. لا أحد يستطيع إنكار هذا. وقسمت ولايات الإمبراطورية إلى عشر جهات، وعُيّن لكل جهة منها حكام وقضاة المحاكم وقضاة وكتاب للضبط... هذا شيء لا يمكن إغفاله! واليوم، لا أحد يمكنه تجاهل ما حدث. مليون أرمني ضحايا هؤلاء الجلادين يوجدون اليوم على واجهة الأحداث. هل فهمتم؟ ثم إنكم نسيتم الأهم.

أنهى شرب كوب الليمون، وركز ناظريه على سارافيان ثم قال:

- توجد جمهورية أرمنية. فمنذ أيار من سنة ١٩١٥ أعلنت استقلالها، ولها عاصمة الآن هي يريفان! أليس هذا عجيباً؟

بتراخ وافق الرجلان على قوله، ثم قال سارافيان:

- أجل بطبيعة الحال، لكن تعتبر هذه الجمهورية شذوذاً سياسياً. هل ستقاوم؟ فثُلثا ترابها يرزح تحت ظل احتلال العدو، وحوالى نصف سكانها من اللاجئين. لم نحتفظ إلا بجزء صغير جداً من أرمينيا القديمة، وإلى يومنا هذا، لم تعترف أية دولة باستقلالنا، ولا نملك أي

شرط من الشروط الضرورية للحفاظ على أمّة وتطويرها بالمعنى الحقيقي للكلمة. ثم، علينا ألا ننسى أن الأتراك لم يضعوا أسلحتهم جميعاً. فهناك هذا الجنرال، مصطفى كمال الذي انشق ورفض جملة وتفصيلاً الاتفاقية الموقعة بمودروس، فالقتال مستمر بالنسبة له. فجمهوريتنا إذن...

لطّف المحامي العام من اندفاعه قائلاً:

- صبراً! يلزم وقت لكل شيء! فصبراً!

وفجأة، سأل النائب البرلماني اليوناني زميله قائلاً:

- أخبرني. صحيح أن أحد رفاقك القدامى في الدشناك عُيّن سفيراً للجمهورية الجديدة؟ أظن أنه يدعى آرفن أو...

- كلا، آرمن. آرمن غارو. هذا صحيح.

متعجباً قال عزمي:

- آرمن غارو! أليس هذا الرجل الذي عُرف سنة ١٨٩٦ بتلك الفرقعة حيث أُخذ موظفو البنك العثماني كرهائن.

- أجل، إنه هو.

- يا له من مسار!

- شرس جداً. كان منخرطاً في جيش القيصر، وكان من بين أوائل الأرمن الذين دخلوا مدينة فان عندما حررت من قبل الروس. وعندما عاد بعد ذلك إلى إرزروم، واكتشف أن بها اثنين وعشرين أرمنياً فقط من بين عشرين ألفاً كانت تعيش بها في السابق، انهار وخارت قواه. وقرر محطماً، التنحي عن كل مسؤولية له بالدشناك، واعتزل العالم عند صهره بغاندزاك في القوقاز.

- مع أن هذا التعيين الجديد...

- منذ حوالى سنة، اتفق أعضاء لجنة الحزب والكاثوليكيون على

إرسال آرمن إلى الولايات المتحدة من أجل الدفاع عن القضية الأرمنية، وجمع المال، انطلاقاً من هذه اللحظة أعاد اكتشاف طعم الحياة.

هز التركي رأسه قائلاً:

- الله[٩٣] يحمي المستقيمين.

وافق سارافيان بابتسامة كئيبة، ثم قال:

- إذا كان الأمر صحيحاً، إذاً لماذا يسمح للجلادين الذين اغتالوا إخواني بأن يعيشوا أياماً سعيدة في مكان ما من هذا العالم؟

---

(٩٣) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

٢٦

الولايات المتحدة، بوسطن، ١٠ تشرين الأول ١٩٢٠

كان يبدو أكبر من سني عمره الأربع والعشرين. كان بوجه هزيل، لكن نظرته لم تتغير قط. نظرة نافذة مركزة تقتحم الروح. خرج من باب محطة القطار، وأوقف أول سيارة أجرة تمرّ. ما إن استقر بها حتى بحث في جيب سترته البالية، وأخرج قطعة بريستول[٩٤]، حيث كُتب عنوان قرأه على السائق بإنجليزية مكسرة:

- ١٧ شارع كولومبوس.

وانطلقت السيارة.

ولما أحس دواراً برأسه، أغمض عينيه، وشرع قلبه يدق باضطراب تأثراً. كذاك كان كلما اجتاحه شعور قوي جداً. التنفس، عليه أن يتنفس.

كل شيء كان يمضي مسرعاً. كان عليه في الفاتح من شهر تشرين الأول أن يركب السفينة من المرفأ قاصداً مدينة نيويورك. واليوم هو في بوسطن.

لكن أين كان قبل ست سنوات؟

---

(٩٤) ورق مقوى صقيل. المترجم.

قصدهم أحد الفرسان، وقال مشيراً إلى سوغومون وبارسيغ على التوالي:

- أنت وأنت. انزلا! واتبعاني!

- لكن... لكن لماذا؟ ماذا فعلنا؟

- هذا أمر من اليوزباشي! على الرجال والنساء أن يفترقوا.

قام سوغومون وقال:

- لكن أخبرونا على الأقل ما السبب؟

- أخبرتك لتوي! هذا أمر النقيب! هيا حتى لا نفقد الوقت!

قام آرام بدوره قائلاً:

- عليّ... عليّ البقاء إلى جوار أختي، إنها مريضة جداً.

- هل أنت مغفل؟ تحدثت عن الرجال وليس عن الأطفال! هايدي! هيا، تحركا!

مالت شوشان قليلاً، ثم قالت:

- كلا... كلا... لا ينبغي... سوغومون!

- لا تخافي سيريليس. سنلتقي.

وبسرعة طبع قبلة على جبين الفتاة، وقفز أرضاً.

وبعد؟ ماذا حدث؟ بعد ست سنوات، تبدو هذه الفترة من حياته كما لو أنها نصف مضببة.

أخذه الجنود مثل الباقين حتى جوانب بئر، جُمعوا هناك ثم قام الجنود غير المبالين بالتوسلات بإطلاق الرصاص عليهم. أصابت الرصاصة الأولى فخذ سوغومون فوقع أرضاً، أما الثانية فهشمت كتفه اليمنى. هل أغمي عليه نتيجة الألم؟ كلا، ما دام يذكر بوضوح أنه

أحس أيادي ترفعه من الأرض. لربما اعتقدوا أنه مات! ثم كانت هناك الحفرة السوداء. إحساس دبق في الظلمة. وقبل أن يفقد وعيه تماماً، كان لديه ما يكفي من وقت ليفهم أن الجنود رموه في قعر بئر حيث الجثث المتكدسة هناك وهي ما منعه من الغرق. كم بقي هناك؟ من المحتمل أن نقص الهواء والشعور بالاختناق أعادا إليه وعيه. لم يكن ميتاً. كان في طريقه إلى الموت، مخنوقاً تحت وطأة جثث أخرى تراكمت فوقه.

وهكذا، ازدادت قوّته عشرة أضعاف رعباً، ورغبة بعدم الموت كمجهول، في هذه الحفرة، فأخذ يرفس ويضرب ويدفع الأذرع والأرجل والرؤوس مستنداً على كل ما يستطيع الإمساك به ليشق لنفسه طريقاً في اتجاه الضوء. لكن، وفي كل مرة يزيح عنه فيها حاجزاً، كان يصطدم بآخر. كان ذلك بلا نهاية، وكانت قواه توشك أن تنهار. وأخيراً، وفي محاولة أخيرة، نجح في غرز أصابع يده اليسرى في مثاب البئر. قبضت أصابعه بصلابة على الحجرة غير أنه كان من المستحيل أن يرتقي إلى الأعلى. فقد جعلت كتفه المهشمة ذراعه الأخرى غير ذات جدوى، فأخذ يسقط ببطء، ببطء. وهكذا، وتقريباً من دون علمه بالأمر، شرعت شفتاه تتلوان صلاة للقديس نيرسيس: **فاسين كيتوتيان، فاسين فوغورموتيان، فيريسدان غيتزو**...: «باسم عطفك، باسم رحمتك، إمنحني حياة جديدة». لربما في يومه هذا، اقتنع بوجود المعجزات. ففي الوقت الذي كان يتراجع فيه إلى الخلف، أمسكت يد قوية معصمه، وبسرعة انتُشل خارج البئر.

بدوي.

ماذا كان يفعل هنا؟ فيما بعد، كان على سوغومون أن يعلم بأن أغلب سكان الصحراء الذين كانوا شهوداً على المأساة التي تقع على حدود أبوابهم، كانوا يسعون إلى نجدة المصابين، بعضهم بدافع الشفقة

في حين كان دافع البعض الآخر تحويلهم إلى خدم لهم.

كان البدوي يدعى سليمان. كان في حوالى الستين من العمر، ولم تكن له زوجة أو أبناء، ولم يكن يبحث عن خدم. ما إن شفي من جراحه، حتى ألفى سوغومون نفسه أمام خيارين، إما أن يبقى إلى جوار منقذه ليعينه في رعي قطيعه وجني التمر أو الرحيل. وبقي هناك. على كل حال، أين كان سيذهب؟ فقد كان الجحيم في كل مكان. وهكذا عاش حياة البدو الرحل حتى شهر تشرين الأول من سنة ١٩١٨، حيث تصادف وجوده في سوق حلب عندما سمع عن استسلام تركيا، وإعلان استقلال جمهورية أرمينية. باسم عطفك، باسم رحمتك، إمنحني حياة جديدة. لقد تمت الاستجابة لدعوته. وبتأثر كبير، أعلن لمن أحسن له عن نيته في العودة إلى تركيا. ولم يصدر عن الرجل أي تعليق، إذ اكتفى بأخذه بين ذراعيه هامساً له «كان يمكنك أن تكون ابني». ومنحه بعض الليرات، وما يكفيه في طريقه عبر القطار من دمشق إلى القسطنطينية.

ما إن وصل سوغومون إلى العاصمة، حتى قصد مقر جريدة الدشناك دجاكادامار، وطلب أن ينشر له إعلان على أمل كان يخشى أن يكون زائفاً، أن يجد أحد معارفه. ومن صدف الحياة أن فتاة كانت هناك أيضاً، وحضرت للغرض نفسه. كانت معلمة، وكانت تدعى يرانوي دانيليان، وكانت مناضلة في حزب هينتشاك. أسرّ لها سوغومون في كلمات قليلة بشاعة الإبعاد، وعن والديه المغتالين بضربة ساطور، ورغبة الانتقام التي تكمن بداخله. ولما كان طاقم تحرير الجريدة متأثراً وملتاعاً، جمعوا له مالاً يكفيه لحين إيجاد عمل، أما عن السكن، فقد كانت يرانوي تعرف عنوان غرفة للكراء. وهكذا اقترحت على سوغومون أن تقوده إليها.

أخبرته الفتاة بدورها بآخر المستجدات السياسية، وذكرت بطبيعة

الحال فرار المسؤولين الأتراك، وأولئك الذين ما يزالون يعيشون بالقسطنطينية من دون عقاب دوماً مثل المساعد الرئيسي لطلعت الأرمني الخائن آروتيون ميغيرديتشيان.

أضاء وميض أصهب حدقتي سوغومون.

أعاد رؤية فوهة البندقية المقحمة بمهبل إيفا، وسمع صوت التفجير.

- هل مسكن الرجل معروف؟

- طبعاً. الكل يعرفه. إنه في بيرا، بشارع كومباراسي. في الطابق الأرضي. إذا أردت يمكنني أن آخذك إلى هناك غداً.

وبرّت بكلمتها، بل إنها قامت بأكثر من ذلك، حيث إنها أعطته صورة لميغيرديتشيان كانت بحوزتها. هل أحست بالنار تأكل دواخل روح سوغومون أم إن فعلها كان بطريقة آلية؟ كلا. لقد أحست بكل شيء ما دامت حصلت على سلاح عن طريق أعضاء الهينتشاك.

ومنذ هذه اللحظة، رابط سوغومون أسفل هذه العمارة. ويوماً بعد يوم، وليلة في إثر أخرى، ومدعماً بملايين الضحايا الذين كانوا يصرخون في رأسه، منتظراً الوقت المناسب، وفي إحدى الليالي، ومن خلال النافذة المضيئة، لمح الخائن يرفع نخبه على شرف مدعويه. اقترب، وألصق جبهته بزجاج النافذة، وصوب جهة القلب، ثم ضغط على الزناد.

نزل الخبر كالصاعقة على أرمن القسطنطينية الناجين، وبين عشية وضحاها، أضحى لقب تيليريان رديفاً للبطل.

وبالنسبة لسوغومون، لم تكن تلك إلا بداية. ألم يكن هناك كل الآخرين. أنفر وطلعت وجمال الأحرار دوماً؟ وإذا ما أُريد إيجادهم وضبطهم، كان يستدعي إمكانات مادية مهمة. أسرّ ليرانوي بالأمر فشرحت له أنها عاجزة عن جمع الأموال هنا في القسطنطينية، وأنها

تنوي الذهاب إلى الولايات المتحدة لإكمال مسيرتها كمدرّسة هناك. فبالنسبة لها، انتهى شيء اسمه تركيا. وكان عليها أن تمر عبر باريس، حيث كانت قد أُسست هناك وكالة أرمنية، ووعدت سوغومون بأن تكلم المسؤولين وأن تحاول إقناعهم بتمويل حملة ملاحقة الجلادين.

ومرت الأسابيع والشهور.

وأخذته الحياة. كل يعمل في كل مرة في مكان مختلف، محتفظاً في ذاكرته بصوت ضربات الساطور ورؤى عن رأسي والديه المقطوعين والمتدحرجين في الرمال، وبقي لديه الهوس نفسه **فريج لودزيل**، **فريج لودزيل**، الانتقام، الانتقام.

وكان قد أخذ قراره في شهر تشرين الثاني من سنة ١٩١٩. كان سيقصد باريس. وكان قد نجح في جمع بعض المال. وقدم له بعض الأصدقاء دعمهم، فصعد القطار سريع الشرق، وما إن وصل مدينة الأنوار، حتى كانت لديه وجهة واحدة. الكنيسة الأرمينية، ولم يكن القس الذي استقبله شخصاً آخر سوى البطريرك زافين المنفي.

فتح له سوغومون قلبه، وأسرّ له بنيته في إيجاد ومعاقبة المسؤولين عن المذابح وطلب عونه. فصرخ الكاهن في وجهه قائلاً:

- هذا مستحيل!

وطفق يردد كلمات مثل المحبة والحب والمغفرة، كلمات كثيرة طنت في رأس سوغومون كشتائم. استدار على عقبيه، وترك الكنيسة منهاراً.

ماذا سيحل به؟

نام في العراء. وعاش خاملاً. وعرف الجوع، حتى اليوم الذي علم فيه عن طريق الصفحة الأولى لجريدة معروضة بأحد الأكشاك بأن هناك مؤتمراً للسلام يقام في باريس منذ أكثر من عشرة أشهر. وكان المؤتمر المقام بفندق خاص وهو فندق فويمون بشارع بواسي دونغلا،

يجمع بين المنتصرين والمنهزمين تحت رئاسة جورج كليمنصو. وكان ما آثار اهتمام سوغومون بصفة خاصة، وجود وفد أرمني يقوده شخص يدعى آفيتيس آرونيان.

فقصد شارع بواسي دونغلا مسرعاً. وما إن وصل إلى الاستقبال بالفندق حتى طلب ملاقاة آفيتيس، فرد عليه موظف الاستقبال قائلاً:

- مستحيل.

فأصر، ورفض آخر:

- مستحيل، ليس اليوم على كل حال.

وأمام الهيئة المنكسرة لمحاوره الشاب، ولما علم بأنه مثله تماماً يتحدر من مدينة إرزاندجان، أعطاه موظف الاستقبال عنوان إسكافي يدعى هاغوب غوتشاريان بشارع بيل فيل، والذي يمكن أن يشغله.

ووافق هاغوب. ومنذ ذلك الوقت عاش سوغومون ولمدة شهر حياة كل المنفيين.

ثم أتت العناية الإلهية لتنقذه.

ففي أحد صباحات شهر أيلول من سنة ١٩٢٠، وبينما كان جالساً في المقهى الذي تعوّد الجلوس فيه، قدم له صاحبها رسالة أحضرتها له بالأمس آنسة تدعى دانياليان.

دانياليان؟ يرانوي دانياليان؟

بيد محمومة، مزق المظروف. كانت الرسالة موقعة بالفعل من قبل دانياليان، لكن الاسم لم يكن ذاك الذي يتوقعه سوغومون إذ كان لفتاة تدعى مريام. وقدمت نفسها على أنها أخت المدرّسة، والتي كلفتها بأن تجد سوغومون مهما كلفها ذلك من ثمن، وأن تبلغه بأن عليه أن يتوجه إلى الولايات المتحدة بشكل عاجل، من أجل الأسباب التي يعرفها، وبأن تذكرة سفر على متن باخرة والمال كانا تحت تصرفه هناك في باريس لدى شخص أرمني يدعى هانيمجيان، والذي ذكرت مريام في

رسالتها عنوانه.

غير أن النقطة المدهشة كانت في آخر الرسالة، ذلك أن كاتبة الرسالة ذكرت «أرسلت التذكرة والمال من قبل ممثل الجمهورية الأرمينية بالولايات المتحدة: آرمن غارو».

كان سوغومون على وشك أن يُغمى عليه.

غارو؟

ردد بصوت عال، وهو يضغط على كل حرف كأنما ليقنع نفسه بذلك إذ قال:

- آرمن غارو؟

- وصلتم سيدي!

استدار سائق سيارة الأجرة، وردد قائلاً:

- سيدي! لقد وصلتم.

اجتُثّ سوغومون من أفكاره. أنقد السائق أُجرته، وبعد دقائق من ذلك، كان يدخل مقر جريدة آيرنيك، وهو مقر للدشناك أيضاً. يرانوي ليست هنا لاستقباله، فهي تدرّس في كاليفورنيا. كان آرمن غارو من فتح له ذراعيه لاستقباله.

بلغ التأثر حدوده الكبرى عندما تعانق الرجلان. لم يكن فارق السن بينهما إلا أربع سنوات، غير أن سوغومون كان يبدو أكبر سناً. كانت الدموع التي لم يحاول منعها تسيل على طول خديه. لم يستطع آرمن التحكم في نفسه. ارتعدت يداه. هو ماض يتدفق عليهما ويغرقهما.

سأل سوغومون فجأة قائلاً:

- وآل طوماسين؟ أنت تذكرهم أليس كذلك؟

- طبعاً.

ازدرد آرمن ريقه مضيفاً:

- مات هوفانيس. أُعدم رمياً بالرصاص في الوقت نفسه مع فاروجان. قتلوهم مثل كلاب، وتركوا جثثهم طعاماً للضواري مثل حيوانات. أما فاهي، وآنا...

- أعلم. هم أيضاً قُتلوا. لكن ماذا عن ابنيهما؟ شوشان وآرام؟ هل تعلم ما آلا إليه؟ آخر مرة رأيتهما فيها كنا في الصحراء السورية قبل خمس سنوات. فرقونا ومنذ تلك اللحظة لم يستطع أحد إخباري إن كانا ما يزالان حيين.

خفض آرمن غارو رأسه، ثم قال:

- للأسف، أنا أيضاً لا أعلم شيئاً. الآلاف في عداد المفقودين. تلزم سنوات قبل التعرف على مصير كل عائلة. تلزم سنوات طويلة...

أمسك سوغومون من ذراعه، وأدخله مكتباً ثم دعاه للجلوس قبل أن يقول:

- هل تعلم يا صديقي بأنك بطل؟ أهنئك. لم يستحق الخائن ميغيرديتشان مصيراً أفضل.

- أجل. لكن لا يمكننا أن نكتفي بهذا الموت الوحيد. هناك كل الآخرين أيضاً. كل أولئك الذين لُطّخت أياديهم بالدم، والذين ما يزالون يعيشون بينما يتعيّن عليهم أن يكونوا في عمق قبر. أنت مدرك للأمر، أليس كذلك؟

مرت بضع ثوان قبل أن يرد آرمن غارو بالقول:

- لستُ مدركاً للأمر فقط، لكني قررت التحرك من دون تأخير. وهذا بالمناسبة سبب حضورك هنا.

توقف للحظة قبل أن يعلن:

- نيميزيس.

- نيميزيس؟

- هي كلمة السر التي منحناها للعملية التي نعدّ لها.

استرخى آرمن في مقعده قبل أن يكمل قائلاً:

- أمام ضعف الحلفاء الذين يبدون عاجزين عن الالتزام بتعهداتهم، نملك كلنا، كل الأرمن حق إقامة العدالة. أنشئ صندوق دعم خاص. كنتَ قد أخبرت يرانوي بأن الملاحقة تتطلب إمكانات مادية، إذاً يا صديقي هذا أمر قد تم الآن. لقد جمعنا هذه الإمكانات. أعلم أيضاً أن مؤتمرنا العالمي التاسع الذي عقد السنة الماضية في يريفان قد تبنى بالإجماع عملية نيميزيس في قراراته السرية.

أشرق وجه سوغومون، ثم قال:

- منذ مدة طويلة، وأنا أنتظر هذه اللحظة! يبقى علينا الآن معرفة أماكن تواجد الجلادين.

- هذه بالتحديد المهمة التي سننكب عليها. هل أنت مستعد لمساعدتنا؟ لقد خصصنا لك الحوت الأكبر، وهذا من حقك.

- طلعت؟

- طلعت شخصياً.

- أنا مستعد يا صديقي. لا شيء أدعى لسعادتي من التمكن من الدابة.

- إذاً ستتمكن منه هو والستة الآخرين!

وأثناء حديثه، كان قد فتح أحد أدراج مكتبه، وأخرج منه ورقة سلمها إلى سوغومون قائلاً:

- هذه أسماؤهم وصورهم.

أخذ سوغومون يقرأ القائمة:

١ - طلعت باشا، وزير الداخلية.

٢ - جمال عزمي، والي تريبيزوند.

٣ - جمال باشا، وزير البحرية.

٤ - الدكتور بهاء الدين شكير، مسؤول المنظمة الخاصة.

٥ - أنفر باشا، وزير الحربية.

٦ - محمد كمال عزمي، الحاكم المفوض ليوزغات.

٧ - سعيد حليم باشا، الوزير الأول من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩١٦.

- سؤال فقط. لِمَ تم اختيار اسم نيميزيس؟

علت شفتي غارو ابتسامة غامضة، قبل أن يقول:

- نيميزيس. نيميزيس هي فتاة الليل. إلّهة الانتقام.

٢٧

ألمانيا، برلين، ٢ آذار ١٩٢١

مزق سوغومون بعصبية المظروف الذي عهد له لدى إليزابيث ستيلبوم مالكة محل عنوانه: ٥١ شارع أوغسبورغ

عثرنا على آثار قريبك الذي تبحث عنه، أعتقد أنك ستسعد لرؤيته. سأنتظرك في بيت نائب قنصل أرمينيا ليباريت نازاريان غداً صباحاً عند الساعة العاشرة.

أعاد سوغومون قراءة الرسالة وقلبه يدق بشدة: «عثرنا على آثار قريبك الذي تبحث عنه». هل هذا ممكن؟ وأخيراً؟
فمنذ أن وصل إلى برلين عبر باريس قبل شهرين من اليوم، عرف بحثه أوقاتاً جيدة وأخرى سيئة، لحظات أمل وأخرى محبطة. وإذا ما تواجد هنا، فبسبب مقال نُشر بمجلة ألمانية وقّعه منشق عن الاتحاد، ويدعى محمد زكي، والذي تفاجأ فيه تواجد زعماء سابقين للأتراك الشباب في العاصمة.
وما إن عُلم الخبر، حتى تأكد مسؤولو نيميزيس أن المقال كان مصيباً، وأن لهؤلاء الأشخاص العادة بأن يجتمعوا بمحل لبيع التبغ في

٤٩ أولاندستراس، وهو لمن لُقب بـ «جلاد تريبزوند» جمال عزمي.

وغداة وصول سوغومون، أُعلم بأن شخصين عينا لمساعدته في مهمته. وكان الأول يحمل اسماً مستعاراً وهو آزور وقد تعرف إليه بوجه مكشوف، في المقابل، ولدواع أمنية بقيت هوية الشخص الثاني سرية. وشُرح له أن كريم وهو اسم حركي للشخص الثاني، كان العميل المدسوس في شبكة الأتراك الشباب بالمنفى. ولما كان قد انتحل صفة طالب من اسطنبول، وأنه متعاطف مع الاتحاد، فقد نجح في كسب ثقتهم. وعن طريقه بلغت المعلومة إلى نيميزيس. لهذا كان يستحيل أن يُعرض لأي مخاطرة حتى يوم التنفيذ. وهكذا علموا بأن أنفر باشا شخصياً يستعد للوصول إلى برلين قادماً إليها من موسكو. وأثار الخبر هيجاناً لدى أفراد الكومندو لأنه إذا ما حضر أنفر فمن دون شك، لن يتأخر القريب الذي طال البحث عنه في الخروج من جحره.

وللأسف، لم يحضر أنفر، وبقي طلعت مجهول المكان.

غير أن أعضاء المجموعة نجحوا في تحديد موقع ثلاثة أهداف ضمتها لائحة غارو، وهي: عزمي ونظيم وخاصة الدكتور بهاء الدين شكير. لكنه كان من المستحيل الاقتراب منهم. ذلك أن غارو أصر على هذه النقطة بصفة خاصة «فطلعت أولاً» ولطلعت الأولوية المطلقة. وإذا ما تمت مهاجمة الآخرين، فسيُنذر وسيختفي إلى الأبد.

ومرت الأيام والأسابيع. ساعات من الترقب، ومن الملل أيضاً، ثم هذه الرسالة اليوم.

كان الجو بارداً جداً، ولم يبدُ أن فصل الشتاء مستعد للمغادرة. ارتجف جسد سوغومون عند نزوله من الترامواي. كان يشعر بالتعب الشديد، ذلك أنه لم يغمض جفنيه طوال الليلة الماضية معيداً قراءة الرسالة التي توصل بها: «عثرنا على آثر القريب الذي تبحث عنه».

تنفس بعمق، وقصد ١٤ أروسير ستراس بخطى واسعة. وعندما كان يطرق باب ليباريت نازاريان، كانت ساعته تشير إلى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة.

كان نائب القنصل هو من فتح الباب شخصياً.

اعتذر سوغومون بالقول:

- أنا آسف، سبقت موعدي، لكن. . .

- لا يهم. الكل هنا.

قاده ليباريت حتى الصالون. حياه الرجال الثلاثة بحركة ودودة باليد. كلهم أفراد الكومندو، آزور وفاهان وهاغو.

كانت النار بالمدفأة. جلس سوغومون على الكرسي الأقرب إلى المدفأة.

سأله ليباريت بالقول:

- وإذاً يا صديقي. كيف تشعر؟ تبدو لي أكثر شحوباً.

- كل شيء على ما يرام. لقد شفيت تماماً.

- التيفوئيد. أليس كذلك؟

- أجل.

وسارع إلى القول مرة أخرى:

- كل شيء على ما يرام.

رسم ابتسامة على وجهه آملاً ألا يسأله أحد عن هذه النوبات، ذلك أنها صارت تتكرر باستمرار منذ أيام.

أردف مسرعاً:

- وإذاً؟ هل لديكم جديد؟

نظر نائب القنصل إلى آزور قائلاً:

- أترك لك الكلمة..

شبك آزور أصابع يديه على صدره، وأعلن بعد ثوان قائلاً:

- عثرنا عليه.

- أين؟ وكيف؟

- اهدأ. سأذكر بالوقائع. هل تذكر أنه وقبل حوالى عشرة أيام، أعلمنا مخبرنا لديهم كريم بأن قادة اتحاديين كانوا قبيل عقد مؤتمر لحركتهم بالمنفى، ببرلين أو بروما؟

وافق سوغومون بإيماءة من رأسه، فواصل آزور بالقول:

- وبمحض الصدفة السعيدة، علمنا عن طريق جريدة إيطالية فاشية بأنه وقع الاختيار على العاصمة الإيطالية. ولا يستطيع أحد حتى أن يفكر أنه إذا كان طلعت ببرلين ألا يحضر الاجتماع لتشريفهم بحضوره.

- أجل هذا صحيح.

- وهكذا زرعنا رجالنا على أرصفة ألكسندر بلاتز بهدف مراقبة كل الرحلات المتوجهة إلى روما. و...

- و...؟

- وظهر البارحة.

احتدم قلب سوغومون.

- كان برفقة الدكتور بهاء الدين شكير، وطالبين سبق أن رأيناهما. كان يمسك عصاه، وقد حلق شاربه ولا يضع طربوشاً. صعد شكير القطار. كان أحد رجالنا وتحسباً للأمر قد أخذ تأشيرة إلى إيطاليا في حال إذا... وعلى عكس المتوقع، بقي طلعت. حيّى شكير ثم غادر محطة القطار مرفوقاً بالطالبين. تعقبنا أثره حتى دخوله إلى فندق خاص في ٤ هاردنبيغ ستراس.

وفي الغد، سألنا سراً تجاراً بالجوار. أصبح اسم باشانا علي صليح.

- لكن هل أنتم متأكدون من أنه هو بالفعل؟ هل تعرفتم عليه بشكل قاطع؟

- من دون شك. قبّل الطالبان يده عندما كانا يتركانه، وناادياه باشا. ما كانا ليبديا اهتماماً مماثلاً لو تعلق الأمر بشخص آخر، ثم يكفي النظر إلى الصور، وبحذف الشارب فقط يكون هو طلعت.

خيم صمت طويل على الصالون.

ازدرد سوغومون ريقه، ثم قال:

- والآن؟

- عليك أن تغير مسكنك منذ هذه الليلة. عثرنا لك على غرفة بالشارع نفسه، مقابل ٤ هاردنبيرغ ستراس. ومن خلال نافذتك، تملك منظراً مكبراً على مقر سكنى طلعت وباب الدخول. عليك أن تتسلح بالصبر، فنحن لا نعرف متى سيخرج من بيته، لكن في اليوم الذي سيفعل...

وعمّ الصمت مجدداً.

سأل نائب القنصل العام قائلاً:

- هل أنت متأكد من أنك تريد المضي في هذا الأمر حتى النهاية؟

- لم أكن أبداً متأكداً مثلما أنا عليه اليوم. أنتظر هذه اللحظة منذ ست سنوات. ست سنوات...

كرر بصوت مرتعش من التأثر:

- ست سنوات!

- حسناً. إعلم أن ملكك الحارس سيكون هنا. هو يقطن العمارة المجاورة. إذا ما ارتعشت يداك...

- تقصد رجلنا المدسوس؟ كريم؟

- أجل.

قام سوغومون، عازماً، ثم قال:

- لا تخشوا شيئاً. لن ترتعش يدي. لن تكون يدي أكثر ارتعاشاً من أيادي قتلة والدي.

برلين، ١٥ آذار ١٩٢١

يقف طلعت باشا خلف نافذته، وينظر إلى الشارع. قريباً سيحل منتصف النهار.

ما الذي يبحث عنه؟

من كان ينتظر؟

لم يتحرك منذ اثني عشر يوماً. اثنا عشر يوماً ساجناً نفسه في الفندق الخاص، كما لو أنه يتوقع شيئاً، وكأنه يحس بنظر سوغومون المسلط عليه أو ظل نافذته المموهة.

لكن الآن... شيء غير اعتيادي يحدث.

فكبير الخدم يساعده على وضع معطفه السميك، ويمد له عصاه. سيخرج!

ترنح سوغومون.

هُرع إلى سريره. رفع جزءاً من المرتبة، وتناول مسدسه ماركة لوجير ب ٠٨ القادر على تصويب ٢٠ طلقة في الدقيقة. تأكد من أنه محشو، وغادر مسرعاً. كان على الرصيف في الوقت نفسه الذي ظهر فيه طلعت البدين من أعلى درجات ٤ هاردنبيرغ ستراس. تفحص الباشا الشارع، واسترق نظرة خاطفة على سوغومون الذي عدل بحركة آلية قبعته.

انتهى الأمر! إنه على الرصيف الآن. صعد الشارع في اتجاه بودابيست ستراس. وعلى الفور لحق به سوغومون لكن على الرصيف المقابل. ثم تجاوزه. كانت أصابعه في جيبه، تضغط عقب مسدسه اللوجر. وقرب مدرسة الموسيقى، ارتد على الطريق، وعبر إلى الجهة الأخرى، ليلفي نفسه على الرصيف نفسه حيث يوجد طلعت. والآن، يمشي الرجلان أحدهما في اتجاه الآخر.

لم تعد تفصل سوغومون إلا عشرة أمتار. خمسة. متران. أخرج الأرمني سلاحه وضغط الزناد. أصيب طلعت في رأسه، وارتسمت على وجهه ملامح الرعب قبل أن يهوي على وجهه أرضاً.

تشكلت بركة دم حول جبهته.

وأخذت تتسع.

اعتقد سوغومون أنه يرى أرمينيا بها.

وفجأة، اصطدمت حجرة سوداء بالأرض.

أصدرت صوتاً بلا رنين عند لمسها البركة الدبقة. يعرف سوغومون جيداً مثل هذه الحجرة. إنها أولتي تازي، التي لا توجد إلا في الأناضول، وخاصة بمنطقة إرزروم.

أستدار ولم يصدق ما رأى!

آرام! آرام طوماسيان!

كان يحمل مسدساً أيضاً. لكنه لم يجد فرصة ليستخدمه. ليست الرغبة ما كان يفتقدها لإفراغ مخزن سلاحه في جسد الدابة، لكن ما فائدة ذلك؟

بدأ المارة يشكلون حلقة حول الرجلين.

غمغم سوغومون:

- الشخص المدسوس؟ كنت أنت؟ أنت؟

بحركة من رأسه قال آرام. نعم.

غمغم قائلاً:

- هيا يا صديقي، لنرحل من هنا.

٢٨

برلين، قاعة المحكمة، ٣ حزيران ١٩٢١

كانت قاعة المحكمة الجنائية ببرلين تغص بالناس.

أطفأ آرام خفية سيجارته بأن سحقها بعقبه، وألقى نظرة على الساعة الكبيرة المعلقة فوق رأس الدكتور لومبيرغ، رئيس المحكمة. كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة والدقيقة العشرين. فمنذ الأمس، لم تتوقف الأسئلة والأجوبة.

الرئيس: متى تولدت لديكم فكرة قتل طلعت باشا؟

المتهم: منذ حوالى أسبوعين. كنت أشعر بسوء. فصورة المذبحة التي تعرض لها والديّ كانت تعود إلى عيني. رأيت جثة أمي. قامت الجثة، ودنت مني، ثم قالت لي «هل رأيتني؟ طلعت هنا، وأنت غير مبال؟ لم تعد ابني!»

الرئيس: عندما كنتم في باريس، وعند حضوركم إلى برلين لم تكن لديكم النية إذاً في قتله؟

المتهم: لم أقرر شيئاً حينها. كنت أجهل إن كان طلعت يعيش في برلين.

ابتسم آرام.

فسوغومون يوافق بشكل رائع ما يريده الدفاع المكون من اثنين من

بين أشهر هيئة الدفاع في برلين، وأحد أكبر قضاة ألمانيا. بعد أن أوضحوا الدعوى القضائية المرفوعة ضد طلعت، وبأنه حُكم عليه بالإعدام غيابياً من طرف محكمة عسكرية تركية، جاهد أعضاء الدفاع لتبرير عمل سوغومون بأن ذلك نتج عن مرض نفسي لا علاج له، وأن ضميره، وضميره وحده، هو من أملى عليه هذا الفعل. ولم يتحدث أحد أبداً في أي لحظة من اللحظات عن عملية نيميزيس.

الخامسة والنصف.

انسحب أعضاء هيئة المحكمة لاتخاذ قرارهم، وإذا ما قرروا توجيه تهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد ضد سوغومون فإنه يواجه حكماً بالإعدام.

أي سلوك عجيب صدر عنه بينما كانا يفران معاً، وكان بإمكانهما الفرار من قبضة رجال الشرطة. ذلك أنه وبينما كانا يسيران بمحاذاة تييرغاراتن حديقة الحيوانات، توقف سوغومون فجأة، وأعلن «اهرب! سأسلم نفسي». حاول آرام المذهول أن يعيده إلى رشده غير أن سوغومون تصلب في رأيه قائلاً: «كلا! إذا لم يقبضوا عليّ، لن تكون هناك من قضية، ولن يعرف أحد بالمجازر التي ارتكبها جلادونا، وسيصير موت طلعت كاغتيال تافه. اهرب يا آرام! اهرب ودعني أقم بالعمل. أتوسل إليك».

الموت في الروح. واحتراماً لتوجيه آرمن غارو الصارم، فقد انصاع آرام للأمر.

اجتثه صوت انزلاق الباب من أفكاره.

كان أعضاء المحكمة يأخذون أماكنهم في صمت كأنهم في طقس ديني. تقدم رئيسهم أوطو راينيك وقدم إلى الدكتور لومبيرغ منطوق الحكم. ألقى نظرة عليه، وأعاده إلى راينيك قائلاً:

- حسناً، اقرأوه.

شرع رئيس القضاة في القراءة قائلاً:

- أعلن بشرفي وبكل وعيي بخصوص قضية المتهم سوغومون تيليريان، إن كان مذنباً بالقتل العمد لطلعت باشا في ١٥ آذار ١٩٢١؟ الجواب هو لا!

دوت عاصفة من التصفيق في القاعة مغطية على صوت الدكتور لومبيرغ الذي كان يلتمس البراءة وإلغاء التهمة.

قام الأتراك الحاضرون واجمين.

بحث سوغومون عن آرام بعينيه.

بعد ساعتين كان حراً طليقاً.

برلين، ٤ حزيران ١٩٢١

كان مقهى سيلدربيش شبه خالٍ.

أخذ سوغومون يتفحص في وجه آرام في جلوسهما بمكان معزول، وكأنه يبحث فيه عن رؤية صور من حياته الخاصة. كذلك كان يفعل صديقه.

- هكذا إذاً. ماتت شوشان، وهي التي ما كان ينبغي لها أن تموت.

خفض آرام عينيه، ثم قال:

- هذا خطئي من دون شك. لم أعرف كيف أحميها.

- بربك يا آرام! فلنكف عن جلد ذواتنا. معجزة أنك تمكنت من الخروج حياً من هناك.

ابتسم آرام.

- معجزة بالنسبة لنا نحن الاثنين. أنت تدين بحياتك لبدوي مسن، وأنا لمدرس ألماني.

- ألماني؟ شخص مستقيم إذاً. الحمد للرب أنه ما يزال هناك أشخاص مستقيمون من أجل إنقاذ الآخرين، لكنني إلى الآن لا أفهم ما كان يفعله مدرس جوار ذلك الخان.

- كان نيباج يدرس بمدرسة ألمانية بحلب. وكان قد عاد لتوه من عطلة دامت ثلاثة أشهر قضاها في بيروت. وفي هذه اللحظة بالضبط أخبره زملاؤه بالمجازر التي تحدث وبمشاهد النفي والإبعاد، ورفض تصديق الأمر بدءاً. على الأقل هذا ما أخبرني به بعد وقت طويل. لم يستطع تخيل ذكر أسباب عسكرية لطرد شعب بأكمله من أرض تواجد بها منذ أكثر من ألفين وخمسمئة سنة، ليهجّر فيما بعد إلى الصحراء. أراد التأكد بنفسه من الأمر، وتوجه على رأس فريق من المتطوعين إلى كل أحياء حلب ليلاقي هناك الناجين، وأيضاً بالخان وخارج المدينة. وهكذا كان يتواجد هناك في وقت إطلاق النار علينا.

- وما إن غادر التشيتي حتى تسلم فريقه الناجين.

- تماماً.

- وعشت بالريال شول حتى سنة ١٩١٨.

أكد آرام بالقول:

- والبقية تشبه إلا في بعض التفاصيل، رحلة وصولك إلى برلين.

صمت ليختم في تنهيدة قائلاً:

- كان لدينا الكثير من الحظ يا سوغومون.

- من دون شك.

تنهد وأضاف بالقول:

- لكن ماذا تبقى منا؟ ماذا بقي من أرمينيا؟

هز آرام رأسه، وتاه نظره في البعيد.

- فجأة أفكر في ما قاله لي عمي هوفانيس، قبل وقت طويل. كنا ساعتها نتأمل المنظر قرب إرزروم. هل تعلم ما قاله لي: أرمينيا يا صغيري، ليست فقط جغرافيا، إنها هوية. هل حاولت أن تتصور عدد الشعوب التي مرت علينا؟ واحتلتنا؟ وظلمتنا؟ استطاع هؤلاء الغزاة أن يقتلعوا منازلنا، أن يملكلوا حقولنا غير أنهم لم ينجحوا أبداً في النيل من ذاكرتنا. وماذا ترى اليوم؟ ما نزال هاهنا دوماً، راسخون أكثر من أي وقت مضى على ديننا، والكاتدرائية المقدسة لإتشميادزين، ملكة كاتدرائياتنا قائمة دائماً. تذكر بأن البطريرك نوح ثمل من كرماتنا! وبأن نوح نفسه، عندما نزل من سفينته في قمة أرارات أعلن متعجباً إيرفانتس! «ظهرت!».

النهاية

ملخصات سِيَر ذاتية

عبدالحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨)

ابن السلطان عبدالحميد الأول، ولقب بـ «السلطان الأحمر» لوحشيته. اعتلى عرش السلطنة إثر موت أخيه مراد الخامس. سنّ سنة ١٨٧٦ تشريعاً تحررياً إلى حد ما، غير أنه لم يطبق أبداً. وبعد هزيمة الجيوش العثمانية ضد روسيا في حرب سنتي ١٨٧٧ و١٨٧٨، وتوقيع اتفاقيات سان إستيفانو وبرلين سنة ١٨٧٨ ثار على الأقليات. وهاجم بصفة خاصة الأرمن، العقبة الرئيسية بحسبه ضد التوسع، وتطوير إيديولوجيته الإسلاموية. ولم تطبق الإصلاحات المفروضة من قبل القوى العظمى الأوروبية. وهكذا سيشرع «السلطان الأحمر» وتحت ذرائع دنيئة في عملية «تطهير عرقي»، حيث إن المجازر المنفذة ما بين ١٨٩٤ و١٨٩٦ المثال المأساوي على ذلك. واحتجت أوروبا غير أنها لم تتدخل.

بهاء الدين شكير (١٨٧٥-١٩٢٢)

عضو قيادي بحزب الأتراك الشباب، الاتحاد والتنمية. عهدت له حكومة الثلاثي المكونة من طلعت وأنفر وجمال إدارة شرطة القسطنطينية، ومسؤولية «المنظمة الخاصة» الشهيرة جداً للأسف

بـ«تشكيلة محسوسة». أنهى دراسته بالمدرسة العسكرية للطب سنة ١٨٩٦ برتبة نقيب، وعُين سنة ١٩٠٠ أستاذاً مساعداً في الطب الشرعي في المؤسسة نفسها قبل أن يصير الطبيب الشخصي ليوسف عز الدين ابن السلطان عبدالعزيز، والوريث المحتمل للعرش. وجعلته أفكاره الجمهورية يُنقل إلى اللواء الثالث المتمركز بإرزاندجان. ولما كان لاجئاً بفرنسا عمل بعدة مستشفيات. وهكذا عيّن كبير الأطباء في مستشفى الهلال الأحمر، وسيعتقل سنة ١٩١٢ عند حصار إديرن. وفي السنة الموالية سيرقى على التوالي مديراً لمشرحة اسطنبول، ومديراً للجنة الطبية لوزارة العدل، ثم عقيداً سنة ١٩١٤. وكان قد أجرى اتصالاته الأولى مع مسؤولي «الاتحاد» عندما عاد بشكل سري إلى اسطنبول في العام ١٩٠٧.

ولما كان ملاحقاً من قبل محققي العدالة من مجموعة نيميسيز، أعدم في ليلة ١٧ نيسان من سنة ١٩٢٢ في أحد شوارع برلين، واتهم بتدمير أغلب الأرشيفات التركية التي تجرم الأتراك الشباب في مجزرة ١٩١٥.

بوغوص نوبار باشا (١٨١٥-١٩٣٠)

رجل صناعة ودبلوماسي، ومحسن للأمة الأرمنية. ولد من أسرة أرمنية عريقة للإمبراطورية العثمانية. كان والده وزيراً أول لمصر. وما إن حصل على شهادة كمهندس من المدرسة المركزية لباريس، حتى ولج مجال السكة الحديد بمصر، وأداره بين سنتي ١٨٩١ و١٨٩٨. وساهم بشكل نشيط في الحياة الاجتماعية الأرمنية للإسكندرية والقاهرة. وفي سنة ١٩٠٦ أنشأ الاتحاد العام الأرمني للإحسان. كان رجلاً واقعياً ومحسناً لا يكل ولا يمل، لأجل ذلك وجه الاتحاد العام الأرمني للإحسان الذي كان يرأسه، من أجل وضع أسس برنامج

مساعدة ودعم مالي لفائدة الشتات ولفائدة أرمينيا السوفياتية. توفي في باريس سنة ١٩٣٠.

بريس لورد جيمس (١٨٣٨-١٩٢٢)

ولد في بلفاست بإيرلندا. رجل دولة وباحث ومستشار بالحزب الليبرالي البريطاني. بدأ يهتم بالأرمن خلال مقامه بالقوقاز سنة ١٨٧٦. وساهم سنة ١٩٠٤ في الحركة العالمية من أجل أرمينيا ملقياً المحاضرات، وعاقداً الاجتماعات لصالح الأرمن المضطهدين داخل الإمبراطورية العثمانية. وعيّن سنة ١٩٠٧ سفيراً في الولايات المتحدة الأمريكية، وصار سنة ١٩١٤ عضواً بمحكمة لاهاي. عهدت له حكومة صاحبة الجلالة البريطانية سنة ١٩١٥ بمهمة إنشاء ملف عن الاضطهاد والمجازر التي تعرض لها الأرمن بتركيا. ونشر سنة ١٩١٦ «الكتاب الأزرق» (blue book)، الذي تضمن وثائق مهمة جداً تُثبت المجزرة التي تعرض لها الأرمن. وتضمنت وثائق «الكتاب الأزرق» شهادات شهود عيان موثوقين، جمعت من قبل المؤرخ آرنولد توينبي حول الإبعاد والإبادة الممنهجة للأمة الأرمنية في الإمبراطورية العثمانية خلال فترة الإبادة.

جمال باشا (١٨٧٢-١٩٢٢)

رجل سياسة وقائد عسكري تركي. عضو حزب الاتحاد والتنمية، ومدافع شرس عن التركنة والأسلمة. قائد الفيلق الرابع التركي في جبهة سيناء، وفي سورية، ثم وزيراً للبحرية سنة ١٩١٣. وعلى الرغم من أنه يدافع عن ذلك في مذكراته، إلا أنه كان مهندساً لعمليات إبعاد وإبادة الشعب الأرمني بسليسنيا، والقمع الدموي لثورة مدينة أورفة. لاحق بوحشية باردة الحركات العربية لتحرير فلسطين ولبنان وسورية، وبعد

هزيمة سنة ١٩١٨، فر جمال إلى أوروبا (ألمانيا، وباريس). وحكم غيابياً في قضية الاتحاديين التي عقدت في شهر تموز من سنة ١٩١٩. وعندما عاد إلى تيفلس بدعوة من حكومة جيورجيا السوفياتية سقط في ٢٢ من شهر تموز لسنة ١٩٢٢ برصاص بيدروس دير بوغوسيان وآرداشيس كيفوركيان.

وفي السادس من شهر أيلول من سنة ٢٠٠٨، وبمناسبة مباراة في كرة القدم أقيمت بأرمينيا، زار حفيده حسن جمال، وهو صحفي ومحرر بجريدة ميلييت النصب المخلد لمجزرة أرمن زيزيرناغابير، حيث وضع إكليلاً من الزهور على شرف الضحايا، وكتب بمناسبة زيارته تلك مقالاً عنونه بـ«فلنحترم آلام الجميع»، حيث اقترح أن تخصص دقيقة صمت في الملعب قبل بدء المباراة «في ذكرى الصفحة المأساوية من تاريخنا المشترك، ومعاناة الأرمن والأتراك في الماضي». وكان قد أعلن في ١٥ من شهر نيسان لسنة ٢٠٠٥، أنه لا يعتقد في الطرح القاضي بوجود «إبادة مخطط لها»، وأنه يدعو إلى احترام الموقف الذي يؤكد وجود نية للإبادة «فالتغاضي عن الحرمان والمآسي التي تعرض لها الأرمن سيكون مضياً على عكس ضمير المرء، وضد التاريخ، من أجل هذا علينا هضم هذه الفترة من التاريخ العثماني دون البحث عن الفرار».

أنفر باشا (١٨٨١-١٩٢٢)

عضو حكومة الثالوث التي أدارت الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى رفقة طلعت باشا وجمال باشا. كان ملحقاً عسكرياً في برلين ما بين سنتي (١٩٠٩ و١٩١٤)، ثم رقي إلى جنرال سنة ١٩١٣ بفضل الحصول على أندرينوبل (إدرين)، ثم وزيراً للحربية بدءاً من سنة ١٩١٤. كان محرك المثالية التركية. أقحم الإمبراطورية

العثمانية في الحرب إلى جوار ألمانيا. تعرض لهزيمة نكراء بساريكاميش ضد الروس. فر إلى ألمانيا خلال الهدنة سنة ١٨١٨. اتهم وحكم عليه بالإعدام غيابياً لمشاركته في المذابح بواسطة المحكمة العسكرية للقسطنطينية سنة ١٩١٩، وانضم إلى ثورة الباسماتشيين (الوطنيين الأوزبك) سنة ١٩٢١ بآسيا الوسطى. قتل بواسطة الجيش الأحمر في الرابع من شهر آب لسنة ١٩٢٢ في بيلسيفان بطاجيكستان.

غارو آرمن، واسمه الحقيقي، كاريكين باسترمادجيان (١٨٧٢-١٩٢٣)

سياسي، وثوري. درس في المدينة التي ولد بها دراسته الابتدائية. وسنة ١٨٩٥؛ عهد إليه أعضاء الدشناك، بمهمة دعم المدافعين الهنتشاك بزيتون المحاصرة من قبل القوات التركية. وفي السنة الموالية، شارك في الاستيلاء على البنك العثماني تحت قيادة بابكن سوني، وتسلم قيادة هذه المجموعة بعد مقتل هذا الأخير في بداية الهجوم. وبعد الاستسلام، أبعد أعضاء هذه المجموعة إلى فرنسا ليطلق سراحهم سريعاً. وبجنيف حيث استقر، قرر كاريكين باسترمادجيان مواصلة دراسته العليا التي كان قد بدأها سنة ١٨٩٤ وذلك في تخصص الهندسة الزراعية بنانسي بفرنسا. حصل على الدكتوراه في البيولوجيا والكيمياء. وبين سنتي ١٩١٥ و١٩١٧، نظم صفوف المتطوعين الأرمن وساهم في استقبال اللاجئين الأرمن الناجين من المذابح. وبتكليف من المجلس الكاثوليكي، شرع في الولايات المتحدة في تنظيم عملية تبرع كبيرة بين صفوف أثرياء الأرمن بأمريكا. وسنة ١٩٢٠، عيّن سفيراً لأرمينيا بواشنطن. وعهد له مجلس الدشناك مسؤولية عملية نيميزيس. توفي بجنيف سنة ١٩٢٣مع إحساس بالرضى على أنه نفذ مهمته بشكل كامل.

جيب كارين (١٨٧٦ - ١٩٣٥)

عاملة بعثة من الدنمارك، ولدت بجيلينغ بالدنمارك. قرأت في أحد مساءات سنة ١٩٠٢ مقالاً كتبه مايير بنيدكتسن، والذي يصف القمع الذي تعرض له الأرمن خلال القرن التاسع عشر. وعندما حل بنديكتسن بعد مدة يسيرة من ذلك إلى كوبنهاغن لإلقاء محاضرة بها، كانت كارين بالصفوف الأولى، وختم حديثه بإطلاق نداء لنجدة الأرمن بتركيا. ولما كانت متأثرة جداً، فقد راسلته، فأعلمها بأن الدكتور ليبسيوس كان بصدد البحث عن مدرّسة من أجل إحدى المدارس التي أنشأها بتركيا، بأورفة تحديداً. وهكذا، رحلت ملقية بنفسها في خدمة الأرمن. وحتى سنة ١٩١٨، لم تأل جهداً في الإخلاص للضحايا. ولما أصابها المرض والإجهاد، انتهت بالعودة إلى الدنمارك حيث بقيت هناك حتى سنة ١٩٢١. ثم عاودت الرحيل لكن هذه المرة إلى سورية حيث علمت أن عدداً من الأرمن لجأوا هناك، فأسست مسكناً للأطفال، وعيادة طبية وورشة خياطة. توفيت مجهدة في حلب في ٧ من شهر تموز من سنة ١٩٣٥ عن سن يناهز ٥٩ سنة. نشير هنا إلى أن الدنمارك، وإلى يومنا هذا، ترفض الاعتراف بوجود إبادة قامت بها الإمبراطورية العثمانية سنة ١٩١٥ في حق الأرمن.

مورجنطو هنري (١٨٥٦-١٩٤٦)

ولد بمانهايم في ٢٦ من شهر نيسان لسنة ١٨٥٦. سفير للولايات المتحدة بالقسطنطينية في الفترة ما بين كانون الأول من سنة ١٩١٣ حتى شهر كانون الثاني من سنة ١٩١٦. أثارت مذكراته التي تغذت من المراسلات المتبادلة مع واشنطن والقناصلة والبعثات الأمريكية بتركيا بين شهري أيار وتشرين الثاني لسنة ١٩١٥، انتباه الغرب إلى الإبادة التي تعرض لها الأرمن.

ساندرز أوطو ليمان فون (١٨٥٥-١٩٢٩)

جنرال ألماني. عرف بكونه مستشاراً وقائداً عسكرياً للإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى. فمثل العديد من البروسيين المتحدرين من أسر أرستقراطية، انخرط في الجيش. بلغ رتبة فريق دون أن يتمكن من قيادة الجنود في معركة. وعيّن سنة ١٩١٣ مستشاراً عسكرياً للإمبراطورية العثمانية. وعند انتهاء الحرب، اعتقل بمالطة في شباط من سنة ١٩١٩، واتهم بجرائم حرب، غير أنه أطلق سراحه بعد ستة أشهر من ذلك، وانسحب من الجيش الألماني في السنة ذاتها. نشر ليمان سنة ١٩٢٠ كتاباً ألفه في أسره يروي تجاربه قبل الحرب وبعدها. توفي في ميونيخ سنة ١٩٢٩ عن سن يناهز أربعاً وسبعين سنة.

شوبنر - ريشتر ماكسيمو فون (١٨٨٤-١٩٢٣)

نائب قنصل بإرزروم، وضابط في الجيش الألماني. أرسل إلى الأناضول الشرقية من أجل تنظيم حركة التمرد الإسلامية خلف الجبهة الروسية. احتج مراراً لدى الحكومة الألمانية على المعاملة التي يتعرض لها الأرمن. واتسم بالشجاعة ذاتها لدى الإمبراطورية العثمانية. اعتمد على إمكاناته الشخصية لإطعام بعض اللاجئين الأرمن الذين مروا من إرزروم. وبعد الحرب، قتل بميونيخ سنة ١٩٢٣ عندما صار نازياً حيث كان جوار هتلر في عملية مصنع الجعة الشهيرة.

سيرنغيليان فارتكيس (١٨٧١-١٩١٥)

ثوري ورجل سياسة. درس دراسته الإبتدائية بمدرسة ساناساريان بالمدينة التي ولد بها. ولما تشبع مبكراً بأفكار التحرر والثورة، شارك في مظاهرة الاحتجاج الكبرى التي شهدتها إرزروم شهر تموز لسنة ١٨٩٠، وهي المشاركة التي تعرف فيها على تجربة الاعتقال لأول مرة.

ولما أرسل سنة ١٨٩٠ كمدرس إلى القسطنطينية، اغتنم الفرصة لزرع مجموعات من الدشناك بالعاصمة. ونظراً لقدرته على التنظيم وبث الحماسة فقد عهد له مجلس الدشناك بالعديد من المهام ببلغاريا والقوقاز وتيفيلس وخاصة بفان ربيع سنة ١٩٠١. اعتقل سنة ١٩٠٣ ووجهت له التهم فأمضى ثمانية عشر شهراً في السجن. وبفضل الدستور الجديد، انتخب فارتكيس سنة ١٩٠٨ عضواً في البرلمان العثماني ممثلاً لمنطقة إرزروم. ولما كان برلمانياً لامعاً فقد حظي رفقة كريكور زوراب بثقة بعض القادة الأتراك ومن بينهم طلعت باشا. اعتقل شهر حزيران من سنة ١٩١٥، وتم إبعاده واغتياله.

طلعت باشا (١٨٧٢-١٩٢١)

رجل سياسة تركي. يتحدر من تراس. تربى وسط عائلة دومية اعتنقت الإسلام. بعد دراسة عرفت مروراً خاطفاً على الرابطة الإسرائيلية بالقسطنطينية، أضحى ساعياً للبريد، ثم رئيساً للإرساليات بالبريد بسالونيك. تعرف بمقدونيا على ثوار الاتحاد الذي كان في مهده، فعرف شيئاً فشيئاً كمثير للدعايات لا يشق له غبار، وصاحب مكر ودهاء. وتنامى صعوده لدى الثوار في العملية المسلحة التي قادت لجنة الاتحاد والتنمية شهر تموز من سنة ١٩٠٨ إلى السلطة. انتخب عضواً بالبرلمان بأندرينوبل وصار نائب رئيس البرلمان العثماني ثم وزيراً للداخلية بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩، ووطد في العلن روابط صداقة متينة مع برلمانيين يونان وأرمن، وخاصة مع كريكور زوراب، وفارتكيس سيرانغيليان. أما في السر، فقد كان يعد مخططاً للقضاء على الشعب الأرمني بالأناضول. وفي الوقت الذي أظهر قبوله بمخطط الإصلاح شهر شباط من سنة ١٩١٤، أنشأ «تشكيلة محسوسة» المنظمة الخاصة وهي الذراع المسلح لعملية الإبادة التي

شهدتها سنة ١٩١٥. وخلال الحرب، وضع المخطط موضع التنفيذ وأمر بالترحيل الجماعي الذي شهده يوم الرابع والعشرين من شهر نيسان مستفيداً من الفوضى العارمة لحالة الحرب. ولما قضت في حقه محكمة عسكرية تركية حكماً غيابياً بالإعدام، فر إلى ألمانيا. وهكذا فقد تم تتبع آثاره وقتل بأحد شوارع برلين بواسطة سوغومون تيليريان في الخامس عشر من شهر آذار من سنة ١٩٢١.

ويحمل أحد شوارع أنقرة اسمه.

تيليريان سوغومون (١٨٩٦-١٩٦٠)

ثوري وأحد محققي العدالة بخصوص الإبادة التي تعرض لها الأرمن. ولد من أسرة بروتستانتية بباركيدج، وهي قرية تقع بين ولايتي تريبيزود وإرزروم. ولما كان مناضلاً شاباً بالجبهة الثورية الأرمنية الدشناك، فقد تطوع للقيام بعملية نيميزيس. واختاره القدر كمسؤول والمنفذ الرئيسي للكومندو الذي عهد له بالقضاء على طلعت باشا، فاغتاله في الخامس عشر من شهر آذار من سنة ١٩٢١ ببرلين. ولما رفض الفرار، اعتقلته الشرطة الألمانية، ومرت محاكمته يومي الثاني والثالث من شهر حزيران فحكم عليه بالبراءة، وخصه الشعب الأرمني باستقبال استثنائي على مدى كل التجمعات الشعبية التي عقدت على شرفه وتزوج بأناهيت تاتيغيان في منفاه بسان فرانسيسكو، فرزق منها بطفلين. نشرت مذكراته سنة ١٩٥٦ بالقاهرة، وتحدث فيها بضمير الغائب.

فاروجان دانيال (١٨٨٤-١٩١٥)

شاعر، واسمه الحقيقي شيبوكياريان. ولد ببركينغ قرب سيباست. أرسله والداه إلى المدرسة المخيتارية بالبندقية ثم إلى غانغ ببلجيكا

حيث درس العلوم السياسية والآداب. عمل مدرساً بسيفاس حين عودته سنة ١٩٠٩ قبل أن يرقى سنة ١٩١٢ إلى مدير لمدرسة سان غريغوار المنير بالقسطنطينية. وساهم في جريدة آزادامار حيث سيكتب نشيد الخبز، وهو عمل مستلهم من ملحمة دافيد ساسون. كان فاروجان شاعراً بنفس قوي، انتقل في كتابة الشعر بالبهجة نفسها بين الوطني والاجتماعي والواقعي والغنائي والريفي الشعبي. وفي ليلة الثالث والعشرين من شهر نيسان والرابع والعشرين منه لسنة ١٩١٥ اعتقل ورحل. وتبقى ظروف وفاته غير موثوقة.

فانجنهايم هانس فون (١٨٥٩-١٩١٥)

دبلوماسي ألماني. كان سفيراً في المكسيك، ثم وزيراً ألمانياً بأثينا من سنة ١٩٠٩ حتى العام ١٩١٢، قبل أن يعين سفيراً بالإمبراطورية العثمانية من سنة ١٩١٢ وحتى ٢٥ من شهر تشرين الأول من سنة ١٩١٥. ولما مرض في أواخر حياته عوض من قبل الأمير هوينلو لونجبورغ بين شهري تموز وتشرين الأول من سنة ١٩١٥. ولما اتهم بالاشتراك مع السلطات التركية بخصوص الإبادة التي تعرض لها الأرمن، والتي نشرت بمجموعة من الجرائد بالعديد من الدول المحايدة (سويسرا، والدنمارك والولايات المتحدة...) شهري أيار وحزيران من سنة ١٩١٥، نشر بيان احتجاج يؤكد فيه موقف ألمانيا الرسمي بخصوص هذا الموضوع جاء فيه «أملت اعتبارات عسكرية تدابير أعمال القمع التي قامت بها الحكومة الإمبراطورية للأتراك الشباب ضد الأرمن بأقاليم الأناضول الشرقية، وشكلت وسيلة شرعية للدفاع عن النفس. والحكومة الألمانية أبعد ما تكون عن معارضة تنفيذها بالنظر إلى أن الهدف كان تثبيت الأمن الداخلي لتركيا، ومنع أعمال الفتنة. ومع ذلك، فلا يمكن للحكومة الألمانية أن تتجاهل التجاوزات التي صاحبت

تنفيذ هذه التدابير الصارمة، وبصفة خاصة الإبعاد المكثف للجناة وللضحايا على حد سواء من دون تمييز، إضافة إلى العنف الذي رافقه مثل المذابح وأعمال السلب».

زوراب كريكور (١٨٦١-١٩١٥)

ولد كريكور زوراب من عائلة ميسورة تتحدر من آكن. وتخصص في دراسته الجامعية بشكل لامع في الهندسة والقانون، وصار محامياً ذائع الصيت بالإمبراطورية العثمانية قبل أن يعين بعد سنة ١٩٠٨ أستاذاً للقانون الجنائي بكلية الحقوق بجامعة القسطنطينية. اقتحم الحياة العامة شاباً، وأضحى ممثلاً بالتجمع الوطني الأرمني حيث حظي بسلطة معنوية لا نقاش فيها ولا جدال حولها. وبدءاً من سنة ١٩٠٨، وباعتباره عضواً منتخباً بالبرلمان العثماني، ساهم في الحياة السياسية للبلد، مجاوراً المسؤولين الأرمن والقادة الأتراك. وجمعته روابط مع الممثلين الشباب لباقي الأجناس المكونة للإمبراطورية، وأضحى أحد أبرز رجالات تلك الفترة. ولما كان محباً للحياة، فقد عاش حياة اجتماعية متقلبة. وتعرف على المجتمع المتعدد الأجناس للعاصمة العثمانية، وكسب تجربة شخصية ثرية جداً، كانت منجمه الأدبي. ولما كان صاحب موهبة فذة، فقد احتل دون أن يسعى إلى ذلك حقاً، مكانة مرموقة بين كتّاب زمانه.

اغتيل سنة ١٩١٥ وهو في أوج موهبته، وهو من ضحايا الإبادة.

تزوج زوراب من كلارا يازيدجيان سنة ١٨٨٨، ومثله تماماً، كانت كلارا تتحدر من عائلة بورجوازية أرمنية، ورزقا بأربعة أبناء، وهم دولوريس وإيرمين وليون وآنين. وبعد مقتل زوراب، لجأت الأسرة إلى أوروبا. وتزوجت دولوريس من هنري ليبمان، وهو صاحب مصنع كبير للجعة. وعلى امتداد السنوات، دعمت عدة أعمال خير وإحسان،

إضافة إلى برنامج منح أكاديمية بجامعة كولومبيا لفائدة طلبة من الأرمن، ومركز للمعلومات كريكور وكلارا زوراب. وقُلدت السيدة ليمان بوسام سان نيرسيس كنورالي من قبل قداسة فاسكن الأول البطريرك الأسمى والأب الروحي لكل الأرمن الكاثوليك لكل مساهماتها الدينية ولخدمتها الكنسية.

تذكير تاريخي

أرمينيا

تعد أرمينيا هضبة جبلية واسعة تضم قلعة تبلغ حوالى ثلاثمئة ألف كيلومتر مربع. وتقع شرق آسيا الصغرى. واشتق الاسم الأرمني من الآرامينيين أو من شعب آرمن. أما اسم آي والذي يمنحه الأرمن لأنفسهم، فمن المرجح أنه يعود إلى بلد آيساس والذي تواجد على التراب الأرمني من القرن الخامس عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وللأسطورة رواية أخرى، إذ تفيد بأن البطل آييك، كان أول ملك مخلّص ومؤسس للأمة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، وأنه منح اسمه إلى البلد. (باللغة الأرمنية القديمة تلقب أرمينيا بآييك).

وبعد انهيار روسيا سنة ١٩١٧، والإمبراطورية العثمانية سنة ١٩١٨، نجح الأرمن في تأسيس جمهورية مستقلة بوجود مؤقت من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٢٠، متخذة من مدينة يريفان كعاصمة لها.

وانتظر الأرمن حتى يوم الحادي والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٩٩١ ليحصلوا على استقلالهم النهائي. وأول رئيس لأرمينيا يدعى لوفون بيتروسيان.

التقسيم الإداري للإمبراطورية العثمانية

عمدت الإمبراطورية العثمانية سنة ١٩٦٤ إلى نهج تنظيم ترابي

جديد، مستلهم من النموذج النابوليوني في المركزية، مع الاعتماد على التقسيم الهرمي من الجماعة إلى المقاطعة. وشرّع القانون سبعاً وعشرين ولاية سميت بأسماء محافظاتها، وبالتالي الاختفاء الكلي للرموز، ولأسماء الولايات التاريخية الوطنية القديمة مثل إرمنتستان وكردستان. وعند نهاية العديد من عمليات الإصلاح (١٨٧٨ و١٨٨٠ و١٨٩٥) أضحت الأناضول الشرقية مقسمة في النهاية إلى ست ولايات مع وضع قيود هدفت إلى تمييز الساكنة الأرمنية عن باقي الشعوب حتى لا تصير أغلبية في إحدى المناطق، وبالتالي تصبح قادرة على تبرير وضع سيادي كبير. والولاية التي يحكمها الوالي أو الحاكم مقسمة إلى أكثر من سندجاك تحت إدراة المتصرف. والسندجاك مقسمة بدورها إلى كازاع والتي يديرها قائم مقام. والكازاع مشكلة من الناحية التي يديرها المدير. والقرية أو الحي هي النواة الأولى المشكلة للناحية مع عمدة أو المختار الذي يعين ويساعده في مهامه مجلس من شيوخ البلد.

٢٤ نيسان ١٩١٥

في لية الرابع والعشرين من شهر نيسان لسنة ١٩١٥، وبأمر من حكومة الثالوث الاتحادية المشكلة من طلعت وزير الداخلية، وجمال وزير البحرية، وأنفر وزير الحربية، قامت الشرطة التركية باسطنبول بجملة من الاعتقالات التعسفية ضمّت العديد من الشخصيات الأرمنية (رجال دين، ومثقفون، وصحفيون، ونواب برلمانيون، ومسؤولو الأحزاب السياسية، وأطباء، وأساتذة، ومحامون، وتجار...) واستبق هذا الاعتداء الإقفال النهائي لمقر جريدة الدشناك آزادامار. وأدت سرعة تنفيذ العملية، وقسوة الظروف التي تمت الاعتقالات تحتها، والقرار الإرداي إلى تحطيم المجتمع إلى أن قرار تصفية النخبة قد فُكر فيه

ملياً. وكل التقديرات التي تهم عدد الموقوفين والمغتالين غير دقيقة. ومن المرجح أنه يصل إلى ستمئة فرد. ولما سئل طلعت من قبل القنصليات الأوروبية المعتمدة بالعاصمة العثمانية، برر العملية بالإشارة إلى التآمر الأرمني والخيانة والثوار الأرمن بمدينة فان.

نيميزيس

أسس هذا التنظيم من قبل الجناح الثوري الأرمني لتنفيذ ما قررته المحاكم التركية من أحكام غيابية. وفي المجموع، سقط ثمانية من كبار المسؤولين الأتراك والأذربيجانيين، وثلاثة خونة أرمن برصاص سبعة من محققي العدالة.

السيطرة على البنك الإمبراطوري العثماني

تم التخطيط وتنظيم الهجوم على البنك العثماني من قبل الجبهة الثوية الأرمنية للدشناك، بهدف إثارة انتباه القوى الأوروبية للوضعية الأرمنية وفضح عدم تطبيق الإصلاحات التي قررت باتفاقية برلين لسنة ١٨٧٨.

ففي الرابع عشر من شهر آب لسنة ١٨٩٦ قامت مجموعة من الفدائيين يقودها بابكن سوني وآرمن غارو باسترمادجيان بالهجوم على البنك العثماني. وقتل بابكن سوني وأربعة من رفاقه أثناء الهجوم، في حين احتلت بقية أفراد الكومندو البنك لعدة ساعات. وقبلت الجبهة الثورية الأرمنية بعد مفاوضات مضنية، بالاستسلام تحت بعض الشروط والتي تظاهر القناصلة الأوروبيون ممثلين بالروسي ماكسيموف بأخذها بعين الاعتبار. وعند استسلام المهاجمين، اعتقلوا على الفور، واقتيدوا إلى سفينة **لاجيروند** الفرنسية، ثم نقلوا إلى مرسيليا.

وعلى الرغم من نهايته غير السعيدة، إلا أن الهجوم على البنك

العثماني دخل تاريخ الحركة الثورية الأرمنية كحادث رئيس. وقد كان لصداه بأوروبا وبالصحافة حينها وقعٌ كبير.

إبادة

بحسب نصوص هيئة الأمم المتحدة (معاهدة منع وقمع جريمة الإبادة لسنة ١٩٤٨، المعدلة سنة ١٩٨٥)، هناك ثلاثة شروط ضرورية للحديث عن إبادة وهي:

- أن يكون الضحايا منتمين إلى مجموعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية.
- أن يقتل أعضاء هذه المجموعة أو يضطهدوا بسبب انتمائهم لهذه المجموعة، مهما كانت الوسائل المعتمدة من أجل تحقيق هذا الهدف.
- أن الإبادة جريمة جماعية مقصودة، ومخطط لها ومقترفة من قبل ذوي السلطة في الدولة سواء كان ذلك باسمهم أو برضاهم الظاهر أو الضمني.

ووفي العاشر من شهر تشرين الأول لسنة ٢٠٠٧، وافقت لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الأمريكي بسبعة وعشرين صوتاً مقابل واحد وعشرين صوتاً على قرار يصف موت مئات الآلاف من الأرمن بتركيا سنة ١٩١٥ بالإبادة، على عكس رأي جورج بوش الابن، وذلك على الرغم من معارضة أنقرة للتصويت. وإلى يومنا هذا (تشرين الأول ٢٠٠٨) لم يرسل القرار إلى المجلس من أجل التصويت عليه في جلسة عمومية.

جرائم ضد الإنسانية

منذ نهاية القرن التاسع عشر، تم الإعلان بسان بترسبورغ في الحادي عشر من شهر كانون الأول لسنة ١٨٦٦، عن المبدأ الذي يقول

إن استعمال السلاح الذي «يزيد من آلام الناس خارج نطاق الحرب من دون داع، أو يجعل موتهم حتمياً» يعد بالتالي «ضد القوانين الإنسانية».

وتعتبر اتفاقية لاهاي لسنة ١٩٠٧ المتعلقة بالقوانين وتقاليد الحرب أن «السكان والمقاتلين تحت حماية وقوة قانون البشر، مثلما ينجم (. . .) قوانين الإنسانية (. . .)».

لكن ومن خلال تحذير موجه من قبل الحلفاء إلى السلطات العثمانية سنة ١٩١٥، تم التعبير عن ذلك بوضوح.

وظهرت مجدداً كمفهوم قانوني محض سنة ١٩٤٥ في قانون المحكمة العسكرية لنورمبرغ. وكان هذا الظهور نتيجة للإرادة في محاكمة المسؤولين عن البشاعات المقترفة خلال الحرب العالمية الثانية مثل ما حدث بشوا[٩٥].

واليوم، تعد الجريمة ضد الإنسانية كتهمة قائمة بحد ذاتها، وأكثر توسعاً ومعرّفة بشكل أفضل بفضل البند السابع من قانون روما للمحكمة الجنائية الدولية لكنه يبقى موضوع جدال كبير. «**الجريمة ضد الإنسانية اعتداء إجرامي يتضمن الاغتيال، والإبادة، واستعباد الناس، وإبعادهم، وكل عمل لاإنساني يقترف ضد ساكنة مدنية**».

محاكمة الأتراك الشباب

بعد فرار المسؤولين الرئيسيين للجنة الاتحاد والتنمية إلى ألمانيا، قررت الحكومة الليبرالية التركية التي أعقبت الحكومة الاتحادية في شهر كانون الأول من سنة ١٩١٨، إنشاء لجان تحقيق من أجل التحقيق، ومحاكمة المسؤولين عن المذابح التي تعرض لها الأرمن إضافة إلى تحديد المسؤولين عن إدخال تركيا في الحرب. فجمعت الوثائق من

(٩٥) بالعبرية كارثة، ويقصد بها الهولوكوست أو المحرقة.

مراسلات مشفرة، ووثائق رسمية إضافة إلى شهادات شهود عيان.
وقسمت أقاليم الإمبراطورية العثمانية إلى عشر جهات، عيّن على رأس كل واحدة منها حاكم وقضاة جنائيون، وقضاة وكتاب ضبط.

وتم توجيه التهم غيابياً إلى القادة الرئيسيين للأتراك الشباب بتهمة القيام بمذبحة وإبادة عرق بأكلمه بحسب تدابير دموية قامت بها منظمة سرية.

إلى هذا، تم الاعتراف بأن الجناة تلاعبوا بالرأي العام واستخدموا أجهزة الدولة من أجل الاغتناء الشخصي، ضاربين الدستور العثماني عرض الحائط. وبعد انتصار القوات الكمالية (نسبة إلى مصطفى كمال)، تم إيقاف الملاحقات في الثالث عشر من شهر كانون الثاني لسنة ١٩٢١.

وتوجد نسخة من المحاكمة بمكتبة الكونغرس بواشنطن.

ومن الغريب جداً أن الحكام الأتراك المتعاقبين على الحكم إلى يومنا هذا، يصرّون على موقفهم الرافض الاعتراف بمذابح مع أن المحكمة قضت فيها، ونسبت فيها الأحكام بطريقة رسمية من قبل من سبقهم.

شكر

أتوجه بالشكر الجزيل إلى آنا ميريلا، وبيير دير آغوبيان على دعمهما وتشجيعهما في كل لحظات من لحظات إنجاز هذا العمل.

كل الشكر أيضاً إلى ريمون كيفوركيان على كتابه الرائع الذي أعانني بشكل كبير «إبادة الأرمن».

هذا الكتاب

تعالوا، فجّروا الدمل. ادخلوا هذا الرمس الذي يبدو أن قلة فقط من أبناء الهلال تريد أن تعترف بوجوده. من الهيّن جداً التعذر بالجهل... فلتمشوا على الوحل، وعلى الدم. فلتطأ أقدامكم هذي الرؤوس المقطوعة، ولتزيحوا عن ممرّكم هذي الأجساد المعلقة في أطراف الطرقات، ولتمرّوا فوق أجساد هؤلاء النساء المغتصبات ببطونهن المبقورة والمخضّبة بالدماء كأنهنّ خرجن لتوّهن من مجزرة، ولتتأملوا أخيراً هؤلاء الأطفال الصغار ذوي الجماجم المهشمة.

لا شك أنكم سترفعون أصواتكم قائلين: «هذا غير ممكن».

إلا أن هذا حدث فعلاً. لقد كان هذا ممكناً في كمبوديا وفي رواندا وفي أي بلد آخر عاش الحرب أو الثورة، كذاك الأمر أيضاً في تركيا العثمانية عند بداية القرن العشرين في ظلّ حكم الأتراك الشباب.

